

انتحار إسماعيل أدهم

تفاصيل المعركة الفكرية التي قامت بين

الملحد إسماعيل أدهم ،

صاحب رسالة (لماذا أنا ملحد؟) ،

وأحمد أبوشادي ، صاحب رسالة (لماذا أنا مؤمن؟) ،

ومحمد فريد وجدي ، صاحب رسالة (لماذا هو ملحد؟)

مع مقالات أخرى



(نصوص وتعليقات)

سليمان بن صالح الخراشي



انتحار إسماعيل أدهم

تفاصيل المعركة الفكرية التي قامت بين

الملحد إسماعيل أدهم ،

صاحب رسالة (لماذا أنا ملحد؟) ،

وأحمد أبوشادي ، صاحب رسالة (لماذا أنا مؤمن؟) ،

ومحمد فريد وجدي ، صاحب رسالة (لماذا هو ملحد؟)

مع مقالات أخرى

(نصوص وتعليقات)

سليمان بن صالح الخراشي




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١ - ٧٠].

أما بعد: فإن تاريخ المسلمين لم يعرف الإلحاد بمفهومه المعاصر، وهو إنكار وجود الله[١]، مهما بلغ انحراف مَن انحرف، فإن الحال لا يصل به إلى هذه الدركة السحيقة؛ فيجحد وجود خالق الأرض والسموات، وهو يرى في نفسه، وفي الكون من حوله، آثار وجوده وربوبيته. كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾؟ أي: «أي إنما ندعوكم إلى الله، وهو لا يحتمل الشك؛ لكثرة الأدلة وظهور دلالتها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾»[٢].

---

(١) لأن الإلحاد في اللغة: هو الميل والانحراف، وكان السلف يُطلقونه على كل من انحرف ببدعته عن السنة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. أما في المفهوم المعاصر؛ فأصبح الإلحاد يُطلق على إنكار وجود الله.

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٣٤٠).

كما قال الأعرابي ذو الفطرة السليمة: البَعرة تدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأثر يدل على المسير، وسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير؟

وقال الآخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيونٌ من لُجين شاخصاتٍ ... على ورقٍ هو الذهب السبيك
على كثبِ الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

ورحم الله أمير الشعراء: أحمد شوقي، الذي أبدع في الرد على مُلحدي عصره، بقوله: «يا مُتابعَ الملاحدة، مُشايعَ العُصْبَةِ الجاحدة، منكرَ الحقيقة الواحدة؛ ما للأعمى والمِرآة، ولِلمُقْعَدِ والمِرْقاة[١]، ومالك والبحثَ عن الله؟

قُمْ إلى السماء تَقَصّ النظر[٢]، وقصّ الأثر[٣]، واجمع الخُبْرَ والخَبَر. كيف ترى ائتلافَ الفَلَك، واختلافَ النور والحلَك، وهذا الهواء المشترك. وكيف ترى الطيرَ تحسبَهُ تُرِك، وهو في شَرَك[٤]، استهدفَ فما نجا حتى هلَك[٥]؛ تعالى الله دَلَّ المُلْكُ على المَلِك!

وقِفْ بالأرض وسَلْها: من زَمّ السحابَ وأجراها[٦]، ورحل الرياحَ

(١) المقعد: المصاب بما يقعده عن المشي. والمرقاة: السلم.
(٢) أرسله إلى أقصاه.
(٣) قص الأثر: اقتفاه.
(٤) تظنه حرًّا طليقًا، وهو أينما حل في متناول قبضة الصياد.
(٥) لا يكاد ينجو من سهم مصوب إليه حتى يُدركه الموت من سهم آخر.
(٦) زم الناقة: خطمها.

وعَرَّاها[١]، ومن أقعدَ الجبالَ وأنهضَ ذُراها[٢]، ومن الذي يحلُّ حُباها[٣]، فتخِرُّ له في غدٍ جِباها؟ أليس الذي بدأها غبرات[٤]، ثم جمعها صخرات، ثم فرَّقها مُشمَخِرَّات[٥]؟

ثم سَلِ النملَ: مَنْ أدقَّها خَلْقا، وملأها خُلقًا، وسَلَكها طُرُقا، تبتغى رزقًا؟ وسلِ النحلَ مَنْ ألْبَسَها الحِبَر[٦]، وقَلَدها الإِبَر[٧]، وأطْعَمَها صَفْوَ الزهر، وسخّرها طاهيةً للبشر[٨]؟

لقد نبذتَ الذّلولَ المُسعِفَة[٩]، وأخذتَ في معامِي الفَلْسَفَةِ[١٠]، على عَشواءَ من الضلال مُعْسِفَة[١١]. أوْ لا: فخبرني: الطبيعةُ مَنْ طَبَعَها، والنُظُمُ المتقادمَةُ مَن وضعَها، والحياة الصانِعة مَنْ صَنَعها، والحركةُ المدافعة مَن الذي دفَعها[١٢].

---

(١) رحل البعير: شد على ظهره الرحل تمهيدًا للسير. عراها: جردها مما فيها من أمطار.

(٢) ثبت قواعدها في الأرض، ورفع عاليها شامخة في السماء.

(٣) يفكها من حبوتها، ويُنهضها من ربضتها.

(٤) جمع غبْرة (بتسكين الباء)، وهي ذرة الغبار.

(٥) باذخات.

(٦) الحبر: برود يمنية ملونة، شبه بها تلك الألوان الزاهية التي يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس.

(٧) سلّحها بها.

(٨) تطبخ لهم في بطونها عسلًا.

(٩) الذلول: شريعة الإسلام؛ لأنها سمحة، تُسعف أبناءها باليقين والإيمان.

(١٠) المعامي: المجاهل.

(١١) العشواء: العمياء. وأعسف: خبط في السير.

(١٢) النظم المتقادمة، والحياة الصانعة، والقوة الدافعة: كل هذه قوى يظن الملحدون كفرًا أنها الأصل في الكائنات.

عرَفنا كما عرفت المادَّة، ولكن هُدِينا وَضلَلْتَ الجادّة. وقلنا مِثْلك بالهَيولى[١]، ولكن لم نَجحدَ اليدَ الطولَى[٢]، ولا أنكرنا الحقيقة الأولى[٣].

أتينا العناصرَ مِنْ عُنْصُرِها، وَرَدَدْنا الجواهرَ إلى جوهرها[٤]، اطَّرَحنا فاسترَحنا[٥]. وسلَّمنا فَسَلِمنا، وآمنَّا فأمِنَّا، وما الفرقُ بينَنا وبينَك إلا أنَّكَ قد عَجَزْتَ فقلتَ: سرٌّ من الأسرار. وعَجَزْنا فقلنا: الله وراءَ كلِّ ستار!»[٦].

قلتُ: أما في العصر الحديث، ومع هبوب رياح سموم الإلحاد من ديار الشرق والغرب، فقد خرج من أبناء المسلمين - للأسف - مَن هان عليه دينه، وخسران نفسه، فهوى إلى تلك الدركة، عندما انساق مع روح «التمرد» و«المغامرة» في تقليد ملحدي الشرق والغرب، في جحودهم وجود الخالق ﷻ، متشبثين بشبهات شيطانية ساذجة.

ومن هؤلاء «المتمردين»: شابٌ تركي مسلم، اسمه «إسماعيل أحمد أدهم»، اشتدت به الريح في زمن عاصف، فلم يستعصم منها بصراط الله المستقيم، ولم يستمسك بالعروة الوثقى، التي تقيه - بإذن الله - من الفتن والشرور؛ فهوت به الريح في مكان سحيق.

فكان هذا الشاب أول مجاهرٍ بالإلحاد السافر في بلاد المسلمين، عندما ألف

---

(١) الهيولى: من المادة. شبّه الأوائل طينة العالم بها.
(٢) يد الله التي أبدعت هذه الطينة، ونفخت فيها الروح.
(٣) وجود الله.
(٤) إلى أصلها وجبلّتها.
(٥) آمنا بالله، وتركنا ما دون هذا من التفكير العقيم الذي لا نهاية له، والبحث الضال الذي لا يؤمن فيه العَثار.
(٦) نقلاً عن كتاب «الحديقة»؛ لمحب الدين الخطيب (٧/ ١١٣ - ١١٥).

رسالة صغيرة بعنوان: «لماذا أنا ملحد؟».

وقد تصدى له مَن استهجن فعله، وردّ عليه حينها، وفنّد شبهته التي قلّد فيها أساطين الإلحاد الغربيين ذلك الوقت[١].

ثم كانت خاتمة إلحاده أن انتحر غرقًا بعد رسالته السابقة بسنوات قليلة، «وقد عثر البوليس في معطفه على كتابٍ منه إلى رئيس النيابة يُخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكراهيته لها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها»[٢]! ليكون آخر العهد به، تلك الجثة الطافية على مياه البحر الأبيض المتوسط، التي لفظها الشاطئ؛ لتكون كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

فكانت آيةً لأولي الألباب بأن يعرفوا قدر أنفسهم الضعيفة، فلا يُعرضوها للشبهات، أو يشاقوا الله ﷻ، ويتمردوا على شرعه وحكمه.

أما غيرهم، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، ولهذا فقد وُجد منهم اليوم - وبعد أن لفظ

---

(١) يُنظر على سبيل المثال: مقال «حدث جلل لا يُمكن الصبر عليه» للشيخ يوسف الدِجوي، نُشر على ثلاث حلقات في مجلة الأزهر (السنة ١٣٥٦هـ، المجلد ٢، الصفحات: ٤٨٧ - ٤٩١، ٥٤٨ - ٥٥١، ٦١٢ - ٦١٥)، ويُنظر: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين»؛ للشيخ مصطفى صبري (٢/ ٤٠٢ - ٤٣٣)، وسيأتي نقله - إن شاء الله -، وقال عن أدهم: «اجترأ على نشر كتابه الذي سماه: لماذا أنا ملحد، والذي لا يجترئ مجترئ على نشر مثله، لا في أي بلد إسلامي فقط، بل في أي بلد أيضًا يسود فيه العقل ويُحترم».

(٢) مجلة «الرسالة»، السنة الثامنة، المجلد الثاني، (ص ١٢٤١)، و«والأعلام الشرقية» (ص ٨٦٠).

الناس الإلحادَ وأهله - مَن يُحاول بعث سيرة ورسالة ذاك المنتحر المغرور؛ ليَضل ويُضل بها، منساقًا من جديد مع روح «المغامرة» و«التمرد»، غير آبهٍ بعاقبة الأمور ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

ومَن يُقدَّر له دخول عالم الأنترنت، سيرى مدى النشاط من أولئك المعرضين في تداول رسالة «لما أنا ملحد؟»، ومحاولة إحياء ذكر صاحبها البائس، دون تعرض لمن رد عليها، وأزهقها في مهدها..

تقول الأستاذة صافيناز كاظم في مقال لها عن محاولة نشر رسالة أدهم: «صار الكلام على هذا الكراس نشيدًا يُتغنى به في كل محفلٍ ونادٍ، ولو من دون قراءة له، أو بيانات صحيحة عنه»، وأن هذا الكراس أو الكتيب الساذج «..يؤكد قدر الخلل والارتباك والتخبط، الذي عانى منه المسكين، وأتباعه الصارخون بعنوان كتابه..»[١].

لهذا؛ ولكي تكتمل الصورة من جميع جوانبها، التي حاول البعض إخفاء الجانب الحَسَن منها، فقد أحببت أن أبعث رسالة الأستاذ أحمد أبوشادي «عقيدة الألوهة»، التي أشعلت شرارة (المعركة)[٢]، واستفزت إسماعيل أدهم لكتابة رسالته الإلحادية، ورسالة الأستاذ فريد وجدي: «لماذا هو ملحد؟»، التي عقّب بها على رسالة أدهم، وأجاب عن شبهته التي ورطته في جحود رب

(١) جريدة الشرق الأوسط، الخميس ١٥/ ٥/ ١٤٢٨هـ.

(٢) سماها بهذا: الأستاذ أنور الجندي في كتابه «المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة» (ص ٣٠٥ - ٣٠٧)، وعنه اقتبست ما جاء في عنوان هذه الرسالة.

العالمين ﷻ، مع التعليق على ما يستحق التعليق من تلك الرسائل، وإتباعها ببعض النصوص المهمة عن موضوع الإلحاد، ونقض الشبهات التي بنى إسماعيل أدهم إلحاده عليها.

فجاءت محتويات هذه الرسالة كالتالي:

١- ترجمة أحمد زكي أبوشادي.

٢- ترجمة إسماعيل أدهم.

٣- ترجمة محمد فريد وجدي.

٤- رسالة «عقيدة الألوهة»؛ لأبي شادي.

٥- رسالة «لماذا أنا ملحد؟»؛ لإسماعيل أدهم.

٦- رسالة «لماذا أنا مؤمن؟» لأبي شادي، التي رد بها على رسالة إسماعيل أدهم.

٧- رسالة «لماذا هو ملحد؟»؛ لمحمد فريد وجدي، التي رد بها على رسالة إسماعيل أدهم.

٨- نقد الشيخ مصطفى صبري لرسالة إسماعيل أدهم.

٩- الإلحاد في العصر الحديث؛ للدكتور جعفر شيخ إدريس.

١٠- كيف نعالج ظاهرة الإلحاد؛ للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق.

١١- نقض شبهة «المصادفة»، التي اعتمد عليها إسماعيل أدهم؛ للدكتور فؤاد البرازي.

١٢- نقض نظرية دارون، التي آمن بها إسماعيل أدهم؛ للأستاذ أبي بكر محمد زكريا.

١٣- الجواب عن سؤال الملاحدة المتكرر: «من خلق الله؟»؛ للشيخ عبدالرحمن الميداني[١].

أسأل الله الكريم بمنّه وفضله أن ينفع بما جمعت، وأن تكون هذه الرسالة تبصرة وذكرى لشباب المسلمين، تُبرز لهم حقيقة طريق الإلحاد الكافر،

---

(١) وقد اقتصرت على ما يُناسب هذه الرسالة. وإلا فإن المؤلفات في نقد الإلحاد وشبهاته كثيرة - ولله الحمد -، من أهمها: «الإلحاد المعاصر: نشأته، أسبابه، و نقد أسسه»؛ للدكتور أحمد محمد جلي، و«كيف نحارب الإلحاد؟»؛ للشيخ محمد أحمد باشميل، و«صراع مع الملاحدة حتى العظم»؛ للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، و«مذاهب فكرية معاصرة»؛ للشيخ محمد قطب، و«مناظرات وبراهين لإسكات الملحدين»؛ لفهد البلوشي، و«الوجود الحق»؛ للدكتور حسن هويدي، و«عصر الإلحاد: خلفيته التاريخية و بداية نهايته»؛ لمحمد تقي الأميني الندوي، و«كيف تدعو ملحدًا؟»؛ للشيخ مدحت آل فراج، و«بعض أسباب الإلحاد وأثر الإيمان بالله تعالى»؛ للدكتور عبدالحليم حمدي، و«حوار مع صديقي الملحد»؛ لمصطفى محمود، و«لماذا يلحدون؟»؛ لسيد الجميلي، و«كيفية دعوة الملحدين إلى الله تعالى في ضوء الكتاب و السنة»؛ للشيخ سعيد بن علي بن وهف القحطاني، و«جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي»؛ لمحمود عبدالحكيم عثمان، و«الفكر الإسلامي في مواجهة التيار الإلحادي المعاصر»؛ لميصر سليمان محمد، و«الإلحاد و أسبابه: الصفحة السوداء للكنيسة»؛ لزينب عبدالعزيز، و«الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين»؛ للدكتور صابر طعيمة، و«الإسلام في مواجهه الماديين والملحدين»؛ للدكتور عبدالكريم الخطيب، و«في مواجهه الإلحاد المعاصر»؛ ليحيى فرغل، و«للكون إله - قراءة في كتابي الله المنظور والمسطور»؛ للدكتور صبري الدمرداش، و«بين الإلحاد و التوحيد»؛ لعبدالعزيز حسين، و«القرآن و الملحدون»؛ لمحمد عزة دروزة، و«الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»؛ للشيخ عبدالرحمن السعدي، و«عقيدة المسلمين و الرد على الملحدين و المبتدعين»؛ للشيخ صالح البليهي، و«ردة و لا أبا بكر لها»؛ لأبي الحسن الندوي، و«الدين في مواجهة العلم»؛ لوحيدالدين خان. وغيرها.

ومآلاته، وتهافت شبهاته؛ فلا يغتر بعضهم بعدها بمغامرة طائشة، أو تمردٍ يوحي به الشيطان، تكون عاقبته الحسرة والندامة في الدنيا والآخرة. كما أسأله تعالى أن يتوفانا على دينه، غير خزايا ولا مفتونين.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

سليمان بن صالح الخراشي

Alkharashi1@hotmail.com



ترجمة الدكتور أحمد أبوشادي[1]

هو الأديب المصري المعروف، الدكتور أحمد زكي بن محمد بن مصطفى أبي شادي.

وُلد بحي عابدين بالقاهرة في ٩ فبراير ١٨٩٢م، وكان والده محمد أبو شادي (بك) نقيباً للمحامين، وأحد أعضاء حزب الوفد البارزين.

التحق بمدرسة الطب بقصر العيني، وفي عام ١٩١٣م سافر إلى إنجلترا ليدرس الطب، حيث أتقن اللغة الإنجليزية، واطلع على آدابها، ثم تخصص في البكتريولوجيا، ثم تحول إلى النحالة، وأسس نادي النحل الدولي، كما أسس جمعية آداب اللغة العربية. وفي سنة ١٩٢٢م عاد إلى مصر.

أنشأ جماعة أبوللو الأدبية، وقد أعلن ميلادها في القاهرة في شهر سبتمبر عام ١٩٣٢م، وصدرت عنها مجلة تحمل اسمها، وتنشر أدبها، وتذيع أفكارها وآراءها، هي مجلة (أبولو). ودعا فيها إلى التجديد في الشعر العربي، والتخلص من تقاليده،وكان من بين أنصار هذه الدعوة: إبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، وغيرهم من مشاهير نهج مدرسة أبوللو، المعروف بالرومانسية، والقافية المتغيرة على طول القصيدة.

---

(١) الأعلام (١/ ١٢٧ - ١٢٨). ويُنظر للمزيد عنه: «أحمد زكي أبو شادي - الشاعر النموذجي»؛ لكامل عويضة، و«أحمد زكي أبوشادي»؛ لمحمد عبدالفتاح إبراهيم، و«أبوشادي وحركة التجديد في الشعر العربي»؛ لكمال نشأت، و«جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث»؛ لعبدالعزيز الدسوقي، و«مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث»؛ للدكتور محمد سعد فشوان.

وقد واجهت دعوته حربًا قاسية من الشعراء المحافظين، التابعين لنهج مدرسة الإحياء والبعث؛ كالعقاد والمازني، وغيرهم.

فضاق أبو شادي ذرعًا بالنقد الموجه له، والهجوم عليه، فهاجر إلى نيويورك سنة ١٩٤٦م، وكتب في بعض صحفها العربية، وعمل في التجارة، وفي الإذاعة، وألف في نيويورك جماعة أدبية أسماها رابطة منيرفا، وقد ضمت الرابطة عددًا من الأدباء والمفكرين العرب والأمريكيين، وقام بتدريس العربية في معهد آسيا بنيويورك. وتوفي فجأة في واشنطن بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٥٥م.

مؤلفاته:

كان إنتاجه غزيرًا - الأدبي خاصةً -، وصدر له عدد كبير من الدواوين والمؤلفات. فمن أعماله:

١- عظمة الإسلام.

٢- ثورة الإسلام.

٣- الإسلام الحي.

٤- من نافذة التاريخ

٥- شعراء العرب المعاصرون

٦- قضايا الشعر المعاصر

٧- قصة الأدب المهجري

٨- على مائدة منيرفا ١٢ج

٩- الشفق الباكي (١٩٢٦م).

١٠- إحسان (١٩٢٧م).

١١- أشعة وظلال (١٩٢٨م).

١٢- الشعلة (١٩٣٣م).

١٣- فوق العباب (١٩٣٥م).

١٤-مسرحية الآلهة (١٩٢٧م).

١٥- مسرحية إخناتون فرعون مصر (١٩٣٣م).

* أبوشادي: أديبٌ مبدع .. خاض فيما لا يُحسن!

يُعد أحمد زكي أبوشادي من رواد الشعراء العرب المحدَثين، الذين أبدعوا فيما يسمى «الشعر الحديث»[(١)]، قال عنه الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي: «كان من طليعة من نظموا فيه، ودعوا إليه، وحبذوه»[(٢)]. ثم أورد بعض روائعه الشعرية[(٣)].

ولهذا نجد الكاتب الإسلامي الكبير، الأستاذ محب الدين الخطيب رَحِمَهُ اللهُ يُطرز كتابه الأدبي «الحديقة» بكثير من قصائد أبي شادي الجميلة، ومنها:

الملكة السجينة - ملكة النحل-[(٤)]

لـلـه مـا أبهـاكِ يـا نحـلـتي ... في ثوبكِ الزاهي بوشيِ الذَّهبْ

تمشين في وَجْـدِ الـعـروسِ الـتي ... قد أرملتْ في عُرْسِها المُقْتَضَبْ

---

(١) وهو شعرٌ له محبوه، يدخل في دائرة المباح، ما لم يحتوِ مضمونه على مخالفات شرعية.

(٢) قصة الأدب المهجري (ص ٤٥٣).

(٣) إلا أن أباشادي - كما يقول الشيخ سيد العفاني -: «درج على نشر قصائده في أبوللو، وبجوارها صورة عارية ومثيرة»! (أعلام وأقزام: ١/ ٢٨٦).

(٤) الحديقة (٣/ ١٤٧).

وحولَكِ الجَمْعُ: بناتٌ أبتْ طبيعةُ الكونِ لهنَّ النّسبْ!
يا حُسْنَ ذا العطفِ الكريمِ الذي يحييكِ للنَّفْعِ العظيمِ السَّبَبْ
تمشينَ في موكبِ نُبْلٍ وما أعطيتِهِ زَهْوًا لأجلِ الطرَبْ
لكنَّهُ حالُ الأسيرِ الذي يُساعدُ الآسرَ عند الطلَبْ!
أحكام شَعْبٍ مِنْ كبارِ المنى للنفْعِ والحكمةِ فيها الغَلَبْ
أفرادُهُ النّسوة في نهضةٍ فليعتبرْ منّا الكثيرو الصَّخَبْ!
ما الجنس للنفسِ فخارًا لها إنْ فاتها الجِدُّ وضاع الأدَبْ
وربَّما كانَ النساءُ العلى وربما كان الرجالُ النُّوَبْ!
للهِ كمْ مِنْ عبرةٍ كنْتِها يا نحْلتي بالجهْدِ...كمْ تُرْتَقبْ!

عرس الأصيل[1]

غنَّى الأصيلُ فقمتُ أرقبُ عرسَه قبل التّفرُّقِ في المساءِ الداني
فإذا الأشعَّةُ راقصاتٌ مثلما رقصتْ لتلعب بالقلوب غواني
يتموَّجُ الماءُ الطَّروبُ وتزدهي وثباتُها عجَبًا على الأغصانِ
طورًا مذَهَّبَةً وآنًا فضَّةً وأعزُّها سِحرٌ بسحْرِ بيانِ
والتَّمْرُ محمرٌّ ومصفَرٌّ على عالي النخيل كجمعها الفتَّانِ
جُمِعَتْ به الأضواءُ بعد تفرُّق وبدتْ به الجَمَراتُ حلوَ جُمانِ
وإذا المروجُ عساكرٌ، أعلامُها خُضْرٌ، تهزُّ أسنّةَ المرّانِ
وإذا العَرُوسُ الشَّمْسُ بين زَوارقٍ هُنَّ السحابُ لبسن ثوبَ حسانِ
وإذا السماءُ بُحيرةٌ ترنو لها عينُ الطبيعة والجمالُ الهاني
في مَعْرِضٍ صُوَرُ الوجودِ ضحوكةٌ فيه تُشاطرُ صَفْوَه المتفاني

---

(١) الحديقة (٤/ ١١).

وأمامَه الدنيا على عَزْفِ الهوى سِرًّا وجَهْرًا في أحبِّ زمانِ
أين التفتَّ رأيتَ حسنًا باسمًا وشهدتَ أحلامًا وصدقَ أماني

تبسم للحياة[١]

تبسَّمْ للحياةِ وكُنْ سَبُوحًا على غَمَراتها مثلَ (السقيّ)[٢]
وكُنْ (كاللُّوتَسِ) الضاحي هنيًّا[٣] وإنْ لم يَنَمُ في ماءٍ نقيٍّ
تَعَوّدَ حَظَّهُ وأضاءَ زهْرًا وعاش بنعمة الحُرّ التقيِّ
فتعشقُه العيونُ بلا سُكُون[٤] ويقنعُ بالحنينِ المَشْرِقيّ[٥]
وما سرَّ الحياةِ سوى احتمال سواءٌ للهنيِّ وللشَّقيِّ

العصفور[٦]

ساكنَ الأغصانِ غَرّدْ للمُنى شِعرًا وغَنِّ
صَوْتُكَ الصدَّاحُ سِحْرٌ يطردُ الأحزانَ عني

***

أنتَ لا تخْشى همومًا أنتَ تحيا في اجتهادْ
تُبصرُ الدُّنيا نعيمًا لم يُنغّصْ بحدادْ

***

(١) الحديقة (٤/ ٤٠).
(٢) السقي: هو نبات البردي المعروف.
(٣) اللوتس: تسمى النيلوفر. زهرة تنبت في مصر.
(٤) سكون: انقطاع.
(٥) إشارة إلى شروق الشمس.
(٦) الحديقة (٤/ ١٣١).

كُلُّ ما فيها جميلٌ طالما لم تَلْقَ أسْرا
كل ما تهوى خليلٌ صادقٌ لا مُلْك كِسْرى

***

أنتَ عنوانُ المعالي أنتَ رمزٌ للوفاءْ
بالوُجودِ الحُرِّ غالي بالتَّسامي والإباءْ

***

تُنفق العُمْرَ مُجِدًّا دون أن تَنسى القناعَهْ
لا ترى عَمًّا وجَدًّا رُكْنَ مَجْدٍ أو بَراعَهْ

***

ساكنَ الأغصانِ غرِّدْ صَفْوَ ما يَهْوَى الربيعْ
أعطني درسًا شهيًّا يُنْعِشُ القلبَ السَّمِيعْ

السعادة(١)

أمَّا السَّعادةُ (عندي) فلذَّةٌ مُستَعادَهْ
قالوا (القناعةُ) منها وإنَّ منها (السِّيادهْ)
وقد أصابوا، ولكنْ لها دَواعٍ وقادهْ
العاملون لخَيرٍ المبتغون الإجادهْ
القانعون بعيشٍ للنَّفْع لا للبلادهْ
الرَّاضخون لحَقٍ عن راحةٍ مستفادهْ
يبنون لا قَصْدَ زَهْوٍ ولا لأجلِ الإشادهْ
لكن وُلوعًا بخَيرٍ (فالخير) أصل (السَّعادهْ)

---

(١) الحديقة (٤/ ١٧٤).

قلتُ: ليت أباشادي قصَر نشاطه على مجال الأدب الذي أبدع فيه، أو مجال الطب الذي تخصص فيه، إلا أنه تجاوز هذين الميدانين إلى الخوض في المسائل الشرعية، التي لا يُحسنها، بوجهة مزجت بين «الصوفية» و«العقلانية»! - كما سيأتي -، فخبط خبط عشواء، ووقعت منه زلات عظيمة، وانحرافات جسيمة، عبّر عنها في كتابه «ثورة الإسلام»[١]، الذي أساء فيه للإسلام، ولم يُحسن، فحرّف أحكامه، وتطاول على السنة وأهلها، متوهمًا أن هذه هي الطريقة المناسبة للرد على شبهات المستشرقين، أو مواجهة الضغط الفكري الموجه للإسلام في تلك الفترة، مما أدى به إلى مجاراة تلك الضغوط؛ بالتنازل عن أحكام الإسلام التي يُظن أنها تخالف العقل أو الواقع، إضافةً إلى أن خلفيته الصوفية التجريدية لم تكن لتساعده على خوض مثل هذه الصعاب بثبات ورسوخ[٢].

مما دعا القاضي **الشيخ محمد حسن بنجر** رَحِمَهُ اللهُ إلى تصنيف رد على كتابه السابق، سماه «دراسات إسلامية ونقد كتاب ثورة الإسلام»، قال في أوله[٣]: «نحمدك اللهم ونشكرك، ونعبدك ولا نكفرك، نعوذ بالله من سيئات أعمالنا ومن سقطات أقوالنا، نسألك الله الرشد والإلهام ونستلهمك الحق وصدق الإيمان، وصلاة وسلاماً على سيد الأنام، رسول الإسلام، محمد وآله وصحبه الكرام.

---

(١) وقد قدّم لكتابه: الصوفي طه عبدالباقي سرور، والأديب محمد عبدالمنعم خفاجي، وقالا عنه (ص٤ - ٥): «وأبو شادي يجمع في الواقع مواهب كثيرة متعددة، فهو كاتب، وأديب، وناقد، وعالم، وطبيب، ورسام، وهو شاعر، ومؤلف، ومفكر»!

(٢) وسيأتي في رسالتيه «عقيدة الألوهية» و«لماذا أنا مؤمن؟» شيء من أفكاره المنحرفة، مع التعليق عليها.

(٣) (ص ١٠ - ١١). وانظر للرد على كتاب أبي شادي - أيضًا -: «القرآنيون وشبهاتهم حول السنة»؛ للدكتور خادم حسين بخش (ص ١٧٦ - ١٧٩)، و«أعلام وأقزام»؛ للشيخ سيد العفاني (١/ ٢٨٥ - ٢٨٧).

وبعد؛ فقد لفت نظري بعض الإخوان إلى كتاب اسمه «ثورة الإسلام»؛ للدكتور أحمد زكي أبي شادي، وأن أقرأه وأنقده، وجزاه الله خيراً، فقد ألزمني بقراءته أن أقوم بواجبي الديني في الدفاع عن الإسلام، وأن أدل على ما في الكتاب من مساقط ومآخذ، قد يغتر بها بعض القراء المثقفين، بله العوام والجاهلين، معتقدين بصحتها، وهي خطر على الإلهام، وخطأ جسيم لا ينبغي تجاوزها مهما كان قدر وشأو الكاتب.

والحقيقة أن المؤلف - وقد عاش مهجرياً في الولايات المتحدة وعايش بعض الأحداث في عصرنا - يدين بالحرية المطلقة، ويعجب بمدنية أوروبا الغربية عامة، وبأمريكا خاصة، ويمجدها تمجيداً قوياً، يظهر ذلك في استشهاده بها مراراً وتكراراً، حتى قال: «إن مبادئ الإسلام نظرياً وعملياً هي أقرب ما تكون لمبادئ الحضارة الأمريكية والحياة الأمريكية تفكيراً وسلوكاً» - ص٥٧-، فجعل من القوانين الرخيصة مثلاً أعلى، ومن الحياة الغربية شأناً وأي شأن، وحتى يقول: «وما الدفاع الذي تقوم به أمريكا اليوم عن العالم الحر إلا صنو الدفاع الذي رفع لواءه محمد»! - ص٦١- وشتان بين مُشرِّق ومُغرِّب.

كما يعجب المؤلف بالثورات، لذلك سمى كتابه «ثورة الإسلام»، وماذا جنى المسلمون والعرب من تلك الثورات المتعاقبة على حكوماتهم إلا ضعفاً على ضعف، ووهناً على وهن؟ لو أن المؤلف الذي توفى في عام ١٩٥٥م عاش إلى يومنا هذا؛ لغير مفاهيمه، وعدل اسم كتابه هذا، وصحح أخطاءه.

فقد وصلت الحرية الغربية المزعومة إلى أدنى المستوى الأدبي خلقياً وسياسياً، ولا ريب أن كلمات المستر لنكولن أحد رؤساء الولايات المتحدة المرموقين القلائل: «لست أسأل للزنجي سوى أمر واحد، هو إذا كنت لا تحبه فدعه وشأنه، وإذا كان الله لم يعطه إلا قليلاً، فدعه يتمتع بهذا القليل»، قد

ذهبت مع الريح، كأقوال أبي شادي عن المدنية الحديثة والعالم الجديد، ولا زال شعبها من الزنوج والهنود الملونين يعانون عناءً شديداً من الاضطهاد والعنصرية الشيء الكثير، كما لازال عامة الشعب يئن من تفشي الفجور والسلب والقتل والانحلال، في ظل المدنية الحديثة والعالم الجديد...».

ثم قال[١]: «وبعد أن وفقنا الله بنقد كتاب ثورة الإسلام، الذي قام مؤلفه الدكتور أحمد زكي أبو شادي بالتصدي والرد على المستشرقين - غير أنه وللأسف الشديد تعرض لأمور عقائدية، ونظم شرعية، وقواعد إسلامية، حاد فيها عن الصواب، وجانبه فيها التوفيق، متأثراً بأقوال بعض المستشرقين، وتهويم المتشككين، وتخيلات المتخيلين، بما احتوت هذه الأقوال من حملة ظالمة ضد الإسلام والمسلمين، وغمزات حاقدة ضد الحق المبين.

وقد بان تأثر المؤلف واستبان من كتابه ثورة الإسلام، لذا كان من الواجب الذي فرضه علينا ديننا أن نرد على تلكم الشبهات، ونُزهق باطل المبطلين، فغالبية المستشرقين دورهم الكبير في ذلك، وفي حجب محاسن الإسلام عن أمتهم، بما يروجونه من أكاذيب وأباطيل حول الإسلام والمسلمين، آخذين الحدة في ذلك من بعض الزنادقة المنتسبين إلى الإسلام زوراً، وما هم بمسلمين، ومن بعض الخوارج والروافض والفرق المنحرفة على أنهم فرق إسلامية، كما أخذوا من الفتن السياسية التي وقعت بين المسلمين تكأة في القدح في الدين الإسلامي، وليس ذلك بحجة على الإسلام القويم».

وبعد ختام رده، أوجزه في نقاط، قائلاً[٢]: «وخلاصة كتاب «ثورة

---

(١) (ص ١٣٨).
(٢) (ص ١٥٦ - ١٥٧).

الإسلام»، وحصيلة ما انتهى إليه د. أحمد أبو شادي من آراء وأفكار، صاغها للقراء في قالب الدفاع عن الإسلام، ورده على المستشرقين الضالين، هي:

١- تشكيك المسلمين في عقيدتهم عن ذاتية الله، ودعوى وحدتها مع خلقه، مفسراً قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ تفسيراً وحدوياً، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الآية، وهي دعوى فلسفية انحرافية قديمة، انزلق فيها مع بعض الفرق الضالة من المسلمين، وبعض الصوفيين المنحرفين[(١)].

٢- التشكيك والطعن في بعض الصحابة الأجلاء؛ أمثال أبي هريرة وأنس بن مالك وعبدالله بن عباس ﷺ، ووصفه إياهم بالغفلة، وانتحال الأحاديث على رسول الله ﷺ.

٣- الطعن في أصحاب السنن، والتشكيك في كتب الأحاديث الصحيحة.

٤- الطعن في كثير من الأحاديث الصحيحة، وأنها دخيلة ومكذوبة على رسول الله ﷺ، ومنتحَله.

٥- تهجمه على بعض أقوال المجتهدين في بعض أحكام التشريع الإسلامي، ووصفه إياهم تارة بالجمود، وتارة بالتجاوز.

٦- إنكاره للبعث والجزاء والعقاب والحساب الأخروي، وتفسيره للحساب والجزاء تفسيراً خاطئاً.

٧- زعمه أن القرآن الكريم يحتوي على إشارات ورموز، وأن تلك الآيات المباركة على غير حقيقتها الدالة عليها.

---

(١) يُنظر للرد على أصحاب وحدة الوجود: رسالة «وحدة الوجود عند الصوفية: حقيقتها وآثارها: عرض و نقد»؛ للشيخ احمد بن عبدالعزيز القصيّر.

٨- زعمه إمكان تكييف بعض العبادات واختصارها على حسب مقتضات حاجات العصر، وذلك بإمكان جعل الصلاة الخمس صلاتين أو ثلاثة!!

٩- زعمه إمكان معارضة القرآن.

١٠- كلامه عن المرأة وعقليتها، وأن عقليتها أعظم من عقلية الرجل(١).

١١- ذكره مسائل عدة عن الوضوء بالنبيذ وعن الإسراء والمعراج، وما ينسجه بعض المفسرين من خيالات سخيفة.. الخ

١٢- زعمه أن الدولة الإسلامية دولة فكرية إنسانية، تنهض على الديمقراطية والاشتراكية.

١٣- مثالية الحضارة الغربية، وخاصة أمريكا، وزعمه أن المثالية الأمريكية قريبة من المثالية الإسلامية، وأن الدفاع الذي تقوم به أمريكا هو صنو الدفاع الذي رفع لواءه محمد ﷺ، إلى غير ذلك من الآراء المنحرفة والمتطرفة، وقد فندنا تلك الآراء، ووضحنا للقراء حقائق ما انطوى عليه الدين الإسلامي، من مُثل وعقائد ومقاصد وأهداف بإيجاز».

قلت: وقد أورد الشيخ في كتابه(٢) رسالةً وصلته من الأديب محمد عبدالمنعم خفاجي، يتنصل فيها من تقديمه السابق! قائلاً فيها: «فضيلة الأستاذ الكبير، الشيخ العلامة الجليل: حسن بنجر حفظه الله.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وتحية طيبة مباركة..

---

(١) قلت: يكفي في معرفة الفكر الذي يحمله أبوشادي تجاه المرأة المسلمة، قوله في كتابه (ص ١٤٧): «.. المجاهدين المُصلحين؛ كقاسم أمين ومحمد عبده»!

(٢) (ص ١٤٥- ١٤٦).

١- قرأت بعض الفصول التي كتبتموها عن (ثورة الإسلام) لأبي شادي، وقد أعجبت بها إعجاباً شديداً، وقلمكم دائماً من الأقلام التي يعز الله بها الإسلام والمسلمين.

٢- إن هذا الكتاب كان أبو شادي الأديب المصري قد أعده للنشر.. وبعث به إليَّ لكتابة مقدمته قبل وفاته عام ١٩٥٥م، وتوفي أبو شادي، وكتبت المقدمة، وهي تحتوي على قسمين: قسم عن أبي شادي وحياته، وقسم في مناقشة آراء أبي شادي في الكتاب، واستعجلني الناشر، واستعجلتني بنت أبي شادي، وهي مقيمة في واشنطون مذيعة في (صوت أمريكا)، فسلمت المقدمة بقسميها إلى (حسن إيراني) الناشر، وكان آنذاك مقيماً في القاهرة، وظل الكتاب لديه على أمل أن ينشره، وأن أُشرف على تصحيحه، والاطمئنان إلى نشر المقدمة والدراسة التي معها عن آراء أبي شادي.. ثم هاجر الناشر إلى بيروت، وشارك ناشراً سورياً آخر، وأخيراً وجدت الكتاب مطبوعاً، ومقدمتي فيه ملفقة، أي مأخوذ أطرافاً منها، ومحذوف منها ما يتصل بآراء أبي شادي الإسلامية، ونشرت في ذلك الحين في مجلة الرسالة الجديدة التي كانت تصدر في القاهرة استدراكاً، ذكرت فيه أن مقدمتي مبتورة، وهذه طبعاً قصتي مع الكتاب.

٣- وأبو شادي درس طالباً الطب في إنجلترا (١٩١٢ - ١٩٢٢)، وعاش في الولايات المتحدة (١٩٤٥ - ١٩٥٥)، وثقافته الإسلامية ثقافة استشراقية[١]، فليس هو من المتخصصين في الدراسات الإسلامية، وآراؤه عن الإسلام فيها الخطأ والصواب، ولكنه في الأدب متعمق، فهو شاعر وناقد كاتب، وهو مع ذلك محب للإسلام، معجب له[٢].

---

(١) مع خلطة صوفية! كما سبق، وكما سيأتي في رسالته «عقيدة الألوهية» - إن شاء الله -.

(٢) لايكفي هذا من المسلم! بل لا بد من الانقياد له.

لذلك بادرت بكتابة هذه الرسالة شاكراً أولاً، ومعجباً بكتابكم وقلمكم أخيراً، وأدعو الله لكم التوفيق».

وعلق عليها الشيخ بقوله: «ونحن بدورنا ندعو له وللمسلمين بالتوفيق والسداد، وشكراً، والحمد لله رب العالمين، محمد حسن بنجر».

قلت: وسيرى القارئ أن أباشادي ردد بعض انحرافاته السابقة في رسالتيه: «عقيدة الألوهة» و«لماذا أنا مؤمن؟».

❑ ❑ ❑

ترجمة إسماعيل أدهم[1]

شاب في حدود الثلاثين، مغولي الوجه والسحنة، أقرب إلى القِصر منه إلى الطول، وإلى الهزال منه إلى البدانة، سريع الحديث، ولوع بالجدل، تؤاتيه الأفكار فتنطلق كالسهم، يجيد الكتابة بالعربية، والتركية، والإنكليزية، والروسية، والألمانية، ويحيط بالفارسية، والفرنسية، والإيطالية، وهو في هذه النواحي من نوابغ الشبان، وآية في قوة التفكير وفرط الذكاء.

- وُلد في ١٧ (فبراير) شباط ١٩١١م بمدينة الإسكندرية من أب تركي وأم ألمانية، فوالده أحمد بك أدهم كان من أمراء اللواء في الجيش التركي سابقاً، ووالدته إيلين فانتهوف كريمة البروفسور فانتهوف الشهير، عضو أكاديمية العلوم البروسية.

وقد تلقى دراسته الأولى في مصر، والثانوية بين مصر وتركيا، والعالية في روسيا، وكان أولَ البكالوريا التركية، فقد تخرج من كلية العلوم التركية عام ١٩٣١م حائزاً على درجة بكالوريوس علوم، وهو في العشرين من عمره،

---

(١) باختصار وتصرف عن الترجمة المطولة التي كتبها صاحبه إسماعيل الكيالي، في كتابه «الراحلون» (٧٥ - ١١٩). ولأدهم ترجمة في: «الأعلام» (١/ ٣١٠)، و«الأعلام الشرقية» (ص ٨٥٨ - ٨٦٠)، و«تراجم عربية»؛ لمحمد عبدالغني حسن (ص ١٨٩). و«إسماعيل أدهم»؛ للدكتور أحمد الهواري. وقد جمع الدكتور الهواري «المؤلفات الكاملة لإسماعيل أدهم» في ثلاثة مجلدات. وانظر أيضًا: «أعلام وأقزام»؛ للشيخ سيد العفاني (١/ ١٣٩ - ١٤٠)، وذيل كتاب «المِلل والنِحَل»؛ لمحمد سيد كيلاني (ص ٩١ - ٩٢).

فأوفدته الحكومة التركية إلى روسيا للتخصص في «بعثة تبادل الثقافة والصلات بين الدولتين»، ولم يلبث سنة وبعض السنة حتى نال الدبلوم العالي من معهد الطبيعيات الروسية عام **١٩٣٢**، وتقدم لنوال الدكتوراه من جامعة موسكو، فظفر بها سنة **١٩٣٣**م بتفوق.

وكان تفوقه في الرياضيات، مدعاة لأن تلتفت إليه المؤسسات العلمية في روسيا، وأن تقدره أعظم تقدير، وكانت رسائله العلمية عن الحركات البروتية وعن «بناء الذرة» وعن «التكافؤ الذري» وعن ميكانيكية أينشتين، وملاحظات بال لوفيه على نسبيته، و«الفعل الكهرطيسي»، من الممهدات لأن يُفسح له المجال للاشتغال في معامل البحث الطبيعي في لينغراد. وأن يُنتدب ليكون أستاذاً مساعداً للطبيعيات النظرية بمعهد الطبيعيات الروسي، الملحق بكلية العلوم بجامعة موسكو، فأستاذ الرياضيات البحتة في جامعة سان بطرسبرغ، وهذا الذي جعل جامعة أنقرة أن تفاخر بأحد أبناء بعثتها، وأن تدعوه ليشغل كرسي الأستاذية للرياضيات العليا في معهد «كمال أتاتورك للبحث العلمي» في أنقرة.

- عُرف الدكتور أدهم في سنوات **١٩٣٣** - **١٩٣٥**م من أذكى الشبان العلماء الذين يشتغلون بالرياضيات العلمية في تركيا، وقد دفعته دراسته هذه أن يدرس تاريخ العلم الرياضي، ودفعه هذا أن يدرس المراجع العربية؛ ليستطيع أن يعطي حكماً صحيحاً عن أثر العرب والمدنية الإسلامية في الرياضيات وتقدمها و، كان كثيراً ما يخلوا إلى نفسه ويأخذ في مراجعة النصوص العربية التي أثارت في نفسه ميلاً إلى المباحث الشرقية، فأخذ يطرقها في كثير من الرسائل، ويبعث بها إلى المجلات الاستشراقية في تركيا وألمانيا وروسيا. وسرعان ما عُرف في دوائر الاستشراق بنظراته التحليلية، فعهدت إليه جامعة فريبورغ في ألمانيا بأن يُشرف على إخراج الطبعة الأخيرة من كتاب المستشرق المشهور سبرنجر، عن

النبي محمد ﷺ، فأخرجه مع كثير من الملاحظات والنقدات العلمية. وكان كثيراً ما ينصرف في أوقات فراغه لدراسة تاريخ العرب في الجاهلية، وحياة الرسول ﷺ، وأخيراً إخراج كتابه «تاريخ الإسلام» باللغة التركية، وقد نشرته جماعة «تمحيص التاريخ الشرقي».

ثم انتُخب وكيلاً للمعهد الروسي للدراسات الإسلامية، وأُنعم عليه بدرجة الدكتوراه الفخرية في الآداب «التاريخ الإسلامي والآداب العربية» من جامعة موسكو.

- ومع اشتغاله في المباحث الأدبية والدراسات التاريخية، فإنه لم يُهمل المباحث الرياضية، فقد أطلعني مرة على كتاب له في الرياضيات العليا تبلغ صفحاته الألف صفحة من القطع الكبير، وقد هاله أن لا يجد الطابع العربي كما وجد الطابع الفرنجي يلتهم كل ما تخطه يراعته - أقول: مع أنه أوغل في المباحث الأدبية والدراسات التاريخية فقد ظل خاضعاً لتفكيره الرياضي في كافة دراساته، وإلى هذا أشار في مقاله عن «أثر الرياضيات في الحياة البشرية»؛ لاعتقاده أن التفكير الرياضي يعطي العقل عنصر التنظيم، ويجعل التفكير يتعامل مع الأشياء على أساس صحيح: «فالرياضة تضع حداً بين عهدين في تاريخ الفكر البشري، عهد طغيان المعاني الجوفاء التي لا تدل على شيء وعهد اشتغال الفكر بالمعاني المنطقية، وملاحظة المناطق التي يشغلها في الخارج.

وكان يُخضع كل دراساته إلى هذه القاعدة من حيث الترتيب وتنظيم مباحثه على أسس ثابتة. كما كان يهوله من جهة ثانية، أن ينقص كُتاب العربية كفاية التأمل والمنطق العلمي.

- بعد أن أخذ مركزه في جامعة استانبول لتدريس التاريخ الإسلامي، كان لابد له من أن يتوسع في معرفة اللغة العربية. كان يعرف مبادئها بحكم مصريته

ودراساته الأولى، ولكن غوصه على النصوص الأدبية والدينية جعله يبادر إلى دراستها مجدداً، وكان ذلك مدعاةً لأن تُفتح أمامه منافذ واسعة لدراسة التاريخ الإسلامي، وقد كتب بصدد تعلمه اللغة العربية ما يأتي: «.. إنني أيام تعلمي العربية على يد الأستاذ إسماعيل صائب، مدير دار كتب بايزيد بالآستانة، أخذت أكتب ملاحظاتي وآرائي وملخصات مراجعاتي على الكتب بالعربية؛ لتستقيم يدي على الكتابة بها، وبذا تجمّع لديّ مجموعة ليست بالقليلة من المباحث المختلفة في ضروب المعرفة المتنوعة باللغة العربية، مما يسهل تنظيمها لدراسة العربية».

وظل حتى أيامه الأخيرة، وبعد أن نشر عشرات الرسائل بالعربية، يعترف بعجزه وقصوره عن مجارات بلغاء الكتاب، ويعترف بأنه أجنبي ودخيل على العربية، وحكمه فيها حكم المستشرقين.

- عاد الدكتور أدهم إلى مصر سنة ١٩٣٦م موفداً من كلية الآداب التركية، الملحقة بكلية الآداب بجامعة الأستانة؛ لدراسة الحياة الاجتماعية والأدبية في البلدان العربية. وقد اختار الإسكندرية مقراً له - وفيها بيت والده. وبعض عقارات آلت إليه وإلى أخوته - وكان يقيم في ضاحية أبي قير مستشفياً - وهي تبعد قرابة ساعة في الأوتوبيس عن الإسكندرية - أي أنه اختار مصر لثلاثة عوامل:

١- للدراسة

٢- للاستشفاء.

٣- لتصفية أملاكه.

وقد عُني بالناحية الأولى أكثر من عنايته بصحته وأملاكه، فاتصل بأدباء

الإسكندرية أولاً ثم بأدباء مصر، ثم وثق صلته بمجلة الحديث، وأخذ يكتب في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية.

- كان الدكتور أدهم وهو في مصر يشتغل لحساب جامعة استانبول، وقد ناطت به أن يوافيها بدراسات عن الحياة الأدبية والاجتماعية في البلدان العربية، فوضع ١٣ تقريراً مسهباً، كل تقرير في ١٠٠ صفحة من القطع الكبيرة، وكان معتزماً العودة إلى تركيا عقب الفراغ من مهمته في أواخر سنة ١٩٣٨م، ولكن الأطباء منعوه من السفر حرصاً على صحته، وحتموا عليه أن يظل في جو دافئ كمصر، وبقي فيها مكرها، وقد كان انقطاعه عن عمله الجامعي من الأسباب التي حدت بكلية استانبول أن تقطع عنه مرتبه.

- لقد بينا أن تعلمه اللغة العربية، ودراسته تاريخ العلم الرياضي، واضطراره لدراسة المراجع العربية لإعطاء حكم صحيح عن أثر العرب والمدينة الإسلامية في الرياضيات - كل هذه العوامل كانت من الأسباب التي دفعته للتغول في الشرقيات، وفي دراسة التاريخ الإسلامي، ويقول هو في هذا الصدد: «.. ولقد أكببت مدة من الزمن ليست باليسيرة على تاريخ الإسلام، فدققت معظم المصادر العربية والتركية والفارسية مخطوطة ومطبوعة في دور الكتب، بمختلف أمصار أوروبا وآسيا وأفريقيا، وراجعت جل ما كتبه المستشرقون بالألمانية والروسية والإيطالية والإنكليزية والفرنسية، وطابقت ما ذهبوا إليه على مصادرها الشرقية للتأكد من صحة ما ذهبوا إليه، فما كان صحيحاً قبلته، وما كان ضعيفاً نظرتُ في أمره، وما كان باطلاً رددته ورفضته، حتى تجمع لديّ الشيء الكثير من المعلومات والملاحظات، فيها مقدار ليست باليسير من الأفكار الشخصية».

وكان من نتيجة ذلك أن وضع كتابه «تاريخ الإسلام» إسلام تاريخي - بالتركية»، وهو مجموعة المحاضرات التي ألقاها على طلابه في جامعة استانبول.

إنني لم أطلع على هذا الكتاب، ولكن من اطلع على رسالتيه: «علم الأنساب العربية» و«من مصادر التاريخ الإسلامي»، وهما بعض فصول هذا الكتاب - يُدرك النهج الذي نهجه في كتابه، فالدكتور أدهم بحكم نشأته التركية، ونزعاته الانقلابية، وشكوكه الإلحادية، لم يكن ليستطيع أن يدرس مواد التاريخ الإسلامي بالطريقة المتداولة الآن بين أكثر الباحثين، فقد نهج منهج المستشرقين أولاً، وأحرار الفكر ثانياً(١)، وعملت النزعات الشكوكية عملها في أن يدرس التاريخ الإسلامي دراسة تختلف كل الاختلاف عن الدراسات التي جرى عليها المؤرخون المعاصرون والقدماء، الذين عرضوا للتاريخ الإسلامي.

وقد كان يعتزم أن يُصدر كتاباً ضخماً عن «حياة محمد ونشأة الإسلام» بالعربية، وربما كان يعتزم ترجمة كتابه التركي مع كثير من التوسع، ولكنه خشي معارضة الأزهر، لأن الصدمة التي تلقاها أثناء إخراجه رسالته «من مصادر التاريخ الإسلامي» جعلته يتريث قليلاً، ولم يكن تريثه من هذه الناحية فقط، بل من ناحية نشره، فالكتاب في ستة مجلدات ضخمة، أي في ٣٠٠٠ صفحة من القطع الكبيرة، وقد خشي الناشر المصري أن يقف الأزهر في وجهه، وأن يصادر الكتاب، لذلك قرر الدكتور أدهم نشره في أوربا، ولو نُشر في مصر لأحدث ضجة دونها الضجة التي أحدثها كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، أو كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للأستاذ علي عبدالرازق؛ لأنه كُتب بكثير من الحرية(٢)، فدحض فكرات متداولة منذ القدم، ونقد آراء ومستندات

---

(١) الحرية التي لا تنضبط بضوابط الشرع تكون وبالاً على صاحبها؛ حيث تورده المهالك، كما فعلت بأدهم، الذي استغل هذه النزعة عنده: أعداء الإسلام - كما سيأتي -.

(٢) بل بكثير من الجرأة على الإسلام! وهذه يُحسنها كل مقتات على فضلات المستشرقين، ممن لا يقيمون لأحكام الإسلام وزنًا، ممن قال الله تعالى عنهم: ( ).

هي عند الكثيرين بحكم الوحي والتنزيل مما لا تستطيع أن تهضمها البيئات الإسلامية، وبيئة مصر الأزهرية بصورة خاصة، فقد عرض في الجزء الأول إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، استناداً إلى الاكتشافات الأثرية الأخيرة، وتناول في هذا البحث العرب بالتحليل الأتنولوجي، ودرس أصولهم في قلب شبه الجزيرة، كما بحث كلمة عرب، وتناولها بالتحليل اللغوي، مع فصل مسهب في جغرافية جزيرة العرب، وآخر في العرب البائدة والعاربة والمستعربة، وثمة فصول مستفيضة درس فيها أحوال العرب الدينية والاجتماعية والسياسية، وقد دحض فكرة ذهاب إبراهيم إلى الحجاز مع إسماعيل، ونشأة العرب المستعربة من نسله، ثم تطرق إلى مصادر حياة الرسول ﷺ، وكشف عن اضطراب أصول الحديث، وقواعد السيرة. وتناول القرآن ببحث ضافٍ في جمعه وترتيبه وتدوينه، ثم بحث بحثاً مطولاً عن علم الأنساب من وجهة عامة، وبعد أن تكلم بإسهاب عن نسب الرسول ﷺ، عرض إلى ميلاده وطفولته ونشأته، حتى زواجه من السيدة خديجة، وهذا الجزء بمثابة مقدمة وتوطئة لفهم سيرة الرسول ﷺ على الوجه التحليلي الأتم، وإدراك عوامل الدين الإسلامي في فيافي الجزيرة.

وقد كتب المستشرق كازميرسكي بعد أن اطلع على بعض فصول كتابه يقول: «إن أبحاثه عن حياة الرسول ﷺ من أدق الأبحاث وأطلاها، وأكثرها ابتكاراً، وأعمقها فكرة، وأقلها تحليلاً، ولا عجب فكتابه عن «حياة محمد» يعتبر محوراً جديداً يدفع العقل الإنساني إلى مناحي في التاريخ الإسلامي جديدة»[1].

وقال بارتولد، عضو أكاديمية لينتغراد العلمية: «مباحثه في حياة الرسول من

(١) لا يُستغرب هذا الثناء على كتاب أدهم من المستشرقين! فهم مَن صنعوه تحت أعينهم؛ فأصبح يحمل أسفارهم وشبهاتهم التي لن يتقبلها المجتمع المسلم إذا ما أتت عن طريقهم.

خير ما كتب الباحثون، وتتجلى لك قدرته الشخصية في نقده المصادر التاريخية، وإجلاء المسائل الغامضة في بحوث تحليلية دقيقة»[١].

- وتوطئةً لنشر كتابه «حياة محمد ونشأة الإسلام»: نشر في عام ١٩٣٦م أولى رسائله العربية، وهي «من مصادر التاريخ الإسلامي»، عرض فيها إلى ماهية الحديث، والرواية ونشأتها، وحلقات تطورهما، من عصر الرسول إلى القرن الثالث الهجري، وقد أثبت في هذه الرسالة بأدلة قاطعة أن أكثر الأحاديث والأسانيد منتحلة، وانتهى إلى أن علم الحديث نشأ من روح المدنية التي حملها الإسلام إلى المسلمين الجدد[٢].

---

(١) وهذا المديح كسابقه، غير مستغرب منهم على ربيبهم.

(٢) وقد رد العلماء على رسالته التي استنسخها من المستشرقين. وهي تدور - كما يقول الدكتور مصطفى السباعي- على: «أن هذه الثروة الغالية من الحديث الموجودة بين أيدينا، التي تضمنتها كتب الصحاح، ليست ثابتة الأصول والدعائم، بل هي مشكوك فيها، ويغلب عليها صفة الوضع»! «السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي» (ص ٢٣٧)، وانظر: «القرآنيون وشبهاتهم حول السنة» للدكتور خادم حسين بخش (ص ١٨٠).

وكتبت مجلة «الفتح» للشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله مقالاً عن كتاب أدهم في العدد (٤٩٢)، قالت فيه: «خطر آخر على الشريعة المحمدية: ليس الخطر على الشريعة المحمدية منحصرًا في الموافقة والمعاونة على أن يكن لكل أمة قرآن بيدها، غير القرآن العربي الذي اتحد حوله المسلمون أربعة عشر قرناً، واهتدت به مئات الملايين من أبناء الشعوب غير العربية، فكانت وما زالت من أعز أنصاره وأصدق متبعيه، بل هنالك خطر آخر لا يقل عن فتنة ترجمة القرآن، وهو ما نسمعه منذ عهد قريب من نزوع فريق من حملة الطرابيش، وفريق من حملة العمائم إلى تهوين أمر السنة النبوية، وتشكيك الناس بها، وحملهم على الإعراض عنها، وعدم اعتبارها ركن التشريع الإسلامي، ودعامته التي ينهار بإزالتها، ولكنها لا تزال ولو زالت السماوات والأرض، ولا تزول ولو كُشفت جميع البراقع المسدولة على وجوه جميع أعداء محمد ﷺ، الذين يدعون أنهم لا يزالون على دينه.

نقول هذا بمناسبة كتابٍ تلقيناه من عالم متَّصف بالصفة التي أصبحت نادرة جداً، وهي =

. . . .

= صفة الغيرة على شريعة محمد ﷺ، واعتبارها أهم من أعراض الدنيا، وأهم من الرواتب والمراتب، وقد جاء في كتاب هذا العالم المسلم ما يأتي:

الحديث! يطول الحديث في التحدث عنه، وهو غريب في هذا البلد كغرابته وندرته بين العلوم الأخرى في عظيم نفعه وجليل أثره، وعلمٌ كهذا له مساس بكل المناحي: الخلقية والاجتماعية وغيرها، جديرٌ بنشر درره، وإظهار جواهره؛ حتى يعلم الناس أن في دينهم كنوزاً ثمينة، وتحفاً رائعة.

الوقت أظنه لا يسمح بمثل هذه الإطالة، ولكن أصارحك بالسبب الذي حملني على هذا التطويل حتى تلتمس لي المعذرة. يا سيدي! ظهر بالإسكندرية شخص يُدعى: إسماعيل أحمد أدهم، يتظاهر بأنه من حملة الدبلومات العالية من الأكاديمية الروسية (كذا)، وأنه وكيل (اينشتين) في الشرق، وعضو جمعية الإلحاد الروسية، وفي بطاقته الكثير من هذا النوع. هذا الشخص يطعن في الحديث ورواته وجميع مصادره، ويرميها بالكذب، ويُنكر السنة بتاتاً، وجمع مذكرات (ومصدرها المبشرون والمستشرقون) تحوي هذه الطعون والإنكارات، وطبعها -ويا للأسف- بمطبعة صلاح الدين بالإسكندرية، وصاحبها رحمه الله من المسلمين! ولما علمت المحافظة بالأمر عن طريق المعهد الديني، واستدعته، أشاع أنه سيُرسل هذا الكتاب إلى جهات أخرى غير الإسكندرية، واليوم قد تم طبع الكتاب الذي كان يتسلم كل ملزمة منه بعد الانتهاء من طبعها، ولم ندر أين ذهب بالكتاب، وإلى أي بقعة أرسله.

هذه الحركة التي قادها ذلك التركي الجنس، الشيوعي المبدأ، لا يُستبعد أن تكون أكمة وراءها ما وراءها، والنشء خاوٍ من كل ما يتعلق بالسنة رواية ودراية، فإلى الله المشتكى، ومنه نستمد المعونة لدرء هذا الخطر المتوقع. والغريب في هذا الشخص أنه محتفظ بخطابات «على زعمه» من الأستاذ أحمد أمين، والأستاذ الزيات «صاحب الرسالة التي نشرت له شرح نظرية النسبية»، فيها الموافقة منهما على رأيه في إنكار السنة ومصادرها، وتكذيب كل ما ورد منها «كذا»!!

فيا أستاذ! ماذا العمل، وماذا يكون الموقف؟ هل يكون بالاستسلام، أو المقاومة عن طرق النشر: ببيان موجز عن السنة وتاريخ تدوينها، وما بذلته العصور الغاصة =

. . . .

= بالأعلام من نقد وتجريح وتعديل، بما لم يُعهد له مثيل في فن من الفنون، ولا في أمة من الأمم، إلا في فن الحديث من الأمة الإسلامية. قد أدليت بذلك ترويحاً عن نفسي المضطربة، وتهدئة لروعي الراجف، عسى أن يجعل الله لنا طريقاً نقاوم به هذه الفتنة الثائرة والشرارة الطائشة. والسلام على أهل السلام، فليكن علينا وعليكم ورحمة الله، وإني في انتظار ما تبدونه نحو هذا الموضوع». ثم نشرت (الفتح) في العدد (٤٩٤) تعقيبًا من إسماعيل أدهم على المقال السابق، وعلقت عليه، قالت: «جاءنا من ربيب روسيا الذي جاء ليناطح صخرة السنة المحمدية في مصر: الكتاب الآتي، ننشره بحروفه، وبكل ما فيه من عيوب لغوية وفكرية وخلقية!: «حضرة الأستاذ الفاضل محب الدين الخطيب: بعد التحية، بلغني من صديق أن في العدد ٩٢ (١٧محرم سنة ١٣٥٥هـ) مقال كتبه كاتب لم يشأ أن يذكر اسمه، تعرض لشخصيتي تحت عنوان: «خطر آخر على الشريعة الإسلامية»، بمناسبة إصداري الرسالة الأولى من سلسلة أبحاثي ومراجعاتي في التاريخ الإسلامي، تحت عنوان: «من مصادر التاريخ الإسلامي»، الذي يُعرض للبيع في مكاتب الإسكندرية، وبالرجوع إلى نص المقال، وجدت حضرة الكاتب الذي لم يرضَ لسبب لا يخفى علينا أن يغفل اسمه، يتهمني بكل جرأة بأني شيوعي المبدأ، ولما كانت هذه التهمة والادعاء لو ثبت عليَّ لكان ما يستوجب عقابي قانونياً، أو يثير الشبهات حولي إن لم يثبت، ولما كانت كل صلتي بروسيا لا تتعدى الحدود العلمية، والاتصال العلمي بحكم حملي شهاداتي العالية من جامعة موسكو، وعضويتي في أكاديميتها العلمية، لهذا أستنكر ما أتى في المقال، وأطالبكم بنشر هذا التكذيب في أول عدد من مجلتكم يصدر بعد وصول هذا ليدكم، مع ذكر اسم الشخص الماجن الذي لا يتورع أن يتهم الناس زوراً بأنهم شيوعيين، وإلا فسنضطر إلى رفع الأمر إلى الجهات المختصة، ونعتبركم مسؤولين على نشر هذه المقالة التي تضمّنت ما لو صحَّ ما استوجب لي ضرراً كبيراً.

أما هذيان الكاتب، وقوله إني وكيل أينشتين في الشرق، فهذا هراء لا نعرف من أين أتى به، وماهية الأمر لا يتعدى أني كنت عضواً في معهد أينشتين الملحق بجامعة بوتسدام، الذي كان يديره العلاّمة فرويدلنج، ذلك قبل قيام النظام الهتلري في ألمانيا وإلغاء المعهد. ولعل جهل الكاتب الفاضح صوّر له معهد أينشتين وكيلاً لأينشتين في الشرق. وهكذا =

. . . .

= ليكن الإدراك وإلا فلا. أما إني عضو جمعية الإلحاد الروسية، فهذا ادعاء آخر لا أعرف من أين أتى بها، ولعلها من بنت تخيالته.

فإذا كان الكاتب يتخبط هذا التخبط، وينزل إلى الطعن والاتهام، فذلك دليل العجز، وبالتالي مكانته الحقيقية التي سترها وراء كلمة «عالم»، ولم أكن أدري في العلماء قط جهال إلا اليوم، حينما طالعت هذه الكلمات. أما رسالتي فهي تبحث في الناحية التاريخية بصورة مقتضبة، نظراً لكونها مذكرة علمية، وفي فرصة قريبة أبعث إليكم بنسخة منها؛ ليتبين لكم حقيقة ما ذهب إليه، ومقدار تجنّيه على الوقائع. أرجو نشر هذا في أول عدد مجلتكم، وفي الختام تقبلوا خالص تحياتنا. الإسكندرية ١٧ إبريل ١٩٢٦م. الدكتور إسماعيل أحمد أدهم».

(الفتح): اطلعنا على الرسالة السخيفة التي شغل بها هذا الأفندي نفسه، وجعل يكرر نشر معانيها مرة في روسيا، وأخرى في تركيا، وتارة في مصر، فرأيناها تدّل على قلة فهمه للعلوم الإسلامية، وإقدامه على بحوث ليس عنده قابلية ولا استعداد لإدراكها. ولو وقف الأمر عند ذلك لكان هيّناً، لأننا لا نطمع في كل من يمسك قلماً ليسوّد به الورق أن يكون من أهل الإجادة فيما يكتب، ولكن انضمّ إلى قلة استعداده العلمي تلقيح روسيا الشيوعية بذور الاستهتار بالدين في نفسه، فجاء كتيبه نموذجاً للجهل المشوب بالإلحاد، وهذا هو المعنى الذي يهمنا في هذه الصحيفة من معاني الشيوعية؛ لأن للشيوعية مقاصد متعددة، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو ديني، ومنها ما هو خلقي، وجوانبها السياسية والاجتماعية ليست من بحوث كتَّاب هذه الجريدة وقرائها، وإنما تهمنا جميعاً الجوانب الدينية، وهذا التلميذ لروسيا قد جاءنا ببحوث تدلُ على جهل، كما تدلُ على خطة سيئة نحو سنة رسول الله ﷺ، لذلك رأينا من الضروري أن ننبه قبل أسبوعين إلى ما يحاوله عبثاً هذا الأفندي من تسميم العقول والأرواح في مصر، بسموم مصنوعة في مصانع العداوة للدين في روسيا، ونحمد الله على أن الأزهر اهتم بهذا الأمر، ودرس هذه الكراسة السخيفة، فتبين له ما تبين لنا من أنها . بما فيها من جهل وعدوان . تُسمم الأرواح والعقائد، كما يُسمم الكوكايين الأجسام والدماء الجارية فيها، ويعترف هذا الأجنبي عن مصر بأن رسالته رغم تقرير الأزهر منها، لا تزال تباع، ونحن نطلب من وزارة الداخلية أن تقف من هذه النشرات ومذيعيها كما تقف من الكوكايين والمتجرين به، وإنا لمنتظرون».

ولم تكد تصدر هذه الرسالة عن مطبعة «صلاح الدين الكبرى» بالإسكندرية مهداة إلى «أحرار الفكر الذين حرروا الفكر من قيوده، وجاهدوا في سبيل تحرير العقل الإنساني من تأثير الأساطير الدينية والمزاعم الوطنية»، حتى قام الأزهر وطلب إلى الحكومة مصادرتها، فانعقد مجلس الوزراء وقرر مصادرتها، وإحالة مؤلفها إلى النيابة للتحقيق معه، وقد حققت معه بالفعل، ثم شفعت له، على ما يظهر، جنسيته التركية، وانتهى الأمر بمصادرة الرسالة وحفظ القضية، وهذا الذي جعله يتريث بنشر كتابه الضخم «حياة محمد ونشأة الإسلام».

وقد غاظ هذا العمل قادة الفكر في مصر، ولكن واحداً منهم لم يرفع صوته؛ لأن صاحب الرسالة شاب مغمور ليست له شهرة كبار الكتاب، على أن الأستاذ أحمد أمين(١) كتب كلمة حول هذه المصادرة جاءت عرضاً في مناقشة له مع

---

(١) وهو شبيه بأدهم، تلميذ من تلامذة المستشرقين. انظر للرد على شبهاته حول السنة: رسالة «السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي»؛ للدكتور مصطفى السباعي (ص ٢٣٦ - ٣١٩)، وقال عنه ولده جلال في مذكراته (ص ٣٠٣-٣٠٤): «في كتاب «حياتي» وصفَ أبي البيت الذي نشأ فيه بقوله: إنك إذا فتحت بابه شممت منه رائحة الدين ساطعة زاكية! أما أنا فلا أستطيع بالمرة أن أقول إن هذا الوصف ينطبق على البيت الذي نشأت فيه. فأبي على الرغم من نشأته هذه، وشدة تدين أبيه وأمه، ونوع التعليم الذي تلقاه في صباه وشبابه، ورغم أن أهم كتاباته كانت تدور حول الإسلام، لم يكن متديناً بمعظم المعاني الشائعة اليوم. إني لا أتذكر مثلاً أني رأيت أبي وهو يصلي، ولا أذكر أني رأيته وهو يقرأ في المصحف. إني أتذكر اعتذاره عن الصوم بسبب مرض أو آخر كان يفرض عليه نظاماً معيناً في الأكل، أو بسبب التدخين، ولكني لا أتذكره وهو ينتظر حلول المغرب ليتناول إفطاره في رمضان.. إن هذا لا ينفي ما كان يتحلى به أبي من صفات قريبة من التصوف، كما لا يتعارض مع ما أتذكره من أقواله الكثيرة التي تنم عن إيمان عميق بالله (!)، من الذكريات الملتصقة بقوة في ذهني ركوبنا معه في =

الدكتور طه حسين بصدد عيوب النقد الأدبي في مصر، ومما قاله:

«وهل أتاك نبأ ما كان منذ شهرين، إذ نشر شاب في الإسكندرية رسالة في الحديث يعرض فيها للرواية والرواة، ونقد بعض المحدثين، وطعن في بعض الأسانيد، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر مصادرة الرسالة، مع أن المعتزلة منذ ألف سنة قد أنكروا أكثر الأحاديث، إلا ما أجمع الرواة على صحته، ولم يكفرهم من أجل هذا أحد، ولم يصادر كتبهم من أجل هذا أحد».

وهذا الذي جعله يطوي بحوثه الإسلامية، ويقصر مباحثه على الشؤون الأدبية والاجتماعية والعلمية.

= قارب شراعي في النيل في إحدى ليالي الصيف في رأس البر، وكانت هي ليلة القدر، وإذا به يطلب منا أن نردد وراءه دعاء طويلاً إلى الله، يقول منه جملة، ونقولها بعده، ثم ينتقل إلى ما بعدها. كان هذا في أوائل الأربعينات، فلابد أني كنت في السابعة أو الثامنة، وأنا أتذكر هذا الآن مرتبطاً بشعور من السعادة لابد أن كان من أسبابه ما يشعر به صبي في مثل هذه السن عندما يرى العائلة كلها تقوم بعمل مشترك، ويسيطر عليها أثناءه شعور بالمحبة والوئام. وعلى أي حال فإني لا يخامرني أي شك في أن أبي كان يعلق على أخلاق المسلم أهمية أكبر مما يعلقه على شعائر الدين. لدي ألف دليل على هذا من أقواله وتصرفاته وكتاباته» - ثم يقول بعد أن تحدث عن تأثر أمه بوالده! -: «كيف يمكن، والحال كذلك، أن تفوح رائحة الدين من بيتنا كما كان الحال في البيت الذي نشأ فيه أبي؟ بل الراجح أن هذا الموقف من جانب أبي وأمي قد ترك فينا كلنا، نحن الإخوة، الذكور والإناث، أثراً دائماً لم تمحه الأيام. فلا أذكر أن أحداً منا نحن الإخوة قد واظب على أداء شعائر الدين لفترة طويلة من حياته. كان هناك الميل المعروف إلى التدين في فترة من فترات الصبا وبداية الشباب، وهو ما أذكر أنه سيطر عليّ سنة أو سنتين، كما أذكر نفس الشيء فيما يتعلق بإخوتي الذين وعيت هذه الفترة من حياتهم، أما بقية الإخوة فلا يقترن أي منهم في ذهني بأي مشاعر دينية قوية أو حرص على أداء شعائر الدين بانتظام» - نسأل الله العافية، وأن لا يكون علمنا وبالاً علينا -.

* **إنتاجه:**

تنقسم مؤلفات الدكتور أدهم إلى قسمين: القسم المكتوب باللغات الفرنجية، والقسم المكتوب بالعربية. وما كتبه بالعربية، في خلال السنوات التي أمضاها في مصر، هو غيض من فيض، وهو ما كتبه في أوقات فراغه، وفي ساعات الاستجمام والراحة، وليست لدينا مجموعة كتبه التي كتبها في مختلف اللغات لنرجع إليها، فحسبنا الإلماح إليها إلماحاً.

بالعربية: (من مصادر التاريخ الإسلامي)، (الزهاوي الشاعر)، (لماذا أنا ملحد)، (طه حسين، دراسة وتحليل)، (عبدالحق حامد: دراسة وتحليل)، (علم الأنساب العربية)، (توفيق الحكيم)، (إسماعيل مظهر المفكر)، (أبو شادي الشاعر)، (نظرية النسبية الخصوصية)، (حرية الفكر)، (خليل مطران).

ومن مؤلفاته باللغة العربية التي لم تطبع: (الرسول محمد ﷺ أصله ونسبه)، (سفر الفيل وميلاد الرسول)، (أربع سنوات في الفردوس الأرضي - بروسيا)، (الميكانيكا الكلاسيكية) في ١٦ صفحة، (مبادئ الطبيعيات النظرية الحديثة) في ٣٢٠ صفحة، (رسائل في دراسات الأدب العربي المعاصر).

وله مؤلفات باللغة التركية، والألمانية، والروسية، والإنجليزية.

وكتب مقالاته في مجلات كثيرة؛ كمجلة «الحديث»، و«المجلة الجديدة»، و«أدبي»، و«المقتطف»، و«الرسالة»، و«الإمام»، و«جريدة البصير»، و«الأهرام». كما كان ينشر في مجلة العصبة البرازيلية، ومجلة «الطليعة» الدمشقية، و«المكشوف» البيروتية. كما كتب في أكثر مجلات المستشرقين؛ كمجلة المعهد الروسي للدراسات الشرقية التي تصدر في موسكو، وفي مجلة التاريخ التركي - تورك تاريخي مجموعة سي، وفي مجلة - «فكر حر كتلري»، التي يصدرها حسين جاهد بك.

- كان يشوب أسلوبه التعقيد والتشعب على رأي الدكتور أبوشادي، ولا نجد فيه تلك الطراوة البيانية التي تأخذ بالنفس على حد تعبير صديقه الأستاذ يعقوب بكر.

- كان الدكتور أدهم وثيق الاتصال بكبار المستشرقين، وقد أطلعني على عدة رسائل منهم، وإذا هي كلها إطناب ومديح بمواهبه، وكان لا يتردد البعض أن يسأله بعض الأسئلة في شؤون تمس صميم الشرق، وقد توثق هذا الاتصال منذ كان في روسيا، وبعد أن سمي وكيلاً للمعهد الروسي للدراسات الإسلامية، وهناك عمل مع كراتشفوسكي وكازميرسكي وغيرهم، كما كانت صلاته وثيقة مع بروكلمن والبرنس كابتاني - الابن-[(١)].

- انتحر الدكتور إسماعيل أدهم في مساء الثالث والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٠م، حيث وُجدت جثته طافية على مياه البحر المتوسط، «وقد عثر البوليس في معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكراهيته لها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها»[(٢)]!

قلت: لقد أثرت في إسماعيل أدهم عدة عوامل، قادته للإلحاد، ومن ثمّ الانتحار. فخسر نفسه، وخسرته أمته.

العامل الأول: نزعة التمرد، وحب الجدل، اللذان امتلأت بهما نفسه؛ فانساق معهما، ولم يكبحهما بأحكام الإسلام، حتى أوصلتاه إلى الشكوك،

---

(١) انتهى هنا النقل من كتاب «الراحلون»؛ للكيالي.

(٢) مجلة الرسالة: السنة الثامنة، المجلد الثاني، ص١٢٤١، والأعلام الشرقية (ص٨٦٠)، و«لماذا انتحر هؤلاء»؛ لعبدالرحمن الخير (ص٥٦-٦١).

قلت: وقد حاول الكاتب الكويتي سامي النصف في جريدة «الأنباء» الكويتية (٢١ نوفمبر ٢٠١٠م) التشكيك في هذه الحقيقة، مدعيًا أن المخابرات الأجنبية قد اغتالت إسماعيل أدهم، دون أن يُقدم أي بينة على رأيه هذا.

والتهاون في تخطي حدود الله. ويتضح هذا من خلال تأمل رسالته الآتية «لماذا أنا ملحد؟»؛ حيث كتبها مشاكسة إثر اطلاعه على محاضرة رفيقه أحمد أبي شادي.

العامل الثاني: تأثره بالمد الإلحادي الشيوعي الذي كان في ذروته وزخمه تلك الفترة، لاسيما وقد درس أدهم في روسيا، منبع هذا المد - كما سبق -.

العامل الثالث: استغلال أعداء الإسلام له ولظروفه، من ملاحدة ومستشرقين[١]، مع استفادتهم من نزعة التمرد والجرأة لديه؛ ليكون مترجمًا لأفكارهم وأطروحاتهم التشكيكية والإلحادية.

فكانت النتيجة - بعد هذه الشكوك والجرأة - أن انتحر - كما سبق في المقدمة - وهو في ريعان شبابه، لتُصبح نهايته نهاية مأساوية لشاب مسلم موهوب، قال عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات: «كان شديد الذكاء.. واسع الثقافة»[٢]، وقال عنه الأستاذ محمد عبد الغني حسن بأنه صاحب «ذهن متوقد لامع»[٣]، إلا أنه لم يُحسن الاستفادة من هذه الموهبة، واختار الكفر على الإيمان، وتدرج في مهاوي الضلال، إلى أن وصل إلى آخر دركاته، وهي الإلحاد؛ لتكون خاتمته في تكلم الجثة الطافية على مياه البحر آيةً لمن خلفه من شباب الإسلام النابهين أن لا يغتروا بذكائهم ومواهبهم، فيخوضوا -لأجلها- ذات اليمين وذات الشمال، واثقين -زعموا!- من أنفسهم، معرضينها للفتن

(١) قال الأستاذ أنور الجندي رحمه الله عنه: «يؤمن بمفاهيم الغرب، وآراء المستشرقين المتعصبين». «المعارك الأدبية في مصر» (ص ١٠٤).

(٢) وحي الرسالة (٢/ ٢١٨).

(٣) تراجم عربية (ص ١٩٨).

والانسلاخ من الدين؛ إما بإدمانهم العكوف على كتب أهل الضلال والحيرة والشك، أو بمصاحبتهم وألفتهم ومن يشككهم في دينهم، ويُهون عليهم الطعن فيه، أو التحير من بعض شرائعه، مجانبين في ذلك أهل الإيمان ساخرين من نصائحهم، لامزينهم بالتحجر وضيق الأفق!، ومبتعدين رويدًا رويدًا عن الصراط المستقيم؛ خشية أن يقول قائلهم -ولو بعد حين-: «لقد خضتُ البحر الخضمّ، وخليتُ أهل الإسلام وعلومهم، ودخلتُ في الذين نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لي..»[1]!



(١) القائل هو أبو المعالي الجويني -غفر الله له- وهو من هو ذكاء وتمرسًا في علم الكلام، ثم ختم ذلك بقوله: «وها أنذا أموت على عقيدة أمي»! فهل من معتبر؟!.
(انظر: شرح الطحاوية، ص ٢٤٥، ط التركي والأرنؤوط).

ترجمة محمد فريد وجدي[١]

هو محمد فريد بن مصطفى وجدي بن علي رشاد.

وُلد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على اختلافٍ في تعيين سنة مولده ما بين ١٢٩٢هـ أو ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٥م أو ١٨٧٨م، وإلى التاريخ الأول ذهب الزركلي في كتابه «الأعلام»، بينما يرجح الدكتور طه الحاجري التاريخ الآخر.

- كان مولده بالإسكندرية لأسرة من أصل تركي اتسمت بالمحافظة، وكان والده مهتمًا بالعلم، ولديه مكتبة ضخمة في داره تضم العديد من الكتب في سائر مجالات المعرفة.

- تلقى فريد وجدي تعليمه بالمرحلة الابتدائية بالإسكندرية، حيث تنقل بين ثلاث مدارس خاصة، هي: «مدرسة إسماعيل حقي»، و«مدرسة حمزة قبطان»، و«مدرسة مسيو فاليو»، وحينما انتقل والده للعمل بالقاهرة عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م، تابع وجدي دراسته بالمدرسة التوفيقية بالقاهرة، لكنه - لاختلاف طبيعة الدراسة فيها عما درسه بالإسكندرية - طلب من والده أن يترك المدرسة، وأن ينصرف لتحصيل الدراسة بنفسه، فوافق والده خاصة بعد أن انتقل لدمياط للعمل كوكيل للمحافظة بها، وهنا انقطعت صلة وجدي بالدراسة النظامية،

---

(١) باختصار وتصرف عن رسالة «محمد فريد وجدي مفكرًا إسلاميًا»؛ لصباح إبراهيم بيومي سليمان. وانظر: «الأعلام» (٦/ ٣٢٩)، و«محمد فريد وجدي - حياته وآثاره»؛ للدكتور محمد طه الحاجري، و«محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي»؛ للدكتور محمد رجب البيومي، و«رجال عرفتهم»؛ للعقاد، و«منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير»؛ للدكتور فهد الرومي (ص ١٩٥ - ١٩٨).

مفضلاً القراءة والاطلاع، بعد أن قطع شوطا لا بأس به في دراسة اللغة الفرنسية.

- ولم يطل مقام وجدي بدمياط؛ إذ ما لبث أن انتقل إلى السويس بعد أن انتقل والده لوظيفة وكيل المحافظة بها، وأقام بها ست سنوات، عاد بعدها للقاهرة.

- اتجه فريد وجدي للصحافة، وكانت جرائد اللواء والأهرام والمؤيد ترحب بمقالاته الأدبية وبحوثه العلمية، إلا أنه بعد فترة رأى أن هذه الجرائد أحيانًا ما ترفض نشر هذه الدراسات العلمية المتخصصة، فاتجه فكره لإصدار مجلة علمية أسماها «الحياة»، وصدر أول عدد منها غرة صفر ١٣١٧هـ/ ٩ من يونيو ١٨٩٩م، وكان غرضه من إصدارها تثبيت أصول الدين في عقول أبنائه بنتائج العلم العصري، وإقامة الأدلة العمرانية والفلسفية على أن هذا الدين هو منتهى ما يصل إليه الإنسان من حقيقة الدين وما تدفعه إليه الفطرة. إلا أنه - نتيجة لظروف مالية - لم يُصدر سوى ثمانية أعداد من المجلة ثم توقفت.

ثم خاض وجدي تجربة الصحافة الخاصة مرة أخرى بإصداره «الدستور» في ١١ شوال ١٣٢٥هـ/ ١٦ من نوفمبر ١٩٠٧م، وكان يُحرر صفحات الأدب والفكر والاجتماع، بالإضافة لكتابته بحوثا خاصة بالفكر الإسلامي. - عهد إليه الشيخ المراغي شيخ الأزهر آنذاك برئاسة تحرير مجلة الأزهر، وكان ذلك عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م وعمره ٥٥ عاما، وكانت المجلة حينها تسمى «نور الإسلام»، ثم تغير اسمها إلى «الأزهر» بعد عام ونصف.

- توفي فريد وجدي بالقاهرة في جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ / فبراير ١٩٥٤م، عن عمر يناهز ستة وسبعين عامًا.

مؤلفاته:

١- المدنية والإسلام (ألفه وهو ابن عشرين عامًا، وقد أُلف بالفرنسية، ثم تُرجم للعربية وغيرها).

٢- دائرة معارف القرن العشرين (ألفه في عشر سنين).

٣- من معالم الإسلام (مجموعة مقالات، كُتبت بمجلة الأزهر ثم جُمعت ككتاب).

٤- على أطلال المذهب المادي (٣ أجزاء).

٥- الوجديات (كتاب في أصول الحوار).

٦- المرأة المسلمة (ألفه للرد على أفكار قاسم أمين)[١].

٧- مهمة الإسلام في العالم (يحتوى على ٢٤ مبحث).

٨- السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة (يحتوى على ٤٠ فصلاً).

٩- ليس من هنا نبدأ.

١٠- في معترك الفلسفيين.

١١- المستقبل للإسلام.

١٢- أوقات الفراغ.

١٣- المصحف المفسّر (موجز في تفسير القران تُرجم للغات عديدة).

---

(١) وهو مما يُحمد له؛ إذ لم يجارِ دعاة العصرنة في الدعوة لتغريب المرأة المسلمة. وقد أعادت دار أضواء السلف طباعة كتابه عام ١٤١٩هـ، بعنوان: «المرأة المسلمة: دراسة نقدية لدعاة تحرير المرأة و بيان دور المرأة في صلاح المجتمع وفساده».

١٤- نقد الشعر الجاهلي.

١٥- الأدلة العلمية في جواز ترجمة القرآن.

١٦- جمع الدكتور محمد رجب البيومي بعض مقالاته في كتاب سماه «مناقشات وردود».

تعقيب:

يُعد محمد فريد وجدي أحد تلاميذ المدرسة العقلية التي من رموزها: جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده[1]. وهي مدرسة غلّبت جانب الماديات على الغيبيات؛ مما أوقعها في انحرافات خطيرة في مجال إنكار بعض الغيبيات التي ظنوا أنها لا توافق العقل أو العلم المادي الحديث، أو تأويلها. فبرغم جهود فريد وجدي في الرد على الماديين، الذين كانوا يعيشون فترة ازدهار حينها، ورغم محاولته التوفيق بين الإسلام والعلوم الحديثة، إلا أنه قد تأثر بتلك المدرسة، وبذاك الجو الذي واجه فيه الإسلام ضغوطًا عنيفة من قِبل الفكر الغربي؛ فصدرت منه زلات وانحرافات:

---

(١) انظر: «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير»؛ للدكتور فهد الرومي (ص ١٩٥).
ويعترض الدكتور جعفر شيخ إدريس على تسمية رموز هذه المدرسة بـ«العقلانيين»، ويقول: «أنى يكون من يثير الشبهات حول بعض الحقائق الشرعية عقلانيًا؟ فليت الإسلاميين المعاصرين يسمون أمثال هؤلاء بأهل الأهواء؛ كما كان يسميهم أهل السنة قديمًا؛ لأن هذا هو الوصف المناسب لحالهم، ولأن وصفهم بالعقلانيين يزيدهم غرورًا وشرًا؛ لأنه يُزين لهم أن العقل معهم، وأن المستمسكين بالنصوص عاطفيون».
«الفيزياء ووجود الخالق» (ص ١٢٤).
وانظر: (ص ١٥٥) - أيضًا -، ومقاله «ليسوا عقلانيين.. وإنما هم أهل أهواء» في مجلة (البيان)، العدد ١٤١، جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ.

١- إنكاره للمعجزات وبعض الغيبيات، وقد دخل - لأجلها - في مناظرات مع شيخ تركيا مصطفى صبري رحمه الله، الذي أورد نبذة منها في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»(١)، وقال عن وجدي: «هو كهؤلاء - أي الماديين الذين يرد عليهم - لا يعترف بما لا يعترف به العلم الحديث، الذي هو سائقهم إلى الإلحاد، فيُنكر المعجزات وسائر المغيبات كما يُنكرون»(٢)، ثم بيّن أنه يجعل الآيات الواردة في تلك الغيبيات من «المتشابهات»! متعجبًا من تعيينه - رغم هذه الآراء المنحرفة - رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر!

٢- اقتناعه بمسألة «تحضير الأرواح»! متوهمًا أنها تُفيد الدين في الرد على الماديين! وقد ناقشه الشيخ مصطفى صبري فيها - أيضًا -(٣).

٣- تحمسه لفكرة ترجمة القرآن الكريم، وتأليفه في ذلك كتابه «الأدلة العلمية في جواز ترجمة القرآن»(٤).

---

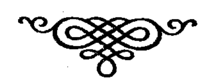
(١) انظر على سبيل المثال: (١/ ٢٩ و ٥٣ و ٦٤ و ١١٧)، (١/ ١٥٦ - ١٨٦).

(٢) (١/ ١٦٩).

(٣) المرجع السابق (١/ ٤٠٣ - ٤٣٤). وانظر للمزيد: «الروحية الحديثة - دعوة هدامة»؛ للدكتور محمد محمد حسين، و«تحضير الأرواح بين الحقيقة و الخداع»؛ للدكتور محمد احمد الخطيب، و«الموسوعة الشاملة لمذهب الروحية الحديثة وتحضير الأرواح»؛ للدكتور علي العبيدي.

(٤) انظر: المرجع السابق (ص ٤١٣ - ٤٤١). وقد أطال في نقاش المسألة، وبيّن (ص ٤٣٣) تناقض فريد وجدي فيها، حيث يدعو - حينًا - للترجمة الحرفية، وقراءة القرآن مترجمًا في الصلاة! وحينًا يزعم أنه يقصد ترجمة المعاني. وقد سئلت اللجنة الدائمة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية عن حكم ترجمة القرآن فقالت: «ترجمة القرآن أو بعض آياته والتعبير عن جميع المعاني المقصود إليها من ذلك غير ممكن، وترجمته =

٤- أما تفسيره، فيقول الشيخ محمد المغراوي في تقويمه: «فتفسيره وإن كان عبارة عن شرح مفردات، مع قليل من المعنى، فقد سلك فيه مسلك الأشعرية المؤولة في معظم الصفات، وفي صفة الاستواء أثبت مذهب السلف، وفي بعضها لا يُظهر إثباتًا ولا تأويلاً، ولكن المذكور فيه كفاية لمعرفة عقيدته في الصفات. فهذه هي الطامة الكبرى التي أصابت المعاصرين، فتجد لهم باعًا طويلاً في بعض العلوم، لكنهم في العقيدة التي كان ينبغي أن تكون معلومة عند المسلمين بالضرورة؛ تجدهم من أجهل خلق الله بها، والله المستعان. وإليك ما ذكره في تفسيره.. - ثم ذكر مواضع من تفسيره تشهد لما قال -»[١].



= أو بعضه ترجمة حرفية غير جائزة؛ لما فيها من إحالة المعاني وتحريفها، أما ترجمة الإنسان ما فهمه من معنى آية أو أكثر، وتعبيره عما فهمه من أحكامه وآدابه بلغة إنجليزية أو فرنسية أو فارسية مثلًا؛ لينشر ما فهمه من القرآن ويدعو الناس إليه، فهو جائز، كما يفسر الإنسان ما فهمه من القرآن أو آيات منه باللغة العربية» «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (٤/ ١٣٢). وانظر للزيادة: «ترجمة القرآن - ضوابط وأحكام»؛ لسلطان بن عبد الله الحمدان.

(١) المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات (٣/ ١٣٦٠).

عقيدة الألوهة (مذهبي)

للدكتور أحمد زكى أبو شادي[1]

أيها الإخوان..

في هذا الشهر المبارك يحلو السمر والحديث، وقد شاء فضلكم أن أدلي ببيان عن مذهبي العلمي الديني في نور الإسلام الكريم، وتلبية لحسن ظنكم: أتقدم لحضرتكم بهذه الأحاديث التي لا أرى من الحكمة ذيوعها في الوقت الحاضر؛ لأن الناس عبيدُ ما ألفوا، فسرعان ما يغضبون لكل ما يخالف مألوف تفكيرهم، بل مألوف عاداتهم. سأجعل هذه الأحاديث منصبة على ما تُعيِّنونه لي من موضوعات، وسيكون إنجازي متفقًا مع مداركهم العالية، فلست داعيةً أريد التأثير في العامة، بل لا أحفل إلا بالخاصة وحدهم، إن لم أقل خاصة الخاصة، فهم الذين يترفعون عن سوء التأويل، ويُعطون كل مفكر المنزلة التي يستحقها، ولولا إلحاحكم لآثرت إبقاء هذه الخواطر لنفسي.

عقيدة الألوهة

منذ سنوات نشر صديقي الأديب الفاضل حسن الجداوى ديواني (الشفق الباكي)، وقد توجه بهذه الأبيات بعنوان (الله):

هو ما تراه بكل حكمٍ مدهش للكائنات وكل ما تلقاه

---

(١) من أحاديث رمضان في سنة ١٣٥١ هـ، بين أعضاء «ندوة الثقافة» بالقاهرة. نُشرت في كتاب «عظمة الإسلام»؛ لأبي شادي، ثم نشرها الدكتور أحمد إبراهيم الهواري ضمن «قضايا ومناقشات، المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم» (٣/ ٦٧ - ٧٧). (س).

هو جملة من قوة وعوامل بنت الوجود ولم تزل تخشاه
وتظل تبحث عن حقيقة كُتبه وتظل تجهل أصله ومناه
والمرء أصغر عن إحاطة عقله بأجل سرٍ، جلّ من أخفاه

ومحدثكم صاحب هذا الشعر العلمي التصوفي لم يفته الاطلاع على كتاب نشوء فكرة الله؛ لجرانت ألن، وعلى أمثاله من مؤلفات علمية فلسفية، وأخصها بالذكر كتاب جوزيف ماكابي: «وجود الله».

ولو كنتُ أملك الوقت الكافي لنقلتُ هذا الكتاب الأخير على علاته إلى العربية، لأني أؤمن بنشر المعارف الحديثة كما هي، ولا يرضيني مطلقا الحجر على الإطلاع، ولا أخشى نشر المعارف اللادينية ما دامت لمفكرين ناضجين بارزين، وإنما يبقى على علماء الإسلام بعد ذلك واجب دفع الشبهات في أدبٍ واتزان[1]، واللغة العربية هي المستفيدة من كل هذا، كما أن الأدب الديني الحديث يزداد شأنه بهذه الثقافة.

---

(١) وهذا غير صحيح، وهو من تساهلات أبي شادي وانهزاميته أمام ضغط مدعي الحرية. والمسلمون مطالبون بعدم السماح بنشر كل ما يخالف الإسلام من عقائد وأفكار؛ لأن هذا من إنكار المنكر. كما أن الشُبه خطافة، وإيمان الناس وعقولهم متفاوتة. ويكفي في هذا المقام: أن عمر بن الخطاب - وهو من هو - أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيُخبروكم بحق؛ فتكذبوا به، أو بباطل؛ فتصدقوا به. والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني» أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٥١٩٥)، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (١٧٧). ويُنظر لمعرفة الضوابط الشرعية للحرية: رسالة «ضوابط الحرية الفكرية في الإسلام وأثرها على الثقافة الإسلامية»؛ لعبداللطيف بن عبدالحليم آل عبداللطيف. (س).

ومع اطلاعي الكافي على ما أخالفه من آراء، فإن إيماني بالألوهة لم يتزعزع؛ لأنه إيمان تصوفي علمي، مصدره شعوري بوحدة الوجود ذهنياً وتكوينيًا، وهذه الوحدة هي في إحساسي الوجداني الذي لا يضمحل مظهر الألوهة الشاملة[١].

وإنى أعتقد أن آية الكرسي الشريفة هي السند القويم لهذا الإيمان التصوفي[٢]، فاسمعوا حضراتكم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

فهذه الآية الشريفة الغنية بالتعابير الرمزية، هي في الوقت ذاته ناطقة بالمعنى الفلسفي لوحدة الوجود وللألوهة الشاملة. ولعلكم تأسفون معي على أن جمهرة المسلمين - ولا استثنى المتعلمين منهم - لا يحسون هذا الإحساس المثالي بالألوهة، بل يكادون ينظرون إلى الله ﷻ نظرة إنسانية، على اعتبار أنه شخصية

---

(١) عقيدة وحدة الوجود، هي من عقائد ملاحدة الصوفية. تقوم على أن الكائنات هي عين وجود الله - تعالى -، ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة، وينبني على وحدة الوجود: وحدة الأديان، وأن الكل يعبدون الله الواحد المتجلي في صور كل المعبودات! انظر للمزيد عن هذه العقيدة الكفرية، والرد على أهلها: رسالة «إبطال وحدة الوجود و الرد على القائلين بها»؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: الشيخ محمد الحمود النجدي، ورسالة «وحدة الوجود عند الصوفية: حقيقتها و آثارها: عرض و نقد»؛ للشيخ أحمد بن عبدالعزيز القصير، ورسالة «الإلحادية: عقيدة ابن عربي و الاتحادية»؛ لأبي إسلام مصطفى بن محمد بن سلامة، ورسالة «الله توحيد.. و ليس وحدة»؛ لمحمد البلتاجي. (س).

(٢) بل هذا من الافتراء على كتاب الله؛ ليشهد لعقيدة الصوفية الملحدة. (س).

هائلة، وكأنه على صورة الإنسان الجبار[١]، وعلى هذا كان تفسيرهم لآية الكرسي تفسيراً محزنًا لا يستقيم مع روح الإسلام، ولا مع روح العلم والفلسفة.

نبوة محمد ﷺ:

ليست عندي ذرة من الشك في إخلاص الرسول ﷺ، ومع أن العلم يدل على أن الوحي متصل بالأعصاب المُرهفة، فلا أرى في هذا ما يُنقص الفكرة الدينية، إذ ليس كل صاحب أعصاب مرهفة أهلاً لأن يكون رسولاً يستوحي الألوهة، ويفيض عنها بتأثراته؛ كما فعل سيدنا محمد ﷺ، ولكن كلُ رسول يجب أن يكون من أهل الأعصاب المرهفة، وإلا استحال عليه تلقي الوحي الإلهي من لُباب الوجود.

ليس الأديب كلمنت وود من المتحيزين للإسلام، بل ربما انتقصه، ومع ذلك فهو القائل في كتابه القيم «مجمل معرفة الإنسان» ما معناه: «إنه ليس مما يشين النبي محمدًا أنه كان مريضًا بالصرَع (أليس هو بشرًا كجميع الناس؟)، بل إن هذا مما يزيد أعصابه حساسية وارهافاً، ومما يؤدي إلى تقوية نظراته الصوفية وتأملاته الكونية»[٢].

---

(١) هذا من اختراع أبي شادي! وإلا فالمسلمون من أهل السنة يؤمنون بالله ﷻ، ويُثبتون له صفات الكمال التي أثبتها لنفسه، كما يليق بجلاله، ولا يشبهونه بخلقه. كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وانظر لمعرفة منهجهم في هذا الباب: «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى»؛ للشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله. (س).

(٢) بل هذا من افتراءات المستشرقين على النبي محمد ﷺ، الذي يكفرون بنبوته، وبأن الوحي ينزل عليه. ولهذا يحاولون تفسير ذلك بمثل هذه التفاهات المادية. وقد تابعهم أو جاملهم - للأسف - بعض المنهزمين؛ كأبي شادي وغيره. =

وقال أيضًا ما معناه: «إن الإسلام دينٌ عظيم، يتحدث إلى قلوب المؤمنين مباشرة، وإنه بالرغم من انقسام الإسلام إلى طوائف عديدة، فإن هذه الطوائف ترفعت عن الحروب الهمجية التي اتصفت بها طوائف مسيحية كثيرة.. ومع أن المسيحية دين توحيد (لأن فكرة الثالث مندمجة في الواحد الأحد، وهي فكرة فلسفية)، إلا أن الإسلام كان أقدر منها على تلقين التوحيد الخالص ونشره».

وليس لي في هذا المقام أن أتحدث عما يقوله خصوم الإسلام ضد نبوة محمد، لا لأني أعارض في نقل ذلك إلى العربية، فحضراتكم تعلمون أنى أكره الحجر على الاطلاع، ولكن مسالك الحديث ستتشعب حينئذ بنا كثيرًا. يضاف إلى ذلك أن الإسلام كما نعرفه دين عظيم، وهو صفوة الأديان السابقة ومكملها، وقد أشاد صاحبه بالعلم، فحث على طلبه ولو في الصين[١]، وهو بذلك أعطانا إجازة عامة لمسايرة العلم بديننا الشريف، وهو بسيرته العاطرة مثال الديمقراطية البالغة، ومثال الإخلاص المتناهي، والإيمان الكلي.

إذن؛ فلست بالملوم إذا وضعت نبوة محمد في الموضع الرفيع، وأسقطت من السيرة النبوية ومن الأحاديث إسقاطًا تامًا، كل ما أراه يتعارض وشرف النبوة أو صدق العلم[٢]، بهذا المسلك أُخلص الإسلام من الشوائب العارضة، ومن الحواشي والهوامش المفتعلة.

= انظر للرد عليهم: رسالة «الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين»؛ لنذير حمدان، و«النبوة المحمدية ومفتريات المستشرقين»؛ لمحيي الدين الألوائي، و«دفاع عن نبي الإسلام ﷺ ضد دعاوى المستشرقين والعلمانيين»؛ لعبدالعال أحمد عبدالعال. (س).

(١) حديث: «**اطلبوا العلم و لو بالصين**»، حديثٌ موضوع. انظر «ضعيف الجامع»؛ للألباني (٢٨٣١). (س).

(٢) ليس في الأحاديث الصحيحة ما يتعارض وشرف النبوة أو صدق العلم. وسبق الحديث عن جرأة أبي شادي في رد الأحاديث التي تخالف فهمه. (س).

وفي هذه المعاني: أذكر قصيدة (النبي محمد) المنشورة في ديواني (الشفق الباكي):

هدّمتَ أوهام القديم محرِّرًا أيُقال دينك ملؤه الأوهامُ؟
وشرعتَ للعقل الحكيم سياسة ضمنتْ بقاء جلالها الأيامُ
بُنيت على النفع الأتم وكل ما للعلم، فالعلم الصحيح قوامُ
عقل كعقلك لن يبيح جهالة أبداً، فكم سطعتْ له أحكامُ
الشمس بعض شعاعه وروائه وله على سرر الضياء دوامُ
تمضي القرون ولن يزول حديثه فحديثه الإشعاع لا الإظلامُ
تفسيره شرح الذي يقضي به العلم والإبداع والإقدامُ
يا هادم الأصنام دينك قدرُه أن لا تُمت لوحيه (الأصنامُ)
بين الذين تعصبوا وتقهقروا وحجاك يا علم الشعوب خصامُ
هم يحسبون الدهر ليس بسائر ودليل شرعك للزمان إمامُ
آياته بنَت الفخار ولم تزل تسع الذي ترضى به الأفهامُ
من أنكر العلم الصحيح فدينه وهمٌ، وليس لمثله إسلامُ

وأذكر من قصيدة (محمد والمرأة) في ديواني (أشعة وظلال):

كان نورًا بحلمه، وكذا كان عظيمًا بخلقه لا يُقسْ
ملؤه رحمة وفلسفة عزت وعرفان كابر النفس نطسْ
جعل المرأة حياة فأعطاها حقوق العلى بديلُة بخسْ
فإذا نحن قد غفلنا وحولنا تعاليمه لطمس ونحسْ
فعلينا مغبة الجهل والخسر وعقبى يأسْ
ليت شعري متى نرى الدين أحياء ونورًا، وليس ظلمةً رمسْ؟!

العلم والدين:

للعلم نظريات، كما أن للعلم حقائق ثابتة لا يمكن نقضها؛ كدوران الأرض، والجاذبية، والطيف الشمسي، وما إلى ذلك. أما النظريات فقابلة للتبدل، وأما الحقائق العلمية الثابتة، فهي وحدها التي نأخذ بها في التوفيق بين العلم والدين.

ولذلك جعلتُ مذهبي في تفهم القرآن الشريف، أن أفسر كل ما لا يتفق في ظاهره وحقائق العلم الراسخة تفسيرًا مجازيًا(١)، وأن أعتبر النقليات بمثابة رموز، ولذلك أعتقد أني وُفقت توفيقًا أحمد الله عليه، إلى تذوق جمال القرآن الشريف تذوقًا تامًا يتلاءم مع ثقافتي العلمية.

وغير خافٍ عن حضراتكم: أن النزعة الحديثة بين المتعلمين والجامعيين خاصة، هى نزعة لا دينية، وقلّ بينهم من يأخذ الدين على علاته كما يقدمه النقليون المحافظون. أما خطتي فهي التوفيق التام بين الدين وحقائق العلم الراسخة من ناحية القرآن الحكيم، وأما عن الأحاديث؛ فأني أرفض رفضًا باتًا

---

(١) قال الشيخ صالح الفوزان: «لا يجوز تفسير كلام الله ﷻ إلا بأصول التفسير المعروفة: بأن يُفسر القرآن بالقرآن، ويُفسر بالسنة، ويُفسر بتفسير الصحابة، وتفسير التابعين. ولا يُزاد على هذا، فلا يُفسر بالنظريات الحديثة؛ لأنها تخطئ وتصيب، وهي كلام بشر، وعمل بشر، فلا نجعلها تفسيرًا لكلام الله ﷻ، ولا نقول: هذا هو مراد الله بهذه الآية، هذا قولٌ على الله بلا علم، تعالى الله عن ذلك، وكم من نظرية كانت مُسلّمة اليوم، وبعد مدة يسيرة صارت خاطئة وكاذبة، وجاءت نظرية غيرها (وما أتيتم من العلم إلا قليلا)، فلا يجوز أن نُفسر القرآن بهذه الأشياء ونقول هذا من الإعجاز العلمي». «سلسلة شرح الرسائل للإمام محمد بن عبد الوهاب» (ص ١٦٣ - ١٦٤). وتُنظر للزيادة: رسالة «التفسير العلمي للقرآن الكريم - دراسة و تقويم»؛ لعبدالله الأهدل، وموقع «الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة»، ففيه عدد من الأبحاث المهمة، المتعلقة بهذا الموضوع. (س).

كلَ حديث يُناقض العلم الثابت[1]؛ لأني لا أتصور صدوره عن صاحب الرسالة العظمى، التي خلقت من الإنسانية أمة واحدة في مشاعرها، وإن تعددت قوميتها، وقد سبق بذلك أعلام البشرية الذين لم يجدوا ملجأ لتحقيق هذه الأمنية السعيدة سوى عصبة الأمم، دون أن يتقدموا حتى الآن خطوات تُذكر.

الديانة الإنسانية:

لست من المتجردين أيها الإخوان، كما أنى لست من الجامدين، وقد نظرت في الإسلام نظرة الفاحص، فوجدته وريث اليهودية والمسيحية وغيرهما من ديانات عليا، وأروع مبشر بالديمقراطية السمحة، ثم وجدته دينًا مرنًا يُساير تطورات الاجتماع، ولولا ذلك لما صلح لشتى الأمم في شتي العصور، ولما أنجب أمثال: الكندي، والفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن باجة، وابن

---

(١) أجمع العلماء على أن قطعي الوحي لا يتعارض أبدًا مع قطعي العقل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء التعارض (١/ ٨٠): «كل ما قام عليه دليل قطعي سمعي يمتنع أن يعارضه قطعي عقلي، ومثل هذا الغلط يقع فيه كثير من الناس». وبيّن رحمه الله أنه إن تعارض ظني العقل وظني النقل فالمُقدم هو الراجح منهما مطلقًا، وإن كان أحدهما ظنيًا والآخر قطعيًا، فالقطعي هو المقدم مطلقًا.
وقال رحمه الله أيضًا (١/ ١٧٤): «لا يجوز أن يتعارض دليلان قطعيان، لا عقليان ولا سمعيان، ولا سمعي ولا عقلي، ولكن قد ظن من لم يفهم حقيقة القولين تعارضهما؛ لعدم فهمه لفساد أحدهما». لذا فلا يمكن أن يحدث تعارض بين حقيقة علمية وخبر شرعي قطعي، وإنما عُبر بالحقيقة العلمية لتخرج النظرية العلمية والفرضية العلمية، فالنظرية العلمية قابلة للصواب وللخطأ وكذا الفرضية، أما الحقيقة العلمية فلا تقبل التشكيك، وكثير من الناس يأتي إلى بعض النظريات التي مازالت تحت الدراسة ولم يُمط عنها اللثام، ويجعل بينها وبين نصوص الوحي إشكالات ومعارضات باختصار عن موقع www.islamweb.net (س).

طفيل، وابن رشد، وابن خلدون، وإخوان الصفا، وابن الهيثم، ومحيى الدين بن العربي، وابن مسكويه، وجلال الرومي، وغيرهم كثيرين من الفلاسفة والمفكرين(١).

وأعتقد أن مبادئ الإسلام السمحة ممتزجة بالروح العلمية، كفيلة بأن تعطي للإنسانية جمعاء ديانة شاملة، حتى لمن لا يعتقدون في الإسلام اعتقادًا دينيًا صرفًا.

فالعلم هو الساعد الأيمن للإسلام العصري، بل للإسلام في جميع عصوره النيرة. وليس المشايخ هم الذين يخدمون الإسلام بعنجهيتهم وجمودهم، وإنما يخدمه من خلصت نواياهم وصح إسلامهم من رجال العلم، وهؤلاء يجب أن تكون لهم الصدارة في تفسير كتاب الله العزيز، تفسيرًا جديدًا بعيدًا عن الأباطيل والأوهام والأضاليل.

وأعتقد أن الإسلام الذي يحترم حرية العقيدة والفكر كما تحترمها أحسن الدساتير العصرية(٢)، بريء من التعصبات الطائفية والمذهبية الممقوتة، ولا يقع وزرها إلا على أدعياء الإسلام الجامحين.

تفسير الوجود:

إن جميع التفاسير الدينية للكون وللحياة، التي لا تتمشى مع الدين هي شروح

---

(١) ليته ذكر علماء الشريعة الأفذاذ الذين ساهموا في نشر دين الله، وهدوا الناس أجمعين إلى صراط رب العالمين، أو ذكر العلماء المبدعين في العلوم التجريبية، ممن أسهموا في النهضة المادية الدنيوية. أما من ذكرهم فهم إما فلاسفة أو صوفية، أفسدوا دين الله، ولم ينتفع منهم المسلمون في دينهم أو دنياهم. (س).

(٢) وهذا غير صحيح. فالإسلام لا يحترم الكفر والضلال. وإقرار أهل الذمة على دينهم، لا يعني احترام أديانهم الباطلة. (س).

من الطفولة للغز الوجود، وإني أجلُ الإسلام خاصة عن ذلك، فحسبنا أن نبيه الكريم يكرر الدعوة إلى العلم القويم، ويبنى رسالته الخالدة على العلم والتقوى. والقرآن الشريف كالكتاب المقدس، متآلف بالآيات النورانية التي تتناول بدائع الطبيعة ومفاتنها، وحقائق الاجتماع وأسرار الحياة، فليس لنا أي عذر بعد ذلك، إذا طلقنا العلم وانحدرنا، بدل أن نتسامى في تفسير كتاب الله العزيز، وتفسير الوجود تبعًا لذلك.

وقد عتب عليّ غير واحد من أصدقائي الجامعيين لما أبذله من جهد في التفسير العلمي للقرآن، ولتفسيري المسائل النقلية؛ كآدم والطوفان والجنة والنار والملائكة والبعث والحساب تفسيرًا مجازيًا، قائلين: إن في ذلك إبقاء على الإسلام، في حين أن الاتجاه العصري يذهب إلى التخلي عن الأديان القديمة بعد أن ظهرت متناقضاتها وخرافاتها إلخ. . . وأظن أنى في غير حاجة إلى التوكيد (بعد ما أوضحته مما أوضحته من مزايا الإسلام وجماله ومرونته ومسايرته التامة للعلم)، بأني إنما أؤدي أمانة في عنقي فحسب، لا أبغي من وراء ذلك جزاءً ولا شكورًا.

ولا يتسع مجال هذه الأحاديث للإطالة المسرفة في البيان، فلأذكر على سبيل المثال أنى لا أعتبر (آدم) فردًا بالذات، وإنما النوع الإنساني عند بلوغه منزلة التفكير وفقًا للنشوء والارتقاء[1]، كما أفهم من (الملائكة) عوامل الخير في الوجود[2]، وأجد من روائع الآيات القرآنية والإنجيلية التي تؤخذ على حرفيتها

(١) سيأتي نقض هذه النظرية. وتأثر أبي شادي بها دليلٌ على انسياقه مع ضغوط ذاك العصر، التي جعلت كل منهزم يتلمس التوفيق بين أحكام الإسلام والنظريات الغربية المتنوعة، مهما كان تهافتها، لكي لا يوصم بأنه من الجامدين! (س).

(٢) وهذا تكذيبٌ لكتاب الله الذي أخبر بوجود الملائكة، وأنهم من مخلوقات الله. (س).

صورًا شعرية فاتنة من الرموز المُلهمة لذوى الألباب.

إن أركان الإسلام خمسة، وهى واضحة محدودة، وكل ما عداها فهو قابل للتفسير المجازى، والاجتهاد، تمشيًا مع الحقائق العلمية والضرورات العمرانية[١].

وإذا كان كثيرون من الجامعيين يميلون إلى التجرد، فإني بروحي المتصوفة المتدينة، التي تتغذى في الوقت ذاته على العلم، أميل إلى الإدماج، وكلما تشرب الإسلام العلم - وهذه طبيعته الأصلية - ازداد نفعًا وعظمة وتألقًا وقوة على مسايرة القرون.

وفوق هذا؛ فنحن الغانمون بإعزاز الإسلام سياسيًا واجتماعيًا، ما دمنا بعيدين عن العنجهية والتعصب والجمود، والإسلام تراث ثمين للإنسانية، ليس من الهين إسقاطه، بل من المحال ذلك، إلا إذا كنا عن حقائق الحياة الاجتماعية والطبيعية البشرية غافلين.

يمكن لحضراتكم أن تطلعوا بسهولة على كتاب (بين الدين والعلم)، وهو تاريخ الصراع بينهم في القرون الوسطى، إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء، من تأليف العلامة أندرو وايت، وترجمة صديقي الأديب المفكر إسماعيل مظهر[٢]، وبعد ذلك ستشعرون نفس شعوري عن واجب تنزيه الإسلام عن مثل هذا الصراع الممقوت.

---

(١) وهذا غير صحيح. فعقائد الإسلام وأحكامه الثابتة - وهي كثيرة -، لا يجوز تأويلها والتلاعب بحقائقها؛ لتتوافق مع ما يُدعى بأنه حقائق علمية، وما هو إلا ظنونٌ وأوهام. (س).

(٢) سيأتي التعريف به وبفكره، أثناء التعليق على رسالة إسماعيل أدهم - إن شاء الله -. (س).

الأدب اللاديني:

يصح أن نعد تسعة أعشار الأدب العالمي الحديث أدبًا لا دينيًا، ولكن هذا لا ينهض عذرًا لإغفاله، وإلا أصبحت لغتنا الشريفة من أفقر اللغات في الثقافة الحديثة، فإن آراء ولز والدوس هكسلى وبرناردشو وجدفرى وجود وهالدين وفريزر وأضرابهم، ليست مما يستهان بها، ولا يجوز أن تخلو منها مكتبة راقية، فضلاً عن مثل اللغة العربية التي يتكلم بها عشرات الملايين.

نعم؛ من أوجب الواجبات علينا نقل هذا الأدب إلى لغتنا؛ لأنه رمز العصر الذي نعيش فيه، وما على رجال الدين الأعلام إلا الرد على الشبهات فيما لا يرضيهم منه. وإني إذ أدعو إلى حرية الكتابة والنشر، لست بأي حال أتفق مع كل ما ينشر، ولكنى أحترم عقيدة مواطني، وأرفض الحجر عليهم، كما أرفض أن يُباح هذا الأدب بلغاته الأصلية لعارفيها من المريين، ويُحرم الاطلاع على ترجمتها العربية على غيرهم، ولو كانوا أكبر سنًا، وأنضج تفكيرًا، وأقوى نفوذًا من الأولين!

إننا نتألم أشد الألم لوقف الحريات الدستورية الكاملة، ومع ذلك يوجد بين من يبكون على الدستور مَن يدفعهم التعصب الديني الأعمى أو سواه، إلى الاستهانة بحرية العقيدة والفكر، مع أنه لا قيمة للدستور ولا للاستقلال إذا كان قرينهما امتهان الذهن الإنسانى... ومن كانت له مثل هذه العقلية الرجعية الجامدة، أو هذا البله الفكري، فهو أبعد مَن يصلح للائتمان على الحياة النيابية، وهى بريئة منه. وإذا كان الإسلام دين الدولة، فليس معنى ذلك تدخّله بأي حال في الحياة الفكرية، وفى حرية الرأي والعقيدة[1]، إذ من الواجب علينا

---

(١) سبق أن الإسلام يمنع الشرور والفساد، ويوجب على أهل الولاية القيام بذلك؛ حفظًا لأديان المسلمين وعقائدهم. (س).

احترام عقائد غيرنا كيفما كانت[1]، ماداموا لا ينتهكون حرمة الأخلاق والآداب، وأعتقد أن هذا يتفق وتقاليد الإسلام السمحة، التي احتملت إلحاد المعري وسواه، منذ عشرة قرون أو تزيد[2]، فأولى بها أن تحتمل جميع التعاليم الفلسفية الحديثة على علاتها.

وهذا هو نفس ما يجري في إنجلترا، التي دينها الرسمي البروتستانتية، فإن معنى ذلك لا يتجاوز مظاهر الحفاوة بالدين الذي تدين به أغلبية السكان، دون أن يفكر أحدٌ مطلقًا في هذا العصر في السماح لرجال الدين بتجاوز سلطتهم، ومحاولة خنق حرية الرأي، والتدخل في الإدارة الحكومية، ولو وقع شيء من هذا في إنجلترا؛ لقامت ثورة عنيفة بسببه.

---

(١) سبق أنه لايجوز احترام الباطل. أما الأديان السماوية، فقد قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في تعقيبه على أحد الكتاب: «أما قول الكاتب: وإننا نحترم جميع الأديان السماوية. فهذا حق، ولكن ينبغي أن يعلم القارئ أن الأديان السماوية قد دخلها من التحريف والتغيير ما لا يحصيه إلا الله سبحانه، ما عدا دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه وخليله وخيرته من خلقه نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبدالله ﷺ، فقد حماه الله وحفظه من التغيير والتبديل، وذلك بحفظه لكتابه العزيز وسنة رسوله الأمين عليه من ربه عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾. فقد حفظ الله الدين وصانه من مكايد الأعداء بجهابذة نقاد أمناء ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وكذب المفترين، وتأويل الجاهلين. فلا يقدم أحد على تغيير أو تبديل إلا فضحه الله وأبطل كيده. أما الأديان الأخرى فلم يضمن حفظها سبحانه، بل استحفظ عليها بعض عباده، فلم يستطيعوا حفظها؛ فدخلها من التغيير والتحريف ما الله به عليم. . .» (مجموع فتاواه، ٢/ ١٨٣-١٨٤). (س).

(٢) وجود الزنادقة والملحدين في تاريخ المسلمين، لا يعني إقرار الشرع لهم! وإلا لقلنا بإقراره لكل منكر ارتُكب في دياره على مر العصور! كما أنه مامن مُبطل إلا وسخر الله له من يقوم برد باطله؛ كالمعري وغيره. (س).

والأزهر في الوقت الحاضر يمتاز بأنه عش فسيح للرجعية[١]، وقد ضج المصلحون بالشكوى منه، وشيوخه الأجلاء مستعدون للاستماع لكل دسيسة، ومحاربة المفكرين بشتى الأساليب التي يمقتها الإسلام نفسه، ومنها الكيد للموظفين في أعمالهم من وراء ستار؛ لأنهم اعتادوا أن لا يُردوا خائبين كلما تقدموا بالشكوى السرية ضد أي موظف! وهذه حالة من الفساد لا تُطاق، وقد كادت تخنق حرية الفكر في مصر، كما كادت تقضي على الأخلاق الإسلامية نفسها. والشواهد على ذلك مع الأسف أكثر من أن تُعد، حتى في أثناء قيام الدستور!

الإصلاح الاجتماعي:

يتمشى مع التفسير النظري للقرآن الشريف مطابقة لروح العلم: ما يقوم به المصلحون الاجتماعيون من التشريع الحديث.

مثال ذلك: حبس السارق بدل قطع يده، إذ أن ظروف الاجتماع الحاضر تدعو إلى ذلك، ولا أرى في هذا ما يُخالف روح الإسلام وأسسه، وأظن أن علماء الإسلام أنفسهم قبلوا ذلك[٢].

ومثال ذلك أيضًا: إثبات الحمل بالطرق المعملية الحديثة، بدل الطرق اللولبية الشائعة في المحاكم الشرعية، التي تؤدي إلى تعطيل العدل بدل تنفيذه. ومثال ذلك أيضًا: الدعوة إلى إباحة الزواج المدني بين المصريين[٣]، بدل إباحة

---

(١) هذا تحامل منه على الأزهر؛ لأنه لم يوافقه على حريته غير المنضبطة، وكان يتصدى للملحدين والمنحرفين، في وقائع كثيرة. (س).

(٢) هذا من تحريف أحكام الله. (س).

(٣) الزواج في الإسلام له أركان وشروط، إذا توفرت فهو زواج صحيح، فركنه: الإيجاب والقبول، والإيجاب أن يقول ولي المرأة: زوجتك فلانة أو ابنتي أو أختي، والقبول =

العهارة الرسمية لنساء المسلمين. فالإصلاح الاجتماعي الذي لا يمس أركان الدين الخمسة، ولا ينتهك حرمة الأخلاق والآداب، وينطبق على أصول العلم، لا على الأهواء السياسية أو غيرها، لجديرٌ بأن نرحب به؛ لأن معناه تقدم الإسلام والمسلمين، ولا يقول بعكس ذلك إلا جاهل أو مأفون.

بين الدين والتثقيف:

أثبت علم النفس أن الإنسان له أكثر من شخصية، فأنا لا أعدو تكويني الطبيعي، إذا كنت في الوقت الذي أحرص على مذهبي الديني الذي أجملته لحضراتكم، أحرص كذلك على حرية التفكير عامة. وسألبي مقترحاتكم في التلخيص بأحاديثي المقبلة لآراء الفلاسفة المحدَثين والمعاصرين، وسيكون تلخيصي على الطريقة الاندماجية association method لا على الطريقة النقدية critical method؛ لأن الطريقة الأولى أوقع في النفس، إذ تجعل المحاضر في موقف صاحب الفكرة نفسه. وليس غرضي من ذلك اجتذابكم إلى رأي بعينه، لأن هذه المذاهب التي سأعرضها على حضراتكم، سواء أكانت

= أن يقول الخطاب: قبلت الزواج من فلانة. ومن شروط النكاح: تعيين الزوجين، ورضاهما، وأن يعقده الولي أو وكيله، ووجود شاهدين عدلين من المسلمين؛ لقول النبي ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي**» رواه أبو داود (٢٠٨٥) والترمذي (١١٠١) وابن ماجه (١٨٨١) من حديث أبي موسى الأشعري، وصححه الألباني في صحيح الترمذي. ورواه البيهقي من حديث عمران وعائشة ﵄ بلفظ: «**لا نكاح إلا بولي وشاهدَي عدل**» وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٥٥٧).

والزواج المدني الذي يتم في المحكمة الوضعية، إن كان المراد منه هو توثيق النكاح وتسجيله؛ فهذا مطلوب؛ حفظًا للحقوق ومنعا للتلاعب. وإن كان لا تتوفر فيه شروط النكاح، أو يترتب عليه أمور باطلة فيما يتعلق بالطلاق وغيره، فلا يجوز..». نقلاً عن موقع «الإسلام سؤال وجواب»؛ للشيخ محمد المنجد. (س).

دينية صوفية، أم فلسفية، أم علمية،كثيرًا ما يتعارض بعضها مع بعض، وإنما غرضي تذوقكم الفني لتلك المذاهب، بغض النظر عن عقائدكم الخاصة.

ولقد أجملت لكم مذهبي الديني الإسلامى الذي يتصل به تصوفي العلمي الكوني، فأرجو أن لا يقع في خلدكم ما وقع في خاطر صاحبنا الأزهري، الذي اعتبرني من عُباد الإله المصري (آتون)؛ لمجرد أنه رآني في الأوبرا (أخناتون) أُمجد ذلك الرب المصري القديم،كما تقتضى ذلك أصول الفن![1] إن الطريقة الاندماجية في الأدب معروفة في أوربا، ولا تُعرف في مصر إلا في عالم المحاماة، ولذلك يُعذر من يطلعون على الأدب الأوربي؛ لما يقعون فيه من مثل هذه الأوهام، ولكن ليس لمثل حضراتكم هذا العذر، وعلى الأخص لأن مذهبي صريح جلي، وكل ما يتعارض معه في أحاديثي المقبلة، وتلخيصاتي لحضراتكم، لا شأن لي به، مادمت سأعرضه عليكم بالطريقة الاندماجية كما أنوي أن أفعل.

وإني أجعل تحيتكم هذا المساء: قصيدتي التصوفية (يا كون!)، فإن فيها روح العبادة[2]، وهى أليق ما أودعكم به في ختام هذا الحديث الديني:

يا كون أنت مثالي وفى حياتي حياتك ألست مرآة نفسي وأنني مرآتك؟

ومن جمالك روحي وملء روحي صفاتك وفي نزوعي وحبي ما عبرت لمحاتك

أراك سرًا جميلا تبثه آياتك أراك حسنًا نبيلاً تزفه أوقاتك

أراك حبًا جليلا والحب كالحسن ذاتك وفى خفوق فؤادي ووجده آهاتك

وفى حنيني ودمعي ما مثلت عبراتك فأنت كلي وبعضي وفي حياتي حياتك!

---

(١) أصول الفن لا تبيح الكفر، وتعظيم آلهة الفراعنة. ورحم الله الأزهري الذي أنكر على أبي شادي. (س).

(٢) عبادة مَن؟ أو أنها نفثة من نفثات وحدة الوجود! (س).

لماذا أنا ملحد؟

إسماعيل أدهم[١]

لما جهلتَ من الطبيعة أمرها وأقمتَ نفسك في مقام معلِّل
أثبتَّ ربًا تبتغي حلاً به للمشكلات فكان أكبرَ مُشكل![٢]

---

(١) نشرها في مجلة الإمام، أغسطس ١٩٣٧، (ص٣٦ ومابعدها)، ثم في كتيب، ثم نشرها الدكتور أحمد الهواري في «المؤلفات الكاملة لإسماعيل أدهم» (٣/ ٨٠ - ٩١). (س).

(٢) البيتان؛ للشاعر العراقي الملحد: جميل صدقي الزهاوي. قال الشيخ مصطفى صبري في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» (٢/ ٤٣٣): «وأنت إذا رأيتَ وتبينتَ المشكلات التي يتضور الملاحدة في غمرتها، ولا يجدون منجىً منها أينما ذهبوا، وأي باب طرقوا، ورأيتَ أيضًا أنهم لو وافتهم هداية الله؛ فاعترفوا بوجود الله، لزالت عنهم كل مشكلة.. إذا رأيتَ وتبينتَ هذه الحقيقة؛ علمتَ سقوط شاعر الإلحاد جميل الزهاوي البغدادي: لما جهلتَ من الطبيعة أمرها...». قلتُ: نظم الشاعر محمد حسن النجمي رحمه الله قصيدة في إلحاد الزهاوي قال فيها:

جاء العلومَ بيوتها من ظهرها وأخو الزكانة من أتى من بابها
فترفعت أن تستكين لفهمه فارتد لم يظفر بشق ترابها
نبح الحقيقة والحقيقة لم تكن لتريم هذه الأرض خوف كلابها
وحقائق الأشياء نابتة، وأن أعيا على العميان خرق حجابها
خدعته عاهرة التمدن، إنه لم يدر ما تخفيه تحت نقابها
فمضى يشيد بمدحها متغزلاً في قُبح طلعتها ومُلح رضابها
ولو أنه رُزق التعقل لاكتفى بالبون بين مشيبه وشبابها
لا غرو أن خار الضلالة مثله رغم المشيب وسار تحت ركابها=

توطئة:

الواقع أنني درجت على تربية دينية،لم تكن أقوم طريق لغرس العقيدة الدينية في نفسي، فقد كان أبي مسلمًا من المتعصبين للإسلام والمسلمين، وأمي مسيحية بروتستانتية ذات ميل لحرية الفكر والتفكير، ولا عجب في ذلك، فقد

فأخو الشقاء موفق لشقائه أعمى عن النعمى وعن أسبابها
يا أيها الشيخ المشيح بوجهه عن شِرعة ما مس جلد كتابها
خل القريض فقد عداك بليغه ودع العلوم فلست من أربابها
حمّلت شعرك في غثاثة لفظه ما تُنكر الأشعار من أصحابها
ونبذت بالكفر البواح مودة للدين كنتَ أحق باستصحابها
أأبوك قردٌ ناسل من ضفدع؟ أكرم بأسرتك التي تزهى بها
إقن الحياء، فحسب أوطان الهدى ما يهدم الأعداء من آدابها
وتوخ ما يجدي، ولا تهزل، فما في الهزل للأوطان غير خرابها
لم ترتق الأمم المهيبة بالذي تهذي به، لكن رقت بحرابها
وبما حباها الله من علم ومن عقل فقدناه بفضل شرابها
قل لي: أفلسفة تقوم بنشرها، أم شهرة خولطت(١) في استجلابها؟
هي شهرة خلعت عليك كرامة لأبيك في الأحراش شرَّ ثيابها
أو لم تكن أمسِ الحفيَّ بشِرعة أصبحت تُعرض عن لذيذ خطابها
أحسبت أن الفجر داهمه الدجى كلا فحسبك منه حسبك جابِها
أثقلت ظهرك بالذنوب: صغيرها وكبيرها، فإلى لظى وعذابها
الله يُنقذ منك قومك مثلما نجى حنيفة قبلُ من كذّابها

الحديقة»؛ لمحب الدين الخطيب (١٠/ ١٩٢). (س).

كانت كريمة البروفسور وانتهوف الشهير. ولكن سوء حظي جعلها تتوفى وأنا في الثانية من سني حياتي، فعشت أيام طفولتي حتى أواخر الحرب العظمى مع شقيقتيّ في الآستانة، وكانتا تُلقناني في تعاليم المسيحية، وتسيران بي كل يوم أحد إلى الكنيسة. أما أبي فقد انشغل بالحرب، وكان منتقلاً بين ميادينها، فلم أعرفه أو أتعرف إليه إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ودخل الحلفاء الآستانة. غير أن بُعد والدي عني لم يكن ليمنعه عن فرض سيطرته عليّ من الوجهة الدينية، فقد كلف زوج عمتي - وهو أحد الشرفاء العرب - أن يقوم بتعليمي من الوجهة الدينية، فكان يأخذني لصلاة الجمعة كل يوم جمعة، ويجعلني أصوم رمضان، وأقوم بصلاة التراويح، وكان هذا كله يُثقل كاهلي كطفل لم يشتد عوده بعد، فضلاً عن تحفيظي القرآن[1]. والواقع أنني حفظت

(١) يقول الدكتور إبراهيم عوض في مقاله «إسماعيل أدهم ذلك المغرور المنتحر» المنشور في موقعه على شبكة الأنترنت (ibrawa.coconia.net): «والعجيب أن أختيه كانتا نصرانيتين، أي متأثرتين بوالدتهما، رغم كلامه عن التعصب الشديد لوالده المسلم، ورغم أنهما كانتا تعيشان في بيئة إسلامية! وهو ما يعنى أن الأم كانت متعصبة لديانتها، حتى إنها لم تبال أقل بالة بهذه الاعتبارات المذكورة، ونشّأت بنتيها الاثنتين تنشئة نصرانية. أوَ هذا صنيع امرأة متفتحة الأفق حرة التفكير؟ ثم أين تعصب الوالد؟ وما علامته؟ لقد كانتا بنتاه تذهبان إلى الكنيسة كل أحد حسب كلام صاحبنا، ثم لا تكتفيان بهذا، بل تأخذان «إسماعيل» معهما، فكيف تمّ ذلك لو كان الأب متعصبا؟ ومَن ذلك الذي عوّدهما الذهاب للكنيسة، وتركهما تعلِّمان أخاهما تلك الديانة، إذا كانت الأم قد ماتت وهو في الثانية من عمره، وكان الأب وأهله متعصبين لدرجة أن بُعْد هذا الوالد عنه لم يمنعه من فرض سيطرته عليه من الوجهة الدينية، إذ كلَّف زوجَ عمته أن يقوم بتعليمه من الوجهة الدينية، فكان يأخذه لصلاة الجمعة، ويجعله يصوم رمضان ويقوم بصلاة التراويح، مما كان يُثقل كاهل الطفل الذى لم يشتد عوده بعد، فضلاً عن تحفيظه القرآن كما يقول أدهم نفسه؟كذلك لا يدخل العقلَ أن يكون زوجُ العمة بهذا التشدد، ثم لا يلاحظ أن «المحفَّظ» الصغير يذهب كل أحد إلى الكنيسة، ومع أختيه =

القرآن وجوّدته وأنا ابن العاشرة، غير أني خرجت ساخطًا على القرآن؛ لأنه كلفني جهداً كبيرا كنت في حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسي. وكان كل ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه. ولكني كنت أجد من المسيحية غير ذلك، فقد كانت شقيقتاي - وقد نالتا قسطًا كبيرًا من التعليم في كلية الأمريكان بالآستانة - لا تُثقلان عليّ بالتعليم الديني المسيحي، وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والإنجيل ليس صحيحًا، وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب، وكان لهذا كله أثر في نفسيتي[(١)].

كانت مكتبة والدي مشحونة بآلاف الكتب وكان محرمًا عليّ الخروج والاختلاط مع الأطفال الذين هم من سني، ولقد عانيت أثر هذا التحريم في فردية تُبعدني عن الجماعة فيما بعد، ولم يكن في مستطاعي الخروج إلا مع

= أيضًا! يا سلام على هذا التعصب والتشدد! إن هذا معناه أن الرجل أبله ونائم على أذنيه ولا يدرى كُوعَه من بُوعِه! ألم تفلت على الأقل من الطفل الصغير كلمة أو همسة أو إشارة تُنبه العم التائه إلى ما يحدث؟ ألم يرهما أحدٌ من الجيران أو الأقارب فيُخبره بما يفعل أولاد صهره؟ إن مثل هذه الأمور لا يمكن كتمانها، وبخاصة إذا كان من يقوم بها أطفالٌ لا يعرفون الدهاء والالتواء بعد! وحتى لو افترضنا شدة دهائهم والتوائهم، فكيف كان من الممكن أن يكتموا أمرًا كهذا يمارسونه على رؤوس الأشهاد، اللهم إلا إن كانوا يعيشون في بيت مستقل لا يتدخل أي شخص في حياتهم؟ لكن قول الكاتب: «كانت مكتبة والدي مشحونة بآلاف الكتب، وكان محرَّمًا عليَّ الخروج والاختلاط مع الأطفال الذين هم من سني» يدل على أنه وأختيه كانوا يخضعون لإشراف كبار الأسرة!». (س).

(١) سبق أنه أخبر عن أختيه أنهما كانتا تُلقنانه النصرانية. يقول الدكتور إبراهيم عوض في مقاله السابق: «بالله عليكم ماذا بقي في النصرانية مما يمكن أن يؤمن الإنسان به، إذا كان يُكذّب بكتابها، ويرفض ما تقوله عن المعجزات، ويسخر به، ويُنكر ما تحاول أن تغرسه في نفوس أتباعها من وجود عالم آخر، وجنة ونار، وما إلى هذا؟». (س).

شقيقتيَّ، وقد ألفت هذه الحياة، وكنت أحبهما حبًا جمًا فنقضي وقتنا معًا نطالع ونقرأ، فطالعت وأنا ابن الثامنة مؤلفات عبد الحق حامد، وحفظت الكثير من شعره، وكنتُ كلِفًا بالقصص الأدبية، فكنت أتلو لبلزاك[١] وجي دي موباسان[٢] وهيغو[٣] من الغربيين آثارهم، ولحسين رحمي الروائي التركي المشهور قصصه، وأتى والدي إلى الآستانة وقد وضعت الحرب أوزارها ودخل الحلفاء الآستانة، ولكن لم يبقَ كثيرًا، حيث غادرها مع مصطفى كمال إلى الأناضول، ليبدأ مع زعماء الحركة الاستقلالية حركتهم، وظللت أربع سنوات من سنة **١٩١٩** إلى **١٩٢٣**م في الآستانة قابعًا في دارنا، أتعلم الألمانية والتركية على يد شقيقتيّ، والعربية على يد زوج عمتي، وفى هذه الفترة قرأت لداروين[٤] أصل الأنواع وأصل الإنسان، وخرجت من قراءتهما مؤمنًا بالتطور. وقرأت مباحث هكسلي[٥]، وهيغل[٦]، والسر ليل، وبيجهوت[٧]، وأنا لم أتجاوز الثالثة عشرة

---

(١) أونوريه دي بليزاك (٢٠ مايو ١٧٩٩ - ١٨ أغسطس ١٨٥٠م)، روائي فرنسي، يُعد من مؤسسي الواقعية في الأدب الأوروبي. له إنتاج غزير من الروايات والقصص، يسمى في مجموعه «الكوميديا الإنسانية». (س).

(٢) غي دو موباسان (١٨٥٠ - ١٨٩٣ م)، كاتب و روائي فرنسي، من رواد القصة القصيرة. (س).

(٣) فيكتور هيجو، (١٨٠٢-١٨٨٥م)، شاعر فرنسي، وكاتب مسرحي، وروائي شهير. (س).

(٤) تشارلز روبرت داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م)، عالم حيوان، إنجليزي الجنسية، اشتهر بنظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي، حول نشأة الإنسان. (س).

(٥) جوليان سوريل هكسلي (١٨٨٧ - ١٩٧٥ م)، عالم أحياء، وفيلسوف إنجليزي. (س).

(٦) جورج ويلهلم فريدريكك هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م)، فيلسوف ألماني، يعتبر أحد أهم الفلاسفة الألمان، وأهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. (س).

(٧) والتر بيجهوت (١٨٢٦ ـ ١٨٧٧م)، من كبار رجال الاقتصاد والسياسة في بريطانيا، في القرن التاسع عشر. (س).

من سني حياتي. وانكببت أقرأ في هذه الفترة لديكارت وهوبز وهيوم وكانت، ولكنى لم أكن أفهم كل ما أقرأ لهم. وخرجت من هذه الفترة نابذًا نظرية الإرادة الحرة، وكان لسبينوزا وأرنست هيغل الأثر الأكبر في ذلك، ثم نبذت عقيدة الخلود. غير أن خط دراستي توقف برجوع والدي إلى الآستانة، ونزوحه إلى مصر واصطحابه إياي، وهنالك في الإسكندرية خطوت أيام مراهقتي، ولكن أبي لا يعترف لي بحق تفكيري، ووضع أساس عقيدتي المستقبلة، فكان يفرض عليّ الإسلام والقيام بشعائره فرضًا، وأذكر يومًا أني ثرت على هذه الحالة وامتنعت عن الصلاة، وقلت له: إني لست بمؤمن، أنا داروني أؤمن بالنشوء والارتقاء[1]. فكان جوابه على ذلك أن أرسلني إلى القاهرة، وألحقني بمدرسة داخلية ليقطع عليّ أسباب المطالعة، ولكني تحايلت على ذلك بأن كنت أتردد على دار الكتب المصرية، وأطالع ما يقع تحت يدي من المؤلفات الألمانية والتركية يومي الخميس والجمعة، وهما من أيام العطلة المدرسية، وكنت أشعر وأنا في المدرسة أني في جوٍ أحط مني بكثير. نعم؛ لم تكن سني تتجاوز الرابعة عشرة، ولكن كانت معلوماتي في الرياضيات والعلوم والتاريخ تؤهلني لأن أكون في أعلى فصول المدارس الثانوية، ولكن عجزي في العربية والإنجليزية كان يقعد بي عن ذلك.

وفى سنة ١٩٢٧ غادرت مصر بعد أن تلقيت الجانب الأكبر من التعليم الإعدادي فيها على يد مدرسين خصوصيين، ونزلت تركيا، والتحقت بعدها بمدة بالجامعة، وهنالك للمرة الأولى وجدت أناسًا يمكنني أن أشاركهم تفكيرهم ويشاركونني. في الآستانة درست الرياضيات، وبقيت كذلك ثلاث سنوات، وفى هذه الفترة أسست (جماعة نشر الإلحاد) بتركيا، وكانت لنا مطبوعات صغيرة كلٌ منها في ٦٤ صفحة، أذكر منها:

---

(١) سيأتي - إن شاء الله - نقض نظرية داروين، التي انخدع بها كثيرون في ذلك العهد. (س).

الرسالة السابعة: الفرويديزم، الرسالة العاشرة: ماهية الدين، الرسالة الحادية عشرة: قصة تطور الدين ونشأته، الرسالة الثانية عشرة: العقائد، الرسالة الثالثة عشرة: قصة تطور فكرة الله، الرسالة الرابعة عشرة: فكرة الخلود.

وكان يُحرر هذه الرسائل أعضاء الجماعة، وهم طلبة في جامعة الآستانة، تحت إرشاد أحمد بك ذكريا، أستاذ الرياضيات بالجامعة، والسيدة زوجته.

وقد وصلت الجماعة في ظرف مدة قصيرة للقمة، فكان في عضويتها ٨٠٠ طالب من طلبة المدارس الثانوية - الإعدادية -، وبعد هذا فكرنا في الاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكية التي يديرها الأستاذ شارلس سمث، وكان نتيجة ذلك انضمامنا له، وتحويل اسم جماعتنا إلى (المجمع الشرقي لنشر الإلحاد).

وكان صديقي البحاثة إسماعيل مظهر(١) في ذلك الوقت يُصدر مجلة (العصور)،

---

(١) المتوفى (١٣٨١هـ). انظر ترجمته في «الأعلام» (١/ ٣٢٧). درس علوم الأحياء ثم تحول إلى الأدب. ترجم «أصل الأنواع» لداروين، مقتنعًا بفكرته، واشتغل بالتأليف، ورأس تحرير «المقتطف»، وأصدر مجلة «العصور» ١٩٢٧م، ومن خلالها كان ينشر أفكاره الإلحادية، ويتعاون مع أمثاله، واشتهر بدعوته لتغريب المرأة. انظر عن أفكاره: «الفكر العربي وصراع الأضداد»؛ للدكتور محمد جابر الأنصاري (ص ٦٠ - ٦١)، و«العلمانية»؛ للشيخ سفر الحوالي (ص ٦١٤، ٦٣٨ - ٦٤٠). وقد أطال الأستاذ محمد سيد كيلاني في مناقشة أفكاره المنحرفة في «ذيل الملل والنِحَل» (ص ٩٢ - ١٠٦)، وكتبت عنه الأستاذة هبة فتحي محمد عبدالعظيم رسالةً جامعيةً بعنوان «إسماعيل مظهر - آراؤه وأفكاره - رؤية نقدية»، وناقشت ماقيل عن تراجعه. وهذا ملخصٌ مفيد منها (ص ٢٤٨ و ٢٥٧ و ٢٦٢ - ٢٦٥): «بدأ إسماعيل مظهر كمفكر علماني، ليبرالي، يتبنى المناهج الغربية، والأفكار الإلحادية، هذه الأفكار التي رمت إلى التحلل من المعتقدات الدينية الثابتة، والتي أوصلت إسماعيل مظهر في بعض الأحيان، إلى التشكيك في وجودها أصلاً، بل والتهكم عليها، كما نُظر إلى =

. . . .

= إسماعيل مظهر كرائد من رواد الفكر التغريبي في العالم العربي، والذي من شأنه التحقير من الحضارة الإسلامية، والتنصل منها، بالتزامن مع الدعوة إلى التبعية الحضارية للغرب، وقبول كل ما يطرحه، بغض النظر عن مدى صلاحية هذا الذي يطرح لمجتمع مغاير له في جميع الأوجه، كالمجتمع الإسلامي.
وإذا انتقلنا إلى أهمية إسهامات إسماعيل مظهر الفكرية في فترة تحوله وذلك من حيث مدى تأثيرها على النطاق الإسلامي آنذاك؛ فربما نخرج بنتيجة مخالفة، حيث لم تمثل هذه الجهود الفكرية أهمية قصوى على المستوى الإسلامي، فكان حديثه عن شمولية الإسلام، أو عن العروبة، أو هجومه على الأهداف الاستعمارية للقوى الغربية، كانت هذه المطارحات الفكرية، معروفة متداولة لدى الإسلاميين، وبشكل أكثر توسعاً وتفصيلاً، وفهماً، كما أضعف في موقف إسماعيل مظهر، هذه الانحرافات التي بدت عن تصوراته للقضايا الإسلامية. يقول أنور الجندي: «مهما يكن من شيء فقد كسبت اليقظة انطلاقات جديدة من معسكرات خصوم الإسلام والعروبة.. ولكن هذه الحركة التي نبتت في معسكر التغريب فجأة بالاتجاه إلى الإسلام والعروبة، إنما كانت تخفي أخطاراً شديدة، فهي تريد أن تسحب الزعامة الفكرية من أيدي الدعاة الجدد الأصلاء... تحت تأثير الأسماء اللامعة التي تحمل لواء الكتب الإسلامية والعربية (منهم إسماعيل مظهر)... ولكنها كانت في نفس الوقت تُصر على أن تقول إن الإسلام دين لاهوتي، ولا تقر له بالرأي في مسائل السياسة والاجتماع والتربية، وهي تنظر إلى التاريخ الإسلامي من خلال المناهج الغربية، كما تنظر إلى الأدب العربي من خلال المذاهب الغربية»...
- إلى أن قالت في ختام رسالتها -: هكذا ينتهي عرض أفكار إسماعيل مظهر وآراءه، حول مختلف قضايا الفكر الإنساني، وكذلك التعقيبات على آرائه جميعها، ويبقى من بعد، تعقيب شاملٌ، وذلك في إطار طرح أهم النتائج التي أمكن التوصل إليها من خلال هذا البحث.
أولاً: اتضح من خلال هذا البحث أن إسماعيل مظهر، كان ذا عقلية موسوعية بالفعل حيث لم يترك مجالاً من مجالات المعرفة الإنسانية، إلا وأدلى فيه بدلوه، بالتحليل أو النقد، وكان العلم من أهم الفروع المعرفية التي كتب فيها إسماعيل مظهر، فقد اهتم ببيان أهمية =

. . . .

= أسلوب التفكير العلمي، وحاول تدعيم هذا النوع من التفكير في الشرق العربي في مقابل رفضه للأسلوب الغيبي، كما اهتم بشكل خاص بالنظريات العلمية الغربية، أما في المجال الفلسفي، فقد قام إسماعيل مظهر بالترجمة والشرح والتعليق على الفلسفة اليونانية، والفلسفة الحديثة، كان أهم ما قام به تقديم وتدعيم فلسفة أوجست كونت الوضعية.
كما كتب إسماعيل مظهر في الأدب، وكان له محاولات في النقد الأدبي، كما كان له إسهامات في الإصلاح الاجتماعي، وإسهامات أخرى، أكثر أهمية في حقل اللغة العربية.
أما المسائل التي كتب فيها إسماعيل مظهر، وعكست موقفه من قضية الهُوية، فكان من أهمها حديثه عن الخلافة، ودعوته في مرحلة ما قبل التحول إلى حتمية فصل الدين عن الدولة، أما بعد تحوله فكان أهم ما نادى به في هذا الصدد الوحدة العربية، والجامعة العربية، وهجومه على الصهيونية.
ثانياً: من النتائج اللافتة للنظر التي أمكن التوصل إليها في هذا البحث أن اسم إسماعيل مظهر، وفلسفته، ظلا غير معروفين نسبياً لدى أجيال عديدة من المثقفين، لاسيما تلك الأجيال التي تلت الحقبة الزمانية التي عاش فيها، وذلك بالمقارنة مع معاصريه من المفكرين، واتضح أن ذلك يعود إلى سببين: الأول منهما سبب «خارجي» لا يتصل بفكره أو شخصيته، ويتعلق بتناثر تراثه الفكري في الدوريات، وعدم الاهتمام بإعادة نشر مؤلفاته.
أما السبب الثاني - وهو الأهم - فهو سبب داخلي نفسي، يتصل بالمثالية الشديدة التي كان عليها إسماعيل مظهر، ورفضه المهادنة في عرض أفكاره، فكان ذلك التصلب الفكري سبباً مباشراً لرفض آرائه في أحيانٍ كثيرة.
ثالثاً: تتخلص هذه النتيجة في أن إسماعيل مظهر تأثر في معظم أفكاره بالغرب، وبنظرياته العلمية، وبأنماط فكره على وجه العموم، وقد بدا هذا التأثر واضحاً في العديد من الموقف الفكرية التي اتخذها إسماعيل مظهر، وكان موقفه من الدين، وقضاياه من أجلى هذه المواقف، فقد انعقدت أيديولوجية إسماعيل مظهر منذ البداية - ولاسيما قبل تحوله - على أن يتعامل مع الدين كما يتعامل معه الغرب؛ على أنه مجرد لاهوت، وكانت الأسس =

. . . .

= الغيبية التي تقوم عليها الأديان من أكثر المسائل التي دفعته إلى مهاجمة القضايا الدينية، واستخدام المنهج النقدي في معالجتها، متأثراً في كل ذلك بالنظريات الغربية، واتضح ذلك من خلال حديثه عن أصل الدين، وتطور العقيدة الدينية، والملفت للنظر، أنه تعامل مع الدين على أنه مجرد اعتقاد فحسب، وقد دفعته هذه النظرة إلى أن يساوي تسوية نهائية بين جميع الصور الدينية، سواء كانت سماوية أو أرضية!! وبالتالي لا يكون من الصعب عليه من بعد ذلك أن يسوى بين الإسلام والنصرانية - دين الغرب - على ما بينهما من فروق جوهرية! وكان من الطبيعي أيضاً - وتلك تصوراته عن الدين- أن يدعو إلى فصل الدين عن المبادئ الديناميكية الأخرى، والمتعلقة بالحياة الإنسانية، كالسلطة المدنية، والعلم، والأخلاق. وبذلك لا يتبقى للدين سوى بعض الوصايا والتعاليم الدوغمائية، والمقتصرة على دور العبادة، لا تتخطاها إلى خارجها.
ثم كانت نظرة إسماعيل مظهر للإنسان، في هذه النظرة المستمدة من الفكر النشوئي (الغربي)، والتي أبعدت الإنسان عن موقع الخيرية والمسؤولية، وجعلت منه مجرد صورة راقية من الحيوان، بل إن هذه الصورة نفسها عُرضة للارتقاء، خضوعاً لمبدأ التطور، وهو المبدأ الذي ألغى تماماً فكرة الثبات في هذا الكون.
ويمكن القول: إن الآراء التي أبداها إسماعيل مظهر حول الحضارة الإسلامية، وموقفه من العقلية العربية، والتي نظر إليها نظرة متدنية- قد نجمت جميعها عن قناعاته بالفلسفة الوضعية، وبقانون الدرجات الثلاث لأوجست كونت، فقد طبق إسماعيل مظهر هذا القانون على العقلية العربية، ووصل إلى نتيجة مؤداها؛ أن تصنيف العرب في الدرجة الثانية من درجات المعرفة الإنسانية، وهي درجة غيبية لم يتعدوها بعد إلى الدرجة الواقعية، وهذه الدرجة التي وصل إليها العقل الغربي، والتي يأمل إسماعيل مظهر أن يصل إليها العقل العربي يوماً ما، فيبتعد عن الأساليب والأفكار الغيبية ويتبع أسلوب الفكر العلمي الواقعي.
رابعاً: اتضح من خلال هذا البحث أن هناك بعض الأفكار، سيطرت على ذهن إسماعيل مظهر، وظلت ملازمة له طيلة حياته الفكرية، ولم يحل تحوله الفكري دون التشبث بها، والدفاع عنها، ويمكن عرض أهم فكرتين سيطرتا عليه، ولخصتا فلسفته التي عمل على =

في مصر، وكانت تُمثل حركة معتدلة في نشر حرية الفكر والتفكير، والدعوة للإلحاد، فحاولنا أن نعمل على تأسيس جماعة تتبع جماعتنا في مصر، وأخرى بلبنان، واتصلنا بالأستاذ عصام الدين حفني ناصف في الإسكندرية، وأحد

= ترويجها من خلال كتاباته العديدة، أولاهما: فكرة العلم، وثانيهما: فكرة الحرية.
وبالنسبة لفكرة العلم، فلم يكن اهتمام إسماعيل مظهر مقتصراً على النظريات العلمية فقط، وإنما اهتم إسماعيل مظهر بتدعيم المناخ العلمي في الشرق، وتعدى ذلك إلى حماسة إيمانية بقدرة العلم على توجيه خطى التطور الإنساني في المستقبل.
وإذا انتقلنا إلى فكرة الحرية، وهي شديدة الأهمية في دراسة فكر إسماعيل مظهر؛ إذ تمحورت حولها العديد من الآراء التي صرح بها، فإن مبدأ الحرية كان بمثابة الأساس الذي قامت عليه فلسفة إسماعيل مظهر في كل وجوهها.
خامساً: تبين من خلال هذه الدراسة، وبعد مراقبة التحول الفكري الذي طرأ على عقلية إسماعيل مظهر، وبيان أسبابه، أن هذا التحول كان جزئياً لا جذرياً، ثم إنه لا يمثل أهمية كبرى على مستوى خدمة القضايا الحضارية الإسلامية؛ إلا إذا أضيف إلى كوكبة التحولات الفكرية في نفس الوقت، والتي شكلت ظاهرة ملموسة آنذاك، وأبانت عن فشل وانكسار الموجة التغريبية، وارتفاع حركة المد الإسلامي.
سادساً: وأخيراً: يمكن القول بأن قراءتنا لفكر إسماعيل مظهر، تجعل من الصعوبة تصنيفه في أحد حقول الفكر العربي؛ فإسماعيل مظهر يستحق أن يُصنف كواحد من أهم المفكرين العلميين في العالم العربي، وذلك بسبب إسهاماته العديدة في هذا المجال، وكان تأييده المطلق، وإيمانه بمبدأ الحرية سبباً مباشراً في أن يُصنف من كبار المفكرين الليبراليين أما تنظيره للمبادئ العلمانية في الشرق العربي، وترويجه لها، فجعل منه أحد رواد الجيل الأول من العلمانيين العرب، إلا أن هجوم إسماعيل مظهر على المعتقدات الدينية الثابتة وانتقاده إياها بشكل جاف وسافر، ونشره للأفكار التشكيكية واللاأدرية، ونظرته السلبية للحضارة الإسلامية، ودعوته للتخلص من آثار الماضي، والتطلع إلى المستقبل المتمثل بالطبع في الحضارة الغالبة زمانياً، أي حضارة الغرب. كل ذلك وضع إسماعيل مظهر في خانة (أعلام الفكر التغريبي في العالم العربي)، ولم يساعده تحوله الفكري، وتراجعه عن بعض الأفكار في تغيير النظرة إليه كمفكر تغريبي يتبنى المناهج الغربية». (س).

الأساتذة بجامعة بيروت، ولكن فشلت الحركة! وغادرت تركيا في بعثة لروسيا عام ١٩٣١، وظللت إلى عام ١٩٣٤، هنالك أدرس الرياضيات وبجانبها الطبيعيات النظرية. وكان سبب انصرافي للرياضيات ميلٌ طبيعي لي، حتى لقد فرغت من دراسة هندسة أوقليدس(١) وأنا ابن الثانية عشرة. وقرأت لبوانكاره(٢) وكلاين(٣) ولوباجفسكي(٤) مؤلفاتهم وأنا ابن الرابعة عشرة، وكنت كثير الشك والتساؤل، فلما بدأت بهندسة أوقليدس وجدته يبدأ من الأوليات، وصدم اعتقادي في قدسية الرياضيات وقتئذ، فشككت في أوليات الرياضة وظللت مضربًا مدة من الزمن عن تلقي الرياضيات، منكبًا على دراسة هوبز(٥) ولوك(٦) وبركلي(٧) وهيوم(٨)، وكان الأخير أقربهم لنفسي، وحاول الكثيرون إقناعي بأن

---

(١) إقليدس (حوالي ٣٢٥ ق.م - حوالي ٢٦٥ ق.م)، عالم رياضي يوناني، عاش في مدينة الإسكندرية، ويُعد أبا الهندسة الرياضية. (س).

(٢) جوليس هنري بوانكاريه (١٨٥٤ - ١٩١٢ م)، أحد العلماء الفرنسيين في مجال الرياضيات والفيزياء النظرية، كما كان من فلاسفة العلوم. (س).

(٣) كلاين فيلكس (١٨٤٩- ١٩٢٥م)، عالم رياضيات ألماني، اشتهر ببحوثه في الهندسة. (س).

(٤) نيكولاي لوباتشيفسكي (١٧٩٢-١٨٥٦ م) عالم رياضي روسي. (س).

(٥) توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩م)، عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي شهير. انظر لمعرفة فكره وآرائه الإلحادية: «كواشف زيوف»؛ للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني (ص ٤٢٨ - ٤٣٢). (س).

(٦) جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م)، فيلسوف تجريبي، ومفكر سياسي ليبرالي إنجليزي. (س).

(٧) جورج بركلي (١٦٨٥ . ١٧٥٣م)، فيلسوف إيرلندي من أصل إنجليزي. (س).

(٨) ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦م)، فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي. كان ملحدًا لا يؤمن إلا بالمادة وحدها، ولهذا كان قريبًا لنفس أدهم! انظر لمعرفة فكره وآرائه الإلحادية: «مذاهب فكرية معاصرة - عرض ونقد»؛ للدكتور محمود مزروعة (ص ١٦٩-١٨٥). (س).

أكمل دراستي للرياضة، ولكن حدث بعد ذلك تحول عجيب، لا أعرف كنهه لليوم، فالتهمت المعلومات الرياضية كلها، فدرست الحساب والجبر والهندسة بضروبها، وحساب الدوالي والتربيعات، ولكن الشك لم يغادرنى، فسلمت جدلاً بصحة أوليات الرياضة ودرست، وما انتهيت من دراستي حتى عنيت بأصول الرياضة، وكان هذا الموضوع سبب نوال درجة الدكتوراه في الرياضيات البحتة من جامعة موسكو سنة ١٩٣٣م، وفي نفس السنة[١] نجحت في أن أنال العلوم وفلسفتها إجازة الدكتوراه لرسالة جديدة عن «الميكانيكا الجديدة التي وضعتها مستندًا على حركة الغازات وحسابات الاحتمال»، وكانت رسالة في الطبيعيات النظرية. وخرجت من كل بحثي بأن الحقيقة اعتبارية محضة، وأن مبادئ الرياضيات اعتبارات محضة، وكان لجهدي في هذا الموضوع نهاية، إذ ضمَّنت النتائج التي انتهيت إليها كتابي «الرياضيات والفيزيقا»، الذي وضعته بالروسية في مجلدين، مع مقدمة مسهبة في الألمانية.

وكانت نتيجة هذه الحياة أني خرجت عن الأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده، وبالمنطق العلمي، ولشد ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالاً وأكثر اطمئنانًا، من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقدٍ ديني[٢].

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب «وفي السنة نفسها».

(٢) يقول الدكتور إبراهيم عوض في مقاله السابق: «إننا للأسف نفاجأ بانتحاره بعد ذلك بسنوات، وأنه لم يكن سعيدًا على الإطلاق، بل كان شقيًا تعيسًا إلى الدرجة التي لم تعد لديه معها أية مقدرة على التحمل والاستمرار في الحياة، فَبَخَعَ نفسه بيده وانتحر. ومعنى هذا أنه كان يكذب علينا، أو ربما كان يكذب على نفسه، أو (وهو الأرجح) كان يكذب على نفسه وعلى الآخرين معًا..». (س).

وقد مكّن ذلك الاعتقاد في نفسي الأوساط الجامعية التي اتصلت بها، إذ درّست مؤقتًا فكرتي في دروس الرياضيات بجامعة موسكو سنة ١٩٣٤م.

(١)

إن الأسباب التي دفعتني للتخلي عن الإيمان بالله كثيرة، منها ما هو علمي بحت، ومنها ما هو فلسفي صرف، ومنها ما هو بين بين، ومنها ما يرجع لبيئتي وظروفي، ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية. وليس من شأني في هذا البحث أن أستفيض في ذكر هذه الأسباب، فقد شرعت منذ وقت أضع كتابًا عن عقيدتي الدينية والفلسفية، ولكن غايتي هنا أن أكتفي بذكر السبب العلمي الذي دعاني للتخلي عن فكرة (الله)، وإن كان هذا لا يمنعني من أن أعود في فرصة أخرى إذا سنحت لي لبقية الأسباب.

وقبل أن أعرض الأسباب لابد لي من استطراد لموضوع إلحادي، فأنا ملحد، ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه. فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف في إيمانه. نعم؛ لقد كان إلحادي بداءة ذي بدء مجرد فكرة تساورني، ومع الزمن خضعتْ لها مشاعري، فاستولت عليها، وانتهت من كونها فكرة إلى كونها عقيدة.

ولي أن أتساءل: ما معنى الإلحاد؟

يجيبك لودفيج بخنر زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر[1]: الإلحاد هو الجحود

(١) لودفج بخنر (١٨٢٤ - ١٨٩٩م)، طبيب وفيلسوف ألماني ملحد، اتخذ من المادية المتطرفة مذهبًا له؛ فأنكر الغيبيات، وأعلن الإلحاد. انظر عنه: «كواشف زيوف»؛ للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني (ص ٤٤٢)، وقال عنه: «أحكامه أحكام تقريرية ادعائية، ليس فيها تفسيرات منطقية، وغير مقترنة بأدلة عقلية أو علمية». (س).

بالله، وعدم الإيمان بالخلود، والإرادة الحرة. والواقع أن هذا التعريف سلبي محض، ومن هنا لا أجد بُدًا من رفضه. والتعريف الذي أستصوبه وأراه يُعبر عن عقيدتي كملحد هو: «الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته، وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم».

ومن مزايا هذا التعريف: أن شقه الأول إيجابي محض، بينما لو أخذت وجهته السلبية؛ لقام دليلاً على عدم وجود الله. وشقه الثاني سلبي، يتضمن كل ما في تعريف بخنر من معان.

يقول عمانوئيل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)[1]: (إنه لا دليل عقلي أو علمي على وجود الله)، و(إنه ليس هنالك من دليل عقلي أو علمي على عدم وجود الله).

وهذا القول الصادر عن أعظم فلاسفة العصور الحديثة، وواضع الفلسفة الانتقادية، يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة. وقول عمانوئيل كانت لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس[2] الشاعر اللاتيني منذ ألفي سنة، ولهذا السبب وحده تقع على الكثيرين بين صفوف المثقفين والمتنورين، بل الفلاسفة من اللاأدريين، وهربرت سبنسر الفيلسوف الإنجليزي الكبير[3]، وتوماس هكسلي البيولوجي

---

(١) إمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)، فيلسوف من القرن الثامن عشر، ألماني من بروسيا ومدينة كونغسبرغ. يُنظر لبيان فلسفته: «إمانويل كنت»؛ لعبدالرحمن بدوي. وسيأتي الحديث عن إلحاده من عدمه. (س).

(٢) تيتوس كاروس لوقراسيوس (٩٩ - ٥٥ ق م)، شاعر وفيلسوف لاتيني. «معجم الفلاسفة» (ص ٥٩٤ - ٥٩٧). (س).

(٣) هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣م)، فيلسوف بريطاني ملحد. انظر لمعرفة فكره وآرائه الإلحادية: «كواشف زيوف»؛ للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني (ص ٤٥٠ - ٤٥٣). (س).

والمشرح الإنجليزي المعروف[١]، قد كانا لا أدريين، ولكن هل عدم قيام الأدلة على عدم وجود الله مما يدفع المرء للاأدرية؟

الواقع الذي ألمسه: أن فكرة الله فكرة أولية، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفي سنة، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقول: إن مقام فكرة الله الفلسفية، أو مكانها في عالم الفكر الإنسانى لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس: التبرير racionation، ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التي تُقام لأجل إثبات وجود السبب الأول قيمة علمية أو عقلية. ونحن نعلم مع علماء الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها بعالم الفكر من حالات وهم وخوف، وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية، ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها.

(٢)

إن العالم الخارجي - عالم الحادثات - يخضع لقوانين الاحتمال probability، فالسُنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التي يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من الحوادث. والسببية العلمية لا تخرج في صميمها عن أنها وصف لمجرى سلوك الحوادث، وصلاتها بعضها ببعض. وقد نجحنا في ساحة الفيزيقا - الطبيعيات - في أن نُثبت أن (B) إذا كانت نتيجة effect للسبب cause، فإن معنى ذلك أن هنالك علاقة بين الحادثين (B) و (A). ويحتمل أن تحدث هذه العلاقة بين (B) و (c)، وبينها وبين (D) و (E)، فكأنه يحتمل أن تكون نتيجة للحادثة (A) وقتًا، وللحادثة

---

(١) توماس هنري هاكسلي (١٨٢٥- ١٨٩٥م)، عالم أحياء بريطاني. (س).

(C) وقتًا آخر، وللحادثة (D) حينًا، وللحادثة (E) حينًا آخر. والذي نخرج به من ذلك أن العلاقة بين ما نُطلق عليه اصطلاح السبب، وبين ما نُطلق عليه اصطلاح النتيجة تخضع لسُنن الاحتمال المحضة، التي هي أساس الفكر العلمي الحديث.

ونحن نعرف أن قرارة النظر الفيزيقي الحديث هو الوجهة الاحتمالية المحضة، وليس لي أن أطيل في هذه النقطة، وإنما أحيل القارئ إلى مذكرتي العلمية لمعهد الطبيعيات الألماني، والمرسلة في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤، والتي تُليت في اجتماع ١٧ سبتمبر، ونُشرت في أعمال المعهد لشهر أكتوبر، عن (المادة وبنائها الكهربائي)، وقد لخصت جانبًا من مقدمتها بجريدة (البصير) عدد ١٢١٢٠ (المؤرخ الأربعاء ٢١ يوليو سنة ١٩٣٧)، وفي هذه المذكرة أثبتُ أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمي للذرة، فإذا كان كل ما في العالم يخضع لقانون الاحتمال؛ فأني أمضى بهذا الرأي إلى نهايته، وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة.

ولكن ما معنى الصدفة والتصادف؟

يقول هنري بوانكاريه في أول الباب الرابع من كتابه Science et Methode في صدد كلامه عن الصدفة والتصادف:

(إن الصدفة تخفي جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعترافٌ بالقصور عن تعرف هذه الأسباب).

والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه في اعتقاده منذ تفتح العقل الإنساني (انظر لصديقنا البحاثة إسماعيل مظهر «ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء»، ص (١٦٤ _ ١٦٧)»، غير أني من وجهة رياضية أجد للصدفة معنىً

غير هذا، معنىً دقيقًا بُث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني في كتابي: «Mathematatik und Physik» ج٢ فصل ٧، في صدد الكلام عن الصدفة والتصادف، وهذا المعنى لا تؤتيني الألفاظ العادية للتعبير عنه؛ لأن هذه الألفاظ ارتبطت بمفهوم السبب والنتيجة، لهذا سنحاول أن نحدد المعنى عن طريق ضرب الأمثلة.

لنفرض أن أمامنا زهر النرد، ونحن جلوس حول مائدة، ومعلومٌ أن لكل زهر ستة أوجه بالرمز الآتي في كل من الزهرين:

يك - دو - ثه - جهار - بنج - شيش.

ل١ : ل٢ : ل٣ : ل٤ : ل٥ : ل٦ في زهر النرد الأول

ك١ : ك٢ : ك٣ : ك٤ : ك٥ : ك٦ في زهر النرد الثاني

وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يُحدد معنى الصدفة التي نبحثها.

إن نسبة احتمال هذه الأوجه تابعة لحالة اللاعب بزهر النرد، ولكن لنا أن نتساءل: ما نسبة احتمال هذه الأوجه تحت نفس الشرائط، فمثلاً: لو فرضنا أنه في المرة ن كانت نتيجة اللعب هي:

ل٦ ط ك٦ = شيش ط شيش = دش

فما أوجه مجيء الدش في المرة (ن + س)؟

إذا فرضنا أن الحالة الاحتمالية هي «ح»، كان لنا أن نخلص من ذلك بأن اللاعب إذا رمى زهر النرد (ن + س) من المرات، وكان مجموعها مثلاً ٣٦ مرة، فاحتمال مجيء الدش هنا في الواقع ١/(ن + س)

وبما أن ق + س = ٣٦ مرة، فكان النسبة الاحتمالية هي: ١/ ٣٦

فإذا أتى الدش مرة من ٣٦ مرة؛ لما عُد ذلك غريبًا؛ لأنه محتمل الوقوع، ولكن ليس معنى ذلك أن الدش لابد من مجيئه؛ لأن هذا يدخل في باب آخر، قد يكون باب الرجم.

وكلما عظّمت مقدار س في المعادلة (ن+س) تحدد مقدار (ح)، أي النسبة الاحتمالية، وذلك خضوعًا لقانون الأعداد العظمى في حسابات الاحتمال. ومعنى ذلك أن قانون الصدفة يسرى في المقادير الكبيرة، مثال ذلك: أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٩٥%. أعنى أن ٩٥ حالة تنجح من ١٠٠ حالة، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا أحد المستشفيات لإجراء هذه العملية، فإن الجرّاح يكون مطمئنًا إلى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة من هذه الحالات بنجاح، فإذا سألته: يا دكتور، ما نسبة احتمال النجاح في هذه العمليات؟ فإنه يجيبك ٩٥ في المائة، ويكون مطمئنًا لجوابه، ولكنك إذا سألته: يا دكتور، ما نسبة احتمال النجاح في العملية التي ستجريها لفلان؟ فإنه يصمت ولا يجيبك، لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية.

هذا المثال يوضح معنى قانون الصدفة في أنها تتصل بالمقادير الكبيرة، والكثرة العديدة. ويكون مفهوم سنة الصدفة وجه الاحتمال في الحدوث، ويكون السبب والنتيجة من حيث هما مظهران للصلة بين حادثتين في النطاق الخاضع لقانون العدد الأعظم الصدفي حالة إمكان محض. ومعنى هذا: أن السببية صلة إمكان بين شيئين يخضعان لقانون العدد الصدفي، فمثلا: لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة، أعني بنسبة ١ : ٣٦، ففي الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجيء الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية في شيء.

إذن يمكننا أن نقول: إن الصدفة التي تُخضع العالم لقانون عددها الأعظم، تعطي حالات إمكان، ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث، ينتظم بعضها مع بعض في وحدات، وتتداخل وتتناسق، ثم تنحل وتتباعد، لتعود من جديد لتنتظم... وهكذا، خاضعة في حركتها هذه لحالات الإمكان التي يُحددها قانون العدد الأعظم الصدفي، ومثل العالم في ذلك مثل مطبعه فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحركة والاصطدام، فتجتمع وتنتظم، ثم تتباعد وتنحل، هكذا في دورة لانهائية، فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) وكذا (القرآن) مجموعًا منضدًا مصححًا من نفسه، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التي وُضعت ستأخذ دورها في الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهائية، فإذا اعتبرنا (ح) رمزًا لحالة الاحتمال، و(ص) رمزًا للانهائية،كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات: ح: ص.

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابًا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة.

يقول ألبرت أينتشين صاحب نظرية النسبية[1]، في بحث قديم له:

---

(١) ألبرت أينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥م)، عالم في الفيزياء النظرية. ولد في ألمانيا، لأبوين يهوديين، وحصل على الجنسيتين السويسرية والأمريكية. اشتهر بأنه واضع النظرية النسبية الخاصة، والنظرية النسبية العامة الشهيرتين، اللتان حققتا له شهرة إعلامية منقطعة النظير بين جميع الفيزيائيين، حاز في العام ١٩٢١ على جائزة نوبل في الفيزياء. انظر عنه: «ملحق موسوعة الفلسفة»؛ لعبدالرحمن بدوي (ص ٤٢ - ٤٥)، وقال عنه: «في رأيي أن الشهرة الواسعة التي حظي بها أينشتاين لا ترجع إلى قيمة أبحاثه، بقدر ما ترجع - وبمقدار أكبر جدًا - إلى نشاطه الصهيوني، فقد جندت له وسائل الإعلام - =

مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيّم لا يعرف عنه شيئًا، فلما أخذ في مطالعته، وتدرج من ذلك لدرسه، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكري، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئًا غامضًا لا يصل لكنهه، هذه الشيء الغامض الذي عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير، عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقري أبدعه. كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئًا غامضًا لا تصل إلى إدراكه عقولنا، هذا الشيء هو «الله».

ويقول السير جيمس جينز الفلكي الانجليزي الشهير[1]:

إن صيغة المعادلة التي توحد الكون، هي الحد الذي تشترك فيه كل الموجودات. ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون، كانت لبابه.

ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التي تقع في الكون وتربطها في وحدة عقلية، فهذا التفسير والربط لا يُحمل إلا على أن طبيعة الأشياء رياضية، ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضي يُتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون، هذا العقل الرياضي الذي نلمس آثاره في الكون هو «الله».

وأنت ترى أن كليهما - والأول من أساطين الرياضيات في العالم، والثاني فلكي ورياضي من القدر الأول - عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة، والتي يتبع دستورها العالم، لا لشيء، إلا لتغلب فكرة

= بما يسودها من نفوذ يهودي - كل ما يمكن من أجل المبالغة في تمجيد أعماله العلمية، وتقديرها فوق قيمتها الحقيقية بآلاف المرات!». (س).

(١) السير جيمس جينز (١٨٧٧-١٩٤٦م)، فيزيائي وعالم فلك إنجليزي شهير. (س).

السبب والنتيجة عليهما.

الواقع أن أينشتين في مثاله انتهى إلى وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب، عبّر عنه بعقل صاحبه - مؤلفه -، والواقع أن هذه احتمال محض؛ لأنه يصح أن يكون خاضعًا لحالة أخرى، ونتيجة لغير العقل، ومثَلُنا عن المطبعة وحروفها، وإمكان خروج الكتب خضوعًا لقانون الصدفة الشامل؛ يوضح هذه الحالة.

أما ما يقول السير جيمس جينز، فرغم أنه أخطأ في اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء؛ لأن نجاح الوجهة الرياضية في ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها، لا يُحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية، بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء. فالأشياء هي الكائن الواقع، والرياضيات ربط ما هو واقع في نظام ذهني على قاعدة العلاقة والوحدة.

وبعبارة أخرى: إن الرياضيات نظام ما هو ممكن، والكون نظام ما هو واقع.

والواقع يتضمنه الممكن، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه.

ومن هنا يتضح أنه لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي نألفه، بل كل الغرابة في عدم انطباقها؛ لأن لكل كون رياضته المخصوصة، فكون من الأكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضروري لكونه كونًا. من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق أينشتين إلى التماس الناحية الرياضية في العالم، وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضي وراء هذا العالم، وهذا خطأ؛ لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعًا لنظام ما هو ممكن؛ فهو حالة احتمال من عدة حالات، والذي يُحدد احتماله قانون الصدفة الشامل، لا السبب الأول الشامل.

خاتمة

إن الصعوبة التي أرى الكثيرين يواجهونني بها حينما أدعوهم للنظر للعالم مستقلاً عن صلة السبب والنتيجة، وخاضعًا لقانون الصدفة الشامل تُرد إلى قسمين:

الأول: لأن مفهوم هذا الكلام رياضي صرف، ومن الصعب التعبير في غير أسلوبها الرياضي، وليس كل إنسان رياضي عنده القدرة على السير في البرهان الرياضي.

الثاني: أنها تعطي العالم مفهومًا جديدًا، وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة، غير التي ألفناها. ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها؛ لأنْ التغير الحادث أساسي، يتناول أسس التصور نفسه.

ولهذه الأسباب وحدها، كانت الصعوبة قائمة أمام هذه النظرة الجديدة، ومانعة الكثيرين الإيمانَ بها.

أما أنا شخصيًا؛ فلا أجد هذه الصعوبات إلا شكلية، والزمن وحده قادر على إزالتها، ومن هنا لا أجد بدًا من الثبات على عقيدتي العلمية، والدعوة لنظريتي القائمة على قانون الصدفة الشامل، الذي يُعتبر في الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله.

إسماعيل أحمد أدهم

لماذا أنا مؤمن؟

لأحمد زكي أبوشادي(١)

وجه إليّ بعض المفكرين رسالة نقدية عنوانها «لماذا أنا ملحد»، أخذ فيها الإسلام بجريرة بعض علمائه، والإسلام أسمى في جوهره من تصرفات شيوخه.

أفتراني في هذا الفصل أنصفت الإسلام من الشيوخ، وصفيت حسابه مع الملحدين؟

اتجاه إسلامي:

نشأتُ منذ حداثتي في كنف أسرة إسلامية عريقة، ووجدت من والدي محمد أبي شادي المحامي إماماً متفقهاً في الشريعة الإسلامية، وشاعراً متصوفًا، فحضرت عليه الكثير من الدروس الإسلامية، وكذلك على أستاذي الشيخ عبد القادر المغربي(٢)، عضو المجمع اللغوي بالقاهرة.

---

(١) نشرها في مجلة «الإمام»، بتاريخ سبتمبر ١٩٣٧ م، ثم أعاد نشرها ضمن كتابه «عظمة الإسلام». ويُلاحَظ أنه كرر فيها نفس الأفكار المنحرفة التي ذكرها في رسالته السابقة «عقيدة الألوهة»، مع استرسال في التعبير عن تذمره من علماء الأزهر الذين وقفوا حاجزًا بينه وبين حريته غير المنضبطة، بما استغرق معظم رسالته المخصصة للرد على الملحد إسماعيل أدهم! (س).

(٢) انظر ترجمته في «الأعلام»، (٤/ ٧٤). توفي عام ١٣٧٥هـ، وهو أحد تلاميذ مدرسة الأفغاني ومحمد عبده. انظر للمزيد عنه وعن أفكاره التحررية: «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير»؛ للدكتور فهد الرومي، (ص ٢٠٥ - ٢٠٨). قلت: وتأثر أبي شادي بأفكاره واضح في رسالتيه. (س).

كما انتفعت بصحبة الشيخ السيد محمد رشيد رضا[١]، والشيخ طاهر الجزائري[٢]، وغيرهم من أعلام المسلمين المستنيرين، إلى جانب انتفاعي بمكتبة والدي الزاخرة بالتصانيف الإسلامية.

وقد أقنعتني هذه الصحبة منذ حداثتي بعظمة الإسلام، وبأن فكرته الإسلامية فكرة إنسانية عظيمة، فعملت منذ شبابي على نصرة السيد محمد رشيد رضا في مدرسة الدعوة والإرشاد، بالقلم واللسان والمال، وكتبت لمجلة المنار في هذه الشؤون إبان إقامتي بانجلترا.

وها قد درجت السنون، وما زلت على عقيدتي التي أترجم عنها، بما أبذله من جهد لخدمة نقاء الإسلام، وإبراز أصوله الجميلة، وطرح الزيف والقشور الرثة المشوهة لجماله، مما أجملته في دراساتي الإسلامية التي يصطحب فيها العقل والعلم معاً، ساعين إلى هذا الهدف...

واجب المسلم:

ولقد أوجب الإسلام على كل مسلم أن يُبشر بحقائق الدين الإسلامي، لا فارق في ذلك بين حاكم ومحكوم، ولا بين موظف وغير موظف، ولا بين شعب وآخر من الشعوب الإسلامية.

ولهذا دفعني ضميري إلى إنشاء هذه البحوث الحرة، لاعتقادي أنها فريضة دينية، واجبها يُلزم كاتبًا مثلي حمل القلم جيلاً من الزمان، حينما كان كثيرون

---

(١) يُنظر لمعرفة تطوراته الفكرية: مقدمة رسالة «تعقبات الشيخ سليمان بن سحمان على بعض تعليقات محمد رشيد رضا على كتب أئمة الدعوة»، بتحقيقي. (س).

(٢) انظر ترجمته في «علماء الشام في القرن العشرين»؛ للشيخ محمد حامد الناصر (ص ٦٧ - ٨٤). توفي عام ١٣٣٨هـ، كان متأثرًا بالقومية العربية. (س).

من الشيوخ المشهورين في حكم النكرات.

وهو واجب أقدمه مرتاح الضمير، لا أبغي به إلا مرضاة الله ﷻ، وإن كان من المؤسف حقًا أن تدفع العنجهية أو الأنانية كثيرين من شيوخ المسلمين إلى العديد من التصرفات القاضية على مزايا الدين العظيمة، وأن يجاريهم في ذلك - بحكم مراكزهم - بعض من أُحسن الظن بهم من رجالات الإسلام.

مزايا الإسلام:

وأول ما نبدأ به هو إجمال مزايا الإسلام، وتركيزها على ثلاث ميزات عظيمة، من سكت على ضياعها فقد عاون على ضياع الإسلام... وهذه الميزات هي:

١- وراثته لحسنات الديانات السابقة، وقيامه على العقل والعلم.

٢- ديمقراطيته المتناهية الشاملة.

٣- تخليه عن نظام الكهنوت والقساوسة.

الإسلام وارث الديانات[1]:

أما عن وراثة الإسلام لحسنات الديانات السابقة، وقيامه على العلم والعقل، فقد تجليا في أنضر عصوره بمظهر التسامي الفكري، وتقدير الفلاسفة والعلماء والأدباء أيا كانت عقائدهم، وآراؤهم واجتهادهم، وبراءته من التعصب الديني.

وقد انقسم المسلمون الأولون إلى: نقليين، وعقليين، وهم أولئك الذين

---

(١) لأنها من مصدر واحد. والإسلام خاتمها، فلا يُقبل بعده دينٌ سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾. (س).

سايروا الحضارة وحملوا راية الثقافة، وطعّموا الإسلام بالعلم والفلسفة، ونبغ من بينهم أعظم رجال الاجتهاد، وعلى قدر ذلك التسامح، وحرية الفكر والاجتهاد، كانت تنمو عظمة الإسلام الروحية والفكرية، بل المادية أيضًا.

وقد كان المنتظر - ومصر ذات منزلة خاصة في العالم الإسلامي - أن يعي شيوخها دروس التاريخ، وأن يكونوا القدوة المثلى في تشجيع الحرية الفكرية والتسامح الديني، حيث يعيش الناس على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم متحابين، تربطهم الوحدة الوطنية أو الإنسانية بأوثق رباط[١].

لكن العكس ما حدث، فقد هرعنا لتدارك الأمر، والتنبيه إليه، فكان جزاؤنا أن اتُهمنا - زورا- بالطعن على الإسلام، كأن الشيوخ الأجلاء هم الإسلام مجسدًا، فكل نقد لهم انتقاص للإسلام ذاته.

ولقد كتبنا في الصحف والمجلات ومؤلفاتنا الخاصة، داعين إلى المعروف، ناهين عن المنكر، فلم نسمع أن أحداً شك في عقيدتنا، أو اتهمنا في ديننا من أجل ذلك، بل كنا مشجعين مشكورين من العقلاء المستنيرين.

لكن طغيان بعض الهيئات غير المسؤولة، البعيدة عن الدين، بإيعازها إلى عدد وافر من شيوخ الدين المحترمين - شجعت على مثل هذه المهاترات التي لم يسلم من أذاها حتى المفكرون من علماء الأزهر أنفسهم، فقد اضطُهد بعضهم، وأُحرقت تفاسيرهم القيمة للقرآن الكريم.

وعزاؤنا وعزاء هؤلاء العلماء الأحرار ما لقيه أحرار المفكرين في كل العصور

---

(١) المحبة والولاء تكون من المسلم للمسلمين، أما غيرهم فيتعامل معهم بالعدل والقسط. ولمعرفة أحكام الولاء والبراء في الإسلام، تُنظر رسالة: «الولاء و البراء في الإسلام»؛ للشيخ صالح بن فوزان الفوزان. (س).

من عسف واضطهاد، فقديمًا حورب ابن تيمية، وابن رشد، وابن حنبل، وغيرهم من أعلام المجتهدين، وإلى عهد قريب كان الاستدلال بآراء ابن تيمية وابن القيم وابن رشد يستوجب الملامة في الأزهر، وربما كان سبباً في الحرمان من شهادة العالمية، والاتهام بالزندقة والإلحاد.

وقد أرادت المقادير لأولئك الشيوخ أن يتحكموا في عقول الناس مهما عظمت ثقافتهم، كأنما كتاب الله قد نزل بلغة غير لغتنا العربية، وكأنما التحقيق التاريخي غير ميسور لنا، فهم يحرمون من المذاهب إلا ما وافق روحهم النقلية، وهم يكفرون كل مجتهد على ما له من علم وسعة إطلاع، متخيلين أنهم حكومة داخل حكومة، مع أنه لا دستورية مطلقًا لتجاوزهم حدودهم التعليمية الشرعية، وتدخلهم في شؤون الموظفين وعقائدهم ومذاهبهم، وفي الأداة الحكومية، بل إن في ذلك كل الخطر على النظام المدني للحكم، ولن يكون الحكم الديمقراطي إلا حبرًا على ورق إذا لم يستطع حماية عقائد الناس.

هذا إلى أنه قد فُرض على كل مسلم أن يدعو إلى الإسلام الصحيح الذي يؤمن به، وليس في قوانين الدولة ما يبيح مطلقا لأية سلطة أن تغل قلم المسلم الغيور على صلاح دينه عن الدعوة إلى الصلاح الذي يؤمن به، بحجة أن شيخ الأزهر أو غيره يطالب بذلك، ثم يقال بعد هذا إن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، دين الحرية والتسامح، وما أولى هؤلاء الناس أن يراجعوا القوانين العامة ليعرفوا أية مخالفة يقترفونها ضد الحريات الوجدانية التي كفلها القانون لجميع المواطنين على اختلاف طبقاتهم، وهي حرية الضمير، وحرية التدين، وحرية الرأي في الحدود المتعارف عليها، ولكنهم تعودوا المهاترات الدينية والسياسية، والتدخل الاستبدادي في العهود الاستبدادية، فعاد من الصعب إفهامهم حدود سلطانهم وحقوق الناس، وسيادة القانون.

ديمقراطية الإسلام[١]:

وأما ديمقراطية الإسلام فتنطق بها روائع القرآن الكريم، وسيرة محمد ﷺ، ومتابعة أصحابه الأجلاء من بعده، وهي ديمقراطية تقترن بالتقشف لخير المجموع، وتدعو شيوخه المتمسكين بقشوره أن يتعمقوا الجوهر، فلا يتهافتوا على الألقاب، ولا يكنزوا الأموال.

لقد بدأ الإسلام كما بدأت المسيحية بروحٍ ديمقراطية أضاعها النظام الكنسي الذي أعده نظامًا غريبًا على المسيحية، إذ لم يكن لها في الأصل بابوية ولا كهنوت، وهي في نشأتها إنسانية سمحة.

ولا نود - نحن المسلمين - أن يصيب الإسلام ما أصاب المسيحية من ضياع هذه الروح الديمقراطية، التي هي من أصول عظمته الحقيقية.

ومن أوليات هذه الديمقراطية أنها تسوي بين الناس جميعا أمام خالقهم، وتأبى التوسل حتى بالرسول ذاته[٢]. وتأبى أن توجد - بعد الرسل - واسطة بين الإنسان وبين الله تعالى.

فمن اللغو إذن، والقرآن الكريم هادينا، وهو منزَّل بلسان عربي مبين - أن

---

(١) هذا من تأثر أبي شادي بضغط الواقع، والأفكار المزخرفة التي ماج بها عصره، ومنها الديمقراطية. ولبيان المؤاخذات الشرعية والواقعية على الديمقراطية، تُنظر هذه الرسائل: «حقيقة الديموقراطية»؛ لمحمد شاكر الشريف، و«خمسون مفسدة جلية من مفاسد الديمقراطية»؛ للشيخ عبدالمجيد الريمي، و«جاهلية الديمقراطية»؛ لغازي عناية، و«الإسلاميون و سراب الديمقراطية»؛ لعبدالله سامي إبراهيم الدلال. (س).

(٢) يراجع: كتاب «التوسل والوسيلة» لابن تيمية. قلت: إحالة أبي شادي إلى كتاب شيخ الإسلام في هذا الموضع، غير مستغرب من أحد المتأثرين بالمدرسة العقلانية؛ لأنهم يوافقون السلفية في مسائل القبور - كما هو معلوم -. (س).

تتحكم طائفة من الناس في إيمان الناس وعقائدهم ومذاهبهم، كأنما هي وصية عليهم. أو أنها تفترض فيهم البلاهة والسذاجة والغفلة، أو تتصورهم أطفالاً لا يحسنون التفكير لأنفسهم.

والقوانين المصرية تنسجم مع المبادئ الإسلامية الرفيعة في احترام حرية العقائد، ولكن بعض الشيوخ لا يرضيهم هذا، إذ كل ما يشتهونه هو السلطة قبل كل اعتبار... السلطة الدينية رغم أنف الدين، والسلطة السياسية رغم أنف النظام الديمقراطي.

ومع احترامي ومحبتي وتقديري لكثيرين منهم، ومبادلتهم إياي هذا الشعور، إلا أن النزعة الاستبدادية إن فارقتهم في حياتهم العامة فلا تتخلى عنهم باعتبارهم رجال دين.

ولقد كنت أكرم في الشيخ المراغي[١] نزعته الحرة وصداقته الخالصة، ولكنه قد تجلى لي بطول الخبرة أن المراغي داخل الأزهر غيره خارج الأزهر، وأن مآل خطته إنما هو تحكيم الأزهر في الأمة، وقد لا يقنع أصحاب النزعة التحكمية بذلك، بل لا بد لهم من محاربة كل مفكر مستنير، ولو كان من أخلص خدام الإسلام، على اعتبار خاطيء هو أن الإسلام ومذاهبه احتكار خاص بهم، وكأنما كنت أنظر بعين الغيب حينما كتبت مقالي عن حرية الرأي وعقابها[٢]، وفسرت الحقوق الديمقراطية التي يجب أن يحميها الدستور، وإلا استحال الحكم الديمقراطي إلى مهزلة.

---

(١) محمد مصطفى المراغي، شيخ الأزهر، المتوفى عام (١٣٦٤هـ). كان من رجال مدرسة الأفغاني، ومن تلاميذ محمد عبده. انظر عنه: «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير»؛ للدكتور فهد الرومي (ص ١٨٨ - ١٩٣). (س).

(٢) كتاب «أصداء الحياة»؛ للمؤلف (ص ١٩٥).

ومما يُنسب للنبي ﷺ قوله: **«لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا»**(١).

لكن بين هؤلاء السادة من يتبرع في روح غير إسلامية ولا مدنية، بل في روح شريرة بالدس والكيد لكل من لا يشايعهم في مزاعمهم النقلية التي يأباها العقل والعلم، ولا يمكن أن ترضى بها المدنية الإنسانية، مع أن الروح الإسلامية تُحتم التسامح، وتعمد إلى الجدال بالحسنى واحترام آراء الغير، وإلا ساءت الأخلاق والآداب، وكان الدين مبعث تطاحن وشحناء، بدل أن يكون داعية هداية ووئام.

ولم ننس بعد أن هؤلاء، وأمثالهم، هم الذين أفتوا بجلد شاربي القهوة، وهم الذين كفروا محمد عبده(٢)، ورشيد رضا، وعلي عبد الرازق(٣)، ثم عادوا لاحتضانهم.

وبديهي أن هؤلاء الشيوخ يعملون ضد الروح الديمقراطية في كل شيء، وقد أخذوا يتعلقون بفكرة «إجماع المسلمين»، مستنكرين كل ما يخالف هذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٧)، وضعفه الألباني.

(٢) يُنظر لمعرفة فكره: رسالة «محمد عبده و آراؤه في العقيدة الإسلامية - عرض ونقد»؛ لحافظ الجعبري.

(٣) القاضي الشرعي! المتوفى عام (١٣٨٦هـ). مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، الذي تدور فكرته على عزل الإسلام عن الحكم والسياسة. وقد ردّ عليه كثير من علماء عصره؛ كالخضر حسين والطاهر بن عاشور وغيرهما، وتم فصله من سلك العلماء بسبب آرائه العلمانية الشاذة. انظر للمزيد عنه وكتابه: رسالتي «نظرات شرعية في فكر منحرف». (س).

الإجماع، وبعبارة أخرى إنهم يوصدون باب الاجتهاد إيصادًا تامًا، ويبشرون بالتحجر الفكري.

أليس من السخافة في هذا القرن أن يُنادى بمثل ذلك الجمود الذي تبرأ منه الإسلام منذ أول نشأته؟

إننا لو أخذنا بهذا المبدأ العجيب الذي ابتدعه الرجعيون لمصلحتهم وطبقناه في ميادين الثقافة، لانعدم العلم والأدب والفن، إذ لا فارق في الواقع بين الجمود والعدم، والحضارة الراهنة إنما تقوم على العلم التجريبي، لا على النقليات الخرافية، والدعاوى الوهمية.

وكل ذي ثقافة علمية يعرف أن لا بد له من مراجعة معارفه السابقة في ضوء كل كشف جديد.

ومن أمثلة الكيد الذي رُميت به ظلمًا: هذا الزعم الذي يقلب الحقائق رأسا على عقب، إذ يزعم هؤلاء أنني عدو للديمقراطية التي أعيش بها ولها، وأنني أطعن على دعاتها في ديواني: (الشعلة)، الذي صدر في عهد صدقي(١)، مع أن في هذا الديوان من السخط على الفاشية المصرية وعلى اليدْ الحديدية ما فيه، ولقد كنت القدوة في الشجاعة الأدبية حينما وجهت قصيدة عتاب إلى صدقي لتهجمه على الزعماء، بالرغم من الصداقة العائلية القديمة التي تربطني وإياه، والتي وضعتها في المحل الثاني بالنسبة لوطنيتي، ففقدت بذلك عطف صدقي وصداقته، بل أضعت على نفسي حقوقًا مكتسبة في عملي الرسمي من جراء ذلك، وتشبثت بمبادئي الديمقراطية إلى النهاية.

---

(١) إسماعيل صدقي، رئيس وزراء مصر في ذلك الحين. (ت ١٣٦٩هـ).
انظر ترجمته في «الأعلام» (١/ ٣١٥). (س).

ليست بحوثي الإسلامية الفلسفية إذن بالتي تعنيهم. وهم يعرفون جيدًا أني أكثر منهم غيرة على خدمة الإسلام - إن كانت لديهم غيره-، وإنما الذي يعنيهم ويخشونه أشد الخشية هو صراحتي وشجاعتي الأدبية في إبراز أصول الإسلام الحقيقية، وكلها سماحة ومنطق وديمقراطية، وفي صنيعي هذا ما يهدد سلطتهم المصطنعة، القائمة على التعمية وإلغاء العقل، والتزمير للعامة، فلا غرابة إذا لجئوا إلى الضوضاء الفارغة، والطعن الحقير، بدل مناقشة الآراء.

ومن السبل التي سلكوها للتجريح، الادعاء بأنني ملحد في تعابيري الشعرية، بما لم يقل به عاقل يعرف أن للشعر - سواء كان منظومًا أم حرًا - تعابيره الخيالية، ومجازاته الجامحة، وأن للشعر عالمه الخاص الذي لا يفهمه الفقهاء والحرفيون من اللغويين والفقهاء. وقد ضربوا مثالاً لذلك قصيدتي «محاكمة إله»[١].

مع أن الغرض من هذه القصيدة يتضح لكل من لديه ذرة من الإدراك الفني، والتذوق الأدبي، وهو تسفيه غرور الإنسانية، فليرجع إليها من شاء أن يرى كيف تقضي الأهواء بلوم من يستحق الثناء[٢].

وليس ذلك كل شيء، فلهم في كل يوم بدعة يبتدعونها للتنقص من أمثال هذا النقد المغرض، والتجريح والتشهير، بدل التشجيع والترحيب بالاجتهاد المثمر، ولو كانوا علماء حقًا لما اشتطوا هذا الشطط، ولرأوا كيف تُحترم المذاهب، وتناقش الآراء في الأمم، في أدب واحترام متبادل، وبغير ذلك تنعدم الروح الديمقراطية عمليًا، ولا يكون للتشدق بها أي معنى.

---

(١) ديوان «أطياف الربيع» (ص ٢٦).

(٢) وهذا ليس مسوغًا للشاعر أو الأديب استعمال مثل هذه العناوين الكفرية أو الموهمة لقصائده. (س).

ولنفرض جدلاً أنني مخطئ في اعتباري الزواج المدني، وتحريم تعدد الزوجات، مما يوحي به القرآن الكريم - وهو عمدتي الذي أركن إليه، وأستمد منه آرائي -، فهل الرد المعقول على ذلك هو مقارعة الحجة بالحجة، أو الشتم والكيد والإساءة؟ بالرغم من حقي الأدبي القانوني والديني المكفول لكل مصري: مسلمًا كان أو غير مسلم؟.

لو لم يكن للإسلام سوى ديمقراطيته العظيمة التي كان الرسول مَثلها الحي لكفاه ذلك فخرًا، فإن هذه الديمقراطية تتخذ من ناحية الفلسفة اللاهوتية صورة الإيمان بوحدة الوجود، وتتخذ من الناحية الاجتماعية صورة الحرية والإخاء والمساواة بأكمل معانيها، وكانت ديمقراطيته المالية مفتاحاً لسعادة الشعوب، وإنها لخير ألف مرة من كثير من النظم، إذ فيها وقاية للناس من الفاشية والبلشفية على السواء، وهذه الديمقراطية تتخذ من الوجهة السياسية صورة الحكم الدستوري الرشيد.

ومن الواجب علينا - نحن المسلمين - أن نتبين تمامًا أسباب عظمة الإسلام الذي هو دين عام للبشرية، وأن نبشر بها، وأن نعمل على إقصاء كل الشوائب التي تشوب لباب الدين الحنيف، حتى يكون مناطًا للإخاء والمحبة بين جميع المواطنين، بل بين أبناء الإنسانية جميعا. ولو استهدفنا بهذا الإصلاح للكثير من الشغب والتهم الجوفاء، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

لا كهانة في الإسلام:

وأما تخلي الإسلام عن نظام الكهنة، وتحكم القساوسة؛ فميزة عظمى، إذ بفضلها تفادينا ما جرى في يوجوسلافيا مثلاً من حكم الكنيسة على رجال

الحكومة بالحرمان، وعرقلة شؤون الدولة، ولكن يظهر أننا لم نتخلص من نظام الكهنوت جملة، إذ عزيز على الشيوخ أن يتخلوا عن سلطة يظنون الإسلام يميزهم بها عن سائر الناس، ويفترضون أنهم أوصياء على عباد الله، ولقد عز عليهم هٰذا الأمر، فحاولوا أن يضعوا أصبعهم في كثير من شؤون الحكم تحت ستار أن الإسلام دين الدولة.

ومن واجبنا أن نوضح للشعب ماهية الحكم الدستوري، الذي لا يتأكد إلا بوفاء الحكومة الدستورية الحقة لمصالحه الحقيقية.

وليس معنى أن الإسلام دين الدولة: اشتغال رجال الدين بالسياسة والحكم بطريقة إيجابية تعرقل أعمال الدولة، إذ لا مبرر للتوسع في تفسير هذا المبدأ على حساب النظام المدني، ومن الإثم اتخاذ الدين سلاحاً مسموماً لطعن الحكومات والأفراد كلما خافوا على سلطانهم المخترع، وللتفريق بين جسم الأمة المتحدة.

والإسلام لا يعرف سلطة روحية، وليس بعد الرسول وساطة بين الله والناس، فلا معنى إذن للاحتجاج في هذا الشأن بما نص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الإسلام، أو بمكانة مصر من الأمم الإسلامية، بل إن هذه المكانة نفسها تستلزم أن ننزه الدين عن إقحامه فيما ليس من مسائل الدين(١)، وليس أحرص منا على احترام الإسلام وتنزيه الإسلام؛ كما أننا حِراص على التزام القانون العام.

لكن شيوخنا الأجلاء يعملون بأنانيتهم للقضاء على مزايا الإسلام العظمى، وإن تظاهروا بالغيرة على الدين الحنيف.

---

(١) بل الإسلام يُهيمن على جميع جوانب حياة المسلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾. (س).

ولقد حوربتُ منهم حرباً شعواء، وأنا أدافع عن وجهة نظري الديمقراطية التي اعتنقتها، والتي اعتنقتها من قبلُ أسرتي العريقة في الوطنية، والتي برزت وطنيتها وحرصها على نهضة الوطن وحكمه بواسطة أبنائه حكما ديمقراطياً سليماً منذ الثورة العرابية، إن لم أقل قبلها بأمد طويل.

فهل كان ما أصابني من حرب سافرة وأضرار مادية وأدبية من رجال الدين.. هل كان ذلك دافعاً إلى مؤاخذة الدين نفسه على سوء تصرف شيوخه؟ كلا... ثم كلا. فإن الدين مستقل في جوهره الصافي عن أفكار من يسدون المنافذ، ويكادون يخنقونه بحجة المحافظة عليه من التيارات الإلحادية فيما يزعمون.

إذن؛ فليس للدكتور إسماعيل أدهم أن يذكرني بالإساءات المتكررة، والإجحاف البالغ، والأضرار التي أصابتني، على اعتبار أن تلك من جنايات الإسلام ذاته، وأن من المنطق أن أعود ساخطاً عليه، فمعاذ الله أن أفعل ذلك، إذ روح الإسلام بريئة من ذلك، ومن عبث هؤلاء المسيئين.

الدين والحريات العامة:

إن القوانين تبيح حرية الرأي وحرية العقائد، كما تبيح التعبير عنها في صراحة، ما دام ذلك التعبير لا ينافي الآداب، ولا يثير الفتن[١].

ولا تؤاخذ مؤلفاً أو صاحب رأى إلا أن ينشأ من كتابته أو إذاعة آرائه فتنة بالفعل، ولا قيمة - عند القوانين - لمجرد افتراض جواز ذلك، كما لا قيمة للدساتير إن لم تكفل الحريات العامة، ومنها حرية الرأي.

وحرية القيام بشعائر الأديان والعقائد تحميها القوانين المصرية طبقًا للعادات

---

(١) سبق أن الإسلام لا يُبيح نشر الكفر وغيره من الانحرافات. (س).

المرعية، على ألا يخل ذلك بالنظام العام، ولا ينافي الآداب، والقوانين تنص على أن المصريين لدى القانون سواء في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين.

وهذا متفق تمامًا مع النزعة الإنسانية للإسلام، وليست المادة التي تنص على أن الإسلام دين الدولة بالتي تعني تقرير أكثر من المظاهر الرسمية، فهي لا تتعارض مع حقوق الأخوة الوطنية[1]، ولا تقف بحال ضد حرية العقيدة والفكر، ومن يريدون غير ذلك فإنما يعملون لخدمة صوالحهم دون خدمة الإسلام، الذي أعتقد أن خدمته الحقة إنما هي في الابتعاد به عن مزالق السياسة، وإنزاله منزلة القداسة الدينية فحسب.

وحاشا للإسلام أن يعمل على تمزيق القومية بدل تكميلها، أو على غمط الحقوق الفردية باسم الدين، أو على مقاومة حرية التطور، وهو الذي يسع كل جديد من الآراء العلمية، فكل هذا التقييد من عبث الفقهاء المغرضين، ولا شأن له بالإسلام الصحيح الذي يعنينا وحده.

ومن هذا نرى أن الروح الإسلامية - روح الاختيار المطلق، والحرية التامة في العقيدة والفكر، والتسامح مع المخالفين - متفقة تمامًا مع روح الدساتير الحديثة.

وإذا لم نلاحظ هذه النواحي الملاحظة الواجبة، فليس الذنب في ذلك واقعًا على الدستور ولا على الإسلام، وإنما يقع على تهاون المصريين أنفسهم، في

---

(١) سبق أن الأخوة والمحبة تكون بين المسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أما غيرهم من المسالمين ونحوهم فيُتعامل معهم بالعدل. (س).

مبلغ الحرص على حقوقهم الفردية، ولذلك عواقب خطيرة.

وإزاء هذه الحقيقة لا يوجد ما يمنع مصرياً من نشر آرائه وعقيدته كيفما كانت، وأيًا كان نوعها، ما دام لا يخل بالنظام العام، ولا ينافي الآداب.

ولا يحق لأية سلطة دينية أو مدنية أو نيابية خلق تكأة وهمية من ذلك، فالإخلال بالنظام ومنافاة الآداب يجب وقوعهما قبل توجيه أي اتهام.

وأنا نصير المنبر الحر في غير تحفظ، سوى الترفع عن القذف وما إليه، وقد سبق أن نشرت مجلة (أبولو) نقدًا شديدًا، بل قبيحًا، موجهًا إليّ، ثم رددت عليه بعد ذلك، وكل هذا كان حرصًا مني على حرية الفكر، ولو أسيء استعمالها ضدي.

وما أبيحه في الأدب أبيحه في الدين والعلم، وفي كل مجال للفكر الإنساني، وإن هذا السلوك ليتفق مع روح الإسلام، بما يتفق مع الديموقراطية الحديثة.

إننا لنتألم أشد الألم حين تُمس الحريات العامة، ومع ذلك يوجد بين من يبكون على الحريات العامة من يدفعهم التعصب أو سواه إلى الاستهانة بحرية العقيدة والفكر، مع أنه لا قيمة للاستقلال ولا لديمقراطية الحكم إذا اقترنا بامتهان الفكر الإنساني، ومن كانت له مثل هذه العقلية الرجعية الجامدة، أو هذا البله الفكري، فهو أبعد من أن يؤتمن على الحياة النيابية السليمة، وإنما هي بريئة منه.

وليس معنى إسلامية الدولة تدخل رجال الدين في عرقلة مسيرة الحياة الفكرية، وتعويق قافلة حرية الرأي والعقيدة، إذ من واجبنا دائمًا احترام عقائد

الغير كيفما كانت[١]، ما دامت لا تمس الأخلاق والآداب العامة كما سبق.

والإسلام السمح الذي احتمل إلحاد المعري وسواه منذ عشرة قرون أو تزيد[٢] - أولى به أن يحتمل جميع التعاليم الفلسفية الحديثة، ويجادلها بالتي هي أحسن، على طريقته السمحة الغلابة، والبقاء بعد ذلك للأصلح دائمًا.

لكن الأزهر - وكان يجب أن يكون موئل الدين الحق - يؤسفنا أنه عاد عشًا للرجعية والجمود، وقد ضج المصلحون بالشكوى منه، ولكن المهيمنين على أمره ما زالوا مستعدين للاستماع لكل دسيسة، ومحاربة المفكرين بشتى

---

(١) الإسلام لا «يحترم» العقائد المنحرفة، ولا يعني إقرار أهلها بالشروط المعلومة: احترام كفرهم وانحرافهم. وللفائدة: قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في تعقيبه على أحد الكتاب: «أما قول الكاتب: (وإننا نحترم جميع الأديان السماوية) فهذا حق، ولكن ينبغي أن يعلم القارئ أن الأديان السماوية قد دخلها من التحريف والتغيير ما لا يحصيه إلا الله سبحانه، ما عدا دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه وخليله وخيرته من خلقه نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبدالله ﷺ، فقد حماه الله وحفظه من التغيير والتبديل، وذلك بحفظه لكتابه العزيز وسنة رسوله الأمين عليه من ربه عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾. فقد حفظ الله الدين وصانه من مكايد الأعداء بجهابذة نقاد أمناء ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وكذب المفترين، وتأويل الجاهلين. فلا يقدم أحد على تغيير أو تبديل إلا فضحه الله وأبطل كيده. أما الأديان الأخرى فلم يضمن حفظها سبحانه، بل استحفظ عليها بعض عباده، فلم يستطيعوا حفظها؛ فدخلها من التغيير والتحريف ما الله به عليم...». «مجموع فتاواه»، (٢/ ١٨٣-١٨٤). (س).

(٢) هذا غير صحيح. ولايعني وجود أهل الانحراف في الدولة المسلمة أن الإسلام يحتمل إلحادهم أو انحرافهم! ولو اعتمدنا هذا الفهم الخاطئ: لأقررنا جميع الانحرافات والمنكرات التي مورست في الدول الإسلامية. والمعري رد كثير من العلماء على انحرافاته، ولم يُقروه عليها. يُنظر: رسالة «مشاهير في ميزان العلماء» لكاتب هذه الأسطر. (س).

الأساليب التي يبرأ منها الإسلام، ومنها الكيد لذوي الآراء من وراء ستار، ومحاربة الموظفين في أرزاقهم بتهمة الطعن على الدين، لأن الدولة قد عودتهم ألا تردهم خائبين كلما أوعزوا سرًا، أو اتهموا أي موظف في دينه بلا دليل، وهذه حالة من الفساد لا تطاق، فقد كانت تخنق حرية الفكر، كما كادت تقضي على الأخلاق الإسلامية نفسها.

الأدب والدين:

يصح أن نعتبر تسعة أعشار الأدب العالمي الحديث أدبًا لا دينيًا، ولكن هذا لا ينهض عذرًا لإغفاله، وإلا أصبحت لغتنا من أفقر اللغات في الثقافة الحديثة[١]، فإن آراء ويلز، وألدوس هكسلي، وبرنارد شو، وجو دفري، وهالدين، وفريزر، وأضرابهم، ليست مما يستهان به، ولا يجوز أن تخلو منه مكتبة راقية.

أجل! ومن أوجب الواجبات علينا نقل هذا الأدب إلى لغتنا، لأنه رمز العصر الذي نعيش فيه، وما على رجال الدين الأعلام إلا الرد على الشبهات التي لا ترضيهم منه[٢]، وعلى هذا فليس لنا أن نخاف مما يوصف بالأدب الإلحادي، فإنما يخاف العجزة الذين لا يستطيعون الرد عليه، وإنما علينا أن نقارع الحجة بالحجة في أدب واتزان وكرامة وتعفف، فإن الدين وحرية الفكر يستفيدان من ذلك، في حين لا يستفيدان من الحجر الذي يدعو إليه الضعفاء في تشنج وهستيريا عجيبة، لا ترعى حرمة لأحد... ولم أنس - بعد - ما وُجه من بذيء

---

(١) هذا ليس عذرًا في السكوت أو قبول الانحرافات الأدبية. (س).

(٢) هذا ليس بصواب - كما سبق -، بل الإسلام يمنع التمكين للمحرمات الفكرية والسلوكية. (س).

المهاترات لمجرد انتصاري لحرية الفكر التي أعدها من العناصر الأصيلة في المبادئ الإسلامية، ومن أسرار عظمته وقوة غلبته، والتي اتخذتها الديمقراطيات الحديثة أساسًا متينًا لحياتها وبقائها، وقد أشاد بذلك صديقنا الأستاذ محمد خالد[١] عندما زار هايد بارك في لندن، ورأى أهل العقائد والمذاهب المختلفة من دينية، وسياسية، واقتصادية، وأدبية، يبشرون جنبًا إلى جنب بتعاليمهم في حرية تامة، دون أن يعتدي عليهم أحد، وهكذا يطبقون تعاليم الديمقراطية تطبيقًا صحيحًا، في حين نحاربها نحن وهي من صميم الإسلام الصحيح.

وليراجع من شاء ما كتبه الإمام «محمد عبده» في كتابه «الإسلام والنصرانية» في معنى ذلك، وفي جناية الجمود على النظام الاجتماعي.

وإنني - إذ أدعو إلى حرية الكتابة والنشر - لست راضياً - بحال- عن كل ما ينشر على إطلاقه[٢]، ولكني أحترم حرية العقيدة، وأرفض الحجر عليها، كما أرفض أن يُباح هذا الأدب العالمي بلغاته الأصلية لعارفيها، ويُحرم من الاطلاع على ترجمتها العربية غيرهم، ولو كانوا أكبر سناً، وأنضج تفكيراً. وأقوى عقيدة من الأولين.

إيماني بالله:

يوحي علم مقارنة الأديان بأن الإيمان بالآلهة - أو بالله - مرجعه - في كثير من الأحوال - إلى الوراثة الإنسانية في قرون مديدة من الإنسان البدائي الذي

---

(١) الصحفي المعروف صاحب جريدة الدستور ومحرر باب «مصريات».

(٢) مادمتَ غير راضٍ عنه، فلماذا تدعو للتمكين له! أو أنك انسقتَ مع ضغط واقعك، وحرياته الوهمية غير المنضبطة بضوابط الشرع؟ (س).

كان يرهب الطبيعة أشد الرهبة، لجهله بقوانينها ونواحيها.

وقد تدبرت ذلك طويلاً، كما درست نظريات وتجارب شتى لطائفة من رجال الفلسفة والتاريخ والدين والعلم، فانتهيت إلى نظريتي التي حبذها دكتور ريتشارد بل، الأستاذ بجامعة أدنبره، وهي أن الإحساس بالألوهية إحساس فطري شبه غريزي، وهو انجذاب الجزء نحو الكل، وقد أشار الدكتور أدهم إلى ذلك في دراسته لحياتي، وفي سواها من كتاباته النقدية.

وهذا الإحساس له قِوام علمي، من حيث إننا ذرات كهربائية في كون مكهرب من أوله إلى آخره، فالتجاوب بين أجزائه مستمر بصور شتى، ولكن يشملها جميعاً شعور التوحد، وهذا الشعور الصوفي هو أساس عقيدة الألوهية[(١)].

وليس لنا أن نجاري العامة أو جمهرة الناس مع أوهامهم في تصور الله ﷻ، فإن العلم وحده هو الذي يهدي الوجدان في ذلك. والإسلام في أسمى معانيه لا يقوم إلا على العقل والعلم، فمحال - إذن - فهم معنى الألوهية عن طريق الجهل والخرافات، والمقصود بالفهم تفسير شعورنا الوجداني السالف الذكر.

لنأخذ على سبيل المثال ما يتعلمه التلاميذ في المدارس، فقد قرأت لمؤلفَين فاضلَين هذه السطور: «إذا نظرنا إلى الملابس التي نلبسها، والمساكن التي نسكنها، وجميع الأدوات التي نستعملها، وجدنا أن لها صناعاً صنعوها على الأشكال التي نراها بها. كذلك السموات، والأرض، والكواكب، والأنهار، والهواء، والماء، وجميع المخلوقات، لم توجد بطبيعتها، بل لا بد لها من موجد أوجدها، وجعلها بهذا النظام البديع، وصانعها لا بد أن يكون قادرًا، هو الله ﷻ»[(٢)].

---

(١) سبق الرد على فكرة «وحدة الوجود» المنحرفة، التي تورط فيها أبوشادي. (س).
(٢) التعليم الديني للأطفال (٣/ ٤)، تأليف حسن توفيق وعطية محمد.

وهذا تعريف تقليدي خاطىء[1]، يرجع إلى التفسير الحرفي بدل التفسير الرمزي للآيات القرآنية الشريفة، فالثابت- علمياً - أن العالم كائن دوري، وأنه أزلي في مادته لا في صوره، وليس ثمة شيء كائن من العدم، ولا يليق بقدر الله سبحانه أن يُقال عنه - جل شأنه - ما يُشعر بأنه أخذ يفكر، ثم خلق العالم من لا شيء، إذ معنى هذا أنه مضى عليه وقت كان وحيدًا مترددًا في خلق العالم - حسب تصور إخواننا النقليين[2].

والأليق أن نلجأ إلى التفسير العلمي للألوهة، وقد تقدمت بتفسير لقى ارتياحًا عند كثير من المفكرين، وهو - في الوقت الذي يتمشى فيه مع أزلية الكون - يحتضن الآية الكريمة: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، كما يتفق مع الآية الشريفة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

ولو أن ناشئتنا لقنوا أنه لا يوجد أمامهم شيء يستطيع الاستقلال التام بذاته، وأننا جميعًا أجزاء من شيء أكبر، وأن مجموع الوجود هو الرمز المشهود للألوهية المنظمة الحكيمة حسب سنن دقيقة خالدة؛ وأننا بفطرتنا نشعر بالحنين

---

(١) بل هو تعريف صحيح. ولكنه يُعبر عن توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله هو سبحانه؛ كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، ونحوها. وهو غير كافٍ لوحده، بل لابد معه من تحقيق توحيد الألوهية، وهو توحيد الله بأفعال العباد؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والخشية، والرهبة، والخوف، والمحبة، والرجاء، وغيرها من أنواع العبادات. بأن تُصرف جميعها لله وحده لا شريك له. وأبوشادي مضطرب في هذا الباب، يتحدث عن الربوبية باسم الألوهية! ثم يصرفه لوحدة الوجود! (س).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ردًا على هذا الزعم: «وقد عُلم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شيء، وأنه خلق كذا، إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق وأحدثه بعد أن لم يكن، كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، والعقول الصريحة توافق ذلك..». «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٦). (س).

والابتهال إليها، لاطمئناننا إلى العدل الإلهي الدائم، سواء أكان سريعًا أم بطيئًا - مباشرًا أم غير مباشر، وأننا ذرات كهربائية صغيرة من هذه الكهربائية العظمى المسيطرة؛ لفهموا ماديًا، وبأسلوب صادق، معنى الألوهية، بما يتفق وروح الإسلام المتجلية في مثل الآيتين الشريفتين، بدل التعلق بمعانٍ آدمية تعالى الله عنها[١].

قانون الاحتمال والإلحاد:

ليس بعيدًا أن الدكتور أدهم يشعر في ذاته بهذا الشعور، ولكنه يدع هذا جانبًا، ويتشبث بنقض الأوهام الشائعة، وإزاءها يؤثر أن يسمى نفسه ملحداً على أن يكون مؤمناً غير معقول ولا عاقل، وقد تناول هذا الموضوع تناولاً طريفًا فلجأ إلى الرياضيات واتخذ من قانون الاحتمال سنداً له، إذ قال: «إن العالم الخارجي - عالم الحادثات - يخضع لقوانين الاحتمال، فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التي يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من الحوادث، والسببية العلمية لا تخرج في صميمها عن أنها وصف لمجرى سلوك الحوادث وصلاتها بعضها ببعض. . . ومن البدهي أن العلاقة بين ما نطلق عليه اصطلاح السبب، وبين ما نطلق عليه اصطلاح النتيجة، يخضع لسنن الاحتمال المحضة، التي هي أساس الفكر العلمي الحديث.

ونحن نعرف أن قرارة النظر الفيزيقي الحديث هي الوجهة الاحتمالية المحضة، وليس لي أن أطيل في هذه النقطة، وإنما أحيل القارئ إلى مذكرتي العلمية لمعهد الطبيعيات الألماني المرسلة في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤م، والتي

---

(١) هذا من تخبطات أبي شادي، واعتناقه لفكرة «وحدة الوجود» الصوفية، التي حرّف لأجلها مفهوم التوحيد الذي يعرفه المسلمون. (س).

تُليت في اجتماع ١٧ سبتمبر المذكور، ونُشرت في أعمال المعهد لشهر أكتوبر التالي عن «المادة وبناؤها الكهربائي»، وقد لخصت جانبا من مقدمتها بجريدة البصير، فإذا كان كل ما في العالم يخضع لقانون الاحتمال، فإني أمضي بهذا الرأي إلى نهايته، وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة.

ولكن ما معنى الصدفة والتصادف؟

يقول هنري بوانكاريه في صدد كلامه عن الصدفة والتصادف: «إن الصدفة تخفي جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب».

والواقع أن العلماء يتفقون مع بوانكاريه في اعتقاده منذ تفتح العقل الإنساني، غير أني من وجهة رياضية، أجد للصدفة معنى أخر. . . هذا المعنى لا تؤاتيني الألفاظ العادية للتعبير عنه، لأن هذه الألفاظ ارتبطت بمفهوم السبب والنتيجة. . . ولو فرضنا أن لاعب النرد مثلاً ألقى زهر النرد عدداً من المرات يساوي ٣٦ مرة، فاحتمال مجيء الدش لا يجاوز مرة واحدة. وإذن فالنسبة الاحتمالية تساوي ١ : ٣٦، فلو أتى الدش مرة من ٣٦ مرة لما عد ذلك غريبًا، لأنه محتمل الوقوع.

وقانون الصدفة يسري في المقادير الكبيرة، مثال ذلك أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٩٥٪ ، أعني أن ٩٥ حالة تنجح من كل مائة، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا أحد المستشفيات لإجراء هذه العملية، فإن الجرّاح يكون مطمئنًا إلى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة من هذه الحالات بنجاح، فإذا سألته: ما نسبة احتمال النجاح في هذه العمليات؟ فإنه يجيبك ٩٥٪ وهو مطمئن لجوابه، ولكنك إذا سألته: ما نسبة احتمال النجاح في العملية التي ستجريها لفلان؟ فإنه يصمت، ولا يجيبك، لأنه سيعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية.

هذا المثال يوضح معنى قانون الصدفة في أنها تتصل بالمقادير الكبيرة والكثرة العددية، ويكون مفهوم سُنة الصدفة وجه الاحتمال في الحدوث، ويكون السبب والنتيجة - من حيث هما مظهران للصلة بين حادثتين في النطاق الخاضع لقانون العدد الأعظم الصدفي - حالة إمكان محض.

ومعنى هذا أن السببية صلة إمكان بين شيئين يخضعان لقانون العدد الأعظم الصدفي، فمثلاً: لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من **٣٦** مرة - أعني بنسبة ١ : ٣٦ - فنحن في الواقع نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجيء الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية في شيء.

وإذن يمكننا أن نقول: إن الصدفة التي تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطي حالات إمكان. ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض في وحدات تتداخل وتتناسق، ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد فتنتظم وهكذا.. خاضعة في حركتها لحالات الإمكان التي يحددها قانون العدد الأعظم الصدفي، ومثل العالم - في ذلك - مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه في الحركة والاصطدام تجتمع وتنتظم، ثم تتباعد وتنحل... هكذا في دورة لا نهائية، فلا شك أنها في دورة من هذه الدورات اللا نهائية لا بد أن يخرج هذا الفصل الذي كتبته الآن، كما أنه في دورة أخرى من الدورات اللا نهائية لا بد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع»، وكذا «القرآن» مجموعًا منضدًا مصححًا من تلقاء نفسه، ويمكننا - إذن - أن نتصور أن جميع المؤلفات التي وُضعت ستأخذ دورها في الظهور، خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللا نهائية، فإذا اعتبرنا (ح) رمزاً لحالة الاحتمال، و (ص) رمزاً للا نهائية، كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات هي: ح ص.

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتاباً من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده،

إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة. يقول «آلبرت أينشتين» صاحب نظرية النسبية في بحث قديم له: «مثلنا - إزاء العالم - مثل رجل أتي بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئًا، فلما أخذ في مطالعته، وتدرج من ذلك لدرسه، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكري، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئًا غامضًا لا يصل إلى كنهه، هذا الشيء الغامض الذي عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير، عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنساني عبقري أبدعه. . .كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئًا غامضًا لا تصل إلى إدراكه عقولنا. هذا الشيء هو. . . الله».

ويقول السير «جيمس جينز» الفلكي الإنجليزي المشهور: «إن صيغة المعادلة التي توحد الكون هي الحد الذي تشترك فيه كل الموجودات، ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون، كانت لبابه، ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التي تقع في الكون وتربطها في وحدة عقلية، فهذا التفسير والربط لا يُحمل إلا على أن طبيعة الأشياء رياضية، ومن أجل ذلك لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضي يتقن لغة الرياضة، يرجع له هذا الكون، هذا العقل الرياضي الذي نلمس آثاره في الكون هو. . . الله».

وأنت ترى أن كليهما - والأول من أساطين الرياضيات في العالم، والثاني فلكي من القدر الأول - عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة التي يتبع دستورها العالم، لا لشيء إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما.

الواقع أن أينشتين في مثاله انتهى إلى وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب، عبر عنه بعقل مؤلفه. والواقع أن هذا احتمال محض، لأنه يصح أن يكون خاضعا لحالة أخرى، ونتيجة لغير العقل. ومثلنا عن المطبعة وحروفها، وإمكان

خروج الكتاب - خضوعاً لقانون الصدفة الشامل - يوضح هذه الحالة.

أما قول السير جيمس جينز، فرغم أنه أخطأ في اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء. فإن نجاح الوجهة الرياضية في ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يُحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية، بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء، فالأشياء هي الكائن الواقع، والرياضيات ربط ما هو واقع في نظام ذهني على قاعدة العلاقة والوحدة، وبعبارة أخرى: إن الرياضيات نظام ما هو ممكن، والكون نظام ما هو واقع، والواقع يتضمنه الممكن، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه.

ومن هنا يتضح أن لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي تألفه، بل الغرابة كل الغرابة في عدم انطباقها، لأن لكل كون رياضياته المخصوصة، فكون من الأكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضروري لاعتباره كونًا.

ويتضح كذلك أن السير جينز انساق مع فكرة السبب والنتيجة، كما انساق أينشتين إلى التماس الناحية الرياضية في العالم، وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضي وراء العالم. وهذا خطأ، لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعًا لنظام ما هو ممكن، فهو حالة احتمال من عدة حالات، والذي يحدد احتمال قانون الصدفة الشامل. إن الصعوبة التي أرى الكثيرين يواجهونني بها حينما أدعوهم إلى النظر للعالم مستقلاً عن صلة السبب والنتيجة، وخاضعاً لقانون الصدفة - ترد إلى قسمين:

الأول: أن مفهوم الكلام رياضي صرف، ومن الصعب التعبير عنه في غير أسلوبه الرياضي، وليس كل إنسان رياضي عنده القدرة على السير في البرهان الرياضي.

الثاني: أن الاحتمالات تعطي العالم مفهوماً جديداً، وتجعلنا ننظر إليه نظرة

جديدة غير ألتي ألفناها، ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها، لأن التغيير الحادث أساسي يتناول أسس التصور نفسه. ولهذه الأسباب وحدها كانت الصعوبة قائمة أمام هذه النظرية الجديدة، ومانعة الكثيرين من الإيمان بها.

أما أنا - شخصياً- فلا أجد هذه الصعوبات إلا شكلية، والزمن وحده قادر على إزالتها، ومن هنا لا أجد بدًا من الثبات على عقيدتي العلمية، والدعوة إلى نظريتي القائمة على قانون الصدفة الشامل، الذي يعتبر - في الوقت نفسه - أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله».. انتهى كلام الدكتور أدهم[١].

ومع أنني اقتبست اقتباسًا وافيًا من ملاحظات الدكتور أدهم من باب الإنصاف له، فإني لا أرى أن نقضها من الوجهة الإنسانية يحتاج إلى بيان طويل، إذ بديهي أن قانون الاحتمال إذا طُبق تطبيقاً لا نهائياً، فإنه لا يعدو حد النظريات المسرفة؛ إذ أن تنضيد القرآن الكريم من تلقاء ذاته - كما يقول الناقد - أمر نظري محض، هو في حكم المستحيل عملياً بالنسبة للإنسان، لأنه مما يدخل في حسابات البلايين البعيدة التحقق، مثال ذلك: أن العالم متناه في حساب أينشتين، ولكنه - عمليًا- غير متناه، لاستحالة الإلمام الإنساني به حسياً.

وكذلك الافتراض الذي يفترضه، لا يذهب بمنزلة القرآن الكريم، أو أي كتاب مقدس، إذ من السهل أن يجيبه أي مسلم بأن قانون الاحتمال في ذاته إنما هو من السنن الإلهية، فلو نشأ القرآن أو الكتاب المقدس بموجب هذا القانون، لما تعدى أن يكون وحيًا إلهيًا بوسيلة طبيعية[٢].

---

(١) ساق أبوشادي هذا النقل الطويل من رسالة أدهم، ولم يرد عليه ردًا شافيًا! وأنى لمن اعتنق عقيدة «وحدة الوجود» أن يرد على ملحد، فهما - في الحقيقة - سواء. (س).

(٢) افتراض مستحيل؛ لأن القرآن كلام الله حقيقة. (س).

وليس لسيطرة قانون الاحتمال على العالم ما يعني وجود الفوضى فيه، إذ أن اتساع تطبيقه اتساعاً هائلاً، يؤدي - حتما - إلى نظم معينة، وهو المشهور عمليًا في الوجود كما يثبت ذلك علم الفلك.

ثم إن قانون الاحتمال يحتاج في تطبيقه إلى عوامل، وهذا ما أغفله الدكتور أدهم، فظهور القرآن الكريم في تواريخ معينة، لأسباب معينة، في صور عقلية معينة - عوامل تؤثر في قانون الاحتمال، ولا تتأثر به، بمعنى أنها تُخضعه أو تتفاداه في الزمن والتكييف، مع أنه لو كان جارياً نظرياً على حسب رأيه، لجاز ألا يظهر الكتاب الكريم إلا بعد ملايين السنين المقبلة، وكل نظري محض قائم على فروض حسابية لا تقع عمليًا، هو في حكم اللغو أو السفسطة المنطقية بالنسبة للإنسان، حتى ولو كان صواباً من الوجهة الرياضية الكونية. إذ أنه محال في عالم الواقع المحسوس بالنسبة للكرة الأرضية، وهذا ما يخص الدين.

وعلى هذا نرى أن الدكتور أدهم لم ينقض - بذكائه، وتحليله، ومعارفه الرياضية - شيئًا من عقيدة الألوهة، كما لم يستطع المساس بالإسلام ذاته كدين إنساني لهداية البشر، وتنظيم حياتهم.

خلاصة:

يبني الدكتور أدهم إلحاده المزعوم على أن قانون الاحتمال هو السائد في هذا الكون، وإذن فكل أثر فيه - حتى القرآن الكريم - عرضة لأن يكون أثرًا من آثار هذا القانون العام، وبهذا تنتفي قدسيته، كما ينتفي وجود قوة مدبرة حكيمة هي قوة الألوهة.

وهذه جرأة في استغلال قانون الاحتمال، يتهيبها أخبر الناس به دون استثناء شركات التأمين.

ورأيي - أولاً- أن عقيدة الألوهة قائمة على الإحساس الجذبي من الجزء نحو الكل، فهي ذات أساس علمي صادق، كما أنها في حكم الغريزة النفسية، وأعتقد أن الدكتور أدهم نفسه راضخ لهذا الإحساس، وإن لم يعجبه تفاسير عامة الناس للألوهة، فإني لم أرَ في حياتي ملحداً بالمعنى الشائع، حتى من يدّعون ذلك نجد أن لهم إيمانهم الخاص(١).

أما قانون الاحتمال؛ فهو عندما يتناول الملايين والبلايين، وما هو في حكم اللا نهائي، تصبح نظرياته لغواً عملياً بالنسبة لعمر الإنسانية.

مثال ذلك: أن الكون محدود حسب تقدير أينشتين، ولكنه غير محدود من الوجهة العملية؛ لاستحالة إحاطة الإنسان به حسياً، وكذلك القرآن الكريم أو الكتاب المقدس أو غيرهما، من الأسفار الدينية الخالدة، فإنها لا يمكن أن تخرج من تلقاء ذاتها دون تفكير عظيم، كما قدمنا.

وعلى هذا لا ينقض الحساب الرياضي الذي أشار إليه الدكتور أدهم شيئًا من مكانة هذه العقيدة الحقة.

ذلك بالإضافة إلى أن قانون الاحتمال هو الآخر ناموس من النواميس الطبيعية المعتبرة أصلاً من أصول التكييف الوجودي تكييفا منظماً، لا تكييفاً يستند على الفوضى، واتساع مداه يمنحه هذه المنزلة الملحوظة في تكييف العالم على هذا النسق.

وعلى هذا؛ فلا محل لتوهم الفوضى التي تجعلنا نصغر عقيدة الألوهة وكل ما يمت إليها بسبب، ومن الواجب أن نتذكر أن حقائق الاحتمال الرياضي اللا

---

(١) إيمانٌ بماذا؟ وهو يُنكر وجود الله! إلا أنك ترى أن لا فرق بين الملحدين والمؤمنين بوحدة الوجود - كما يوحي به كلامك -. (س).

نهائي صادقة نظريًا بالنسبة للكون لا بالإضافة إلى الإنسان أو الإنسانية جمعاء أو العالم الأرضي في عمره المحدود المدى، وهذا وحده ما يهم الأديان البشرية التي تتمسك بالإنسانيات العملية وحدها.

من أجل هذا؛ لم يزدنا بحث الدكتور أدهم عن الإلحاد وعقيدة الألوهة إلا استمساكاً بإيماننا واعتصاماً به، ولم يعد ضربة صغيرة ولا كبيرة تُوجه إلى عقائدنا، بل كان هذا البحث نزهة عدنا منها أقوى ما نكون، وأنشط إيمانًا وأوضح برهاناً.

أفترانا أنصفنا العقيدة الإسلامية من تجنيه على حقائق العلم والدين على السواء؟.

نرجو... وإن لم نملك له ولأمثاله الهداية.

نرجو... وإن كنا نود ألا يكون حنقه على رجال الدين في عنجهيتهم مدعاة للثورة على الدين ذاته[1]، أو وسيلة لانتقاصه، أو استعداء الحقائق العلمية الملبسة بالأوهام لتبديد العقيدة الإسلامية والإلحاد فيها، فإنك لا تهدي من أحببت!

وبعدُ، فهل لهذا الصديق وأمثاله من المنكرين علينا أن يصحبونا في جولة قصيرة نضع فيها أصابعهم على الحقائق الثابتة، والمنابع الأولى لعظمة هذا الدين الذي جحدوه، وآمنا به في قوة وإصرار؟!



(١) ومثله يُقال لأبي شادي! الذي نقم على كثير من حقائق الدين وأحكامه، وحرّفها - كما سبق -، غير آبهٍ بنُصح العلماء له. (س).

لماذا هو ملحد؟

محمد فريد وجدي[(١)]

إن انتشار العلوم الطبيعية، وما تواضعت عليه الأمم المتمدنة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة للمفكرين في كل مجال من مجالات النشاط العقلي، استدعت أن يتناول بعضهم البحث في العقائد، فنشأت معارك قلميه بين المُثبتين والنافين، تمخضت بسببها حقائق، وتبينت طرائق، وآمن من آمن عن بينة، وألحد من ألحد على عهدته.

ونحن الآن في مصر، وفى بحبوحة الحكم الدستوري، نسلك من عالم الكتاب والتفكير هذا المنهاج نفسه، فلا نضيق به ذرعًا مادمنا نعتقد أننا على الحق المبين، وأن الدليل معنا في كل مجال نجول فيه.

وإن هذا التسامح الذي يُدعى أنه من ثمرات العصر الحاضر، هو في الحقيقة من نفحات الإسلام نفسه، ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله، فقد كان يجتمع المتباحثون في مجلس واحد بين سني ومعتزلي، ومشبه ودهري إلخ.. فيتجاذبون أطراف المسائل المعضلة، فلم يزدد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة في النفوس، وعظمة في القلوب، وكرامة في التاريخ[(٢)].

---

(١) نشرها في «مجلة الأزهر» الجزء السابع، رجب سنة ١٣٥٦ - ١٩٣٧م (ص ٤٥٧ - ٤٧٥)، ثم نشرها الدكتور محمد رجب البيومي في كتاب «مناقشات وردود». (س).

(٢) سبق أن الإسلام لا يُقر نشر ما يخالف أحكامه. ووجود الشيئ لا يعني الإقرار، وإلا لأقررنا جميع المنكرات التي تُفعل في ديار الإسلام. ولايقول بهذا عاقل، فضلاً عن مسلم. (س).

هذه مقدمة نسوقها بين يدي نقد نشرع فيه لرسالة ترامت ألينا بعنوان: (لماذا أنا ملحد)، نشرها حضرة الدكتور إسماعيل أحمد أدهم في مجلة الإمام الصادرة في أغسطس سنة ١٩٣٧، ثم أفردها في كراسة تعميمًا للدعوة.

بدأ الدكتور رسالته بقوله: إنه ابن ضابط تركي محافظ على دينه، وأمه مسيحية هي بنت البروفسور وانتهوف المشهور. ولما كان أبوه لاشتغاله بالحروب لم يتفرغ لتربيته، كلف زوج عمته أن ينهض على تثقيفه، فقام بذلك على أسلوبه، حتى اضطره لحفظ القرآن.

قال الكاتب في هذا الموطن: (غير أني خرجت ساخطًا على القرآن؛ لأنه كلفني جهدًا كبيرًا كنت في حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسي منه، وكان كل ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه. ولكنى كنت أجد من المسيحية غير ذلك، فقد كانتا شقيقتاي وقد نالتا قسطًا كبيرًا من التعليم في كلية الأمريكان بالآستانة لا تُثقلان عليّ بالتعليم الديني المسيحي، وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والإنجيل ليس صحيحًا، وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب، وكان لهذا كله أثر في نفسيتي).

وبين سنة ١٩١٩ و١٩٢٣ قرأ الدكتور كتاب دارون، وخرج منه مؤمنًا بالتطور، ونزح والده إلى الإسكندرية، وأخذ يتولى ابنه بالعناية، ويفرض عليه الصلاة والصيام. قال الدكتور: (إنى ثرت على هذه الحالة وامتنعت عن الصلاة، وقلت لي إنى لست بمؤمن، أنا داروني، أؤمن بالنشوء والارتقاء، فكان جوابه على ذلك أنه أرسلني إلى القاهرة، وألحقني فيها بمدرسة داخلية؛ ليقطع عليّ أسباب المطالعة). كل هذا ولم تتجاوز سنه الرابعة عشرة.

وفى سنة ١٩٢٧ غادر مصر وشَخَص إلى تركيا، والتحق بجامعتها، فدرس

الرياضيات، وأسس مع بعض إخوانه جماعة لنشر الإلحاد، فكانوا يُصدرون نشرات في كل منها ٦٤ صفحة.

ثم التحق بجامعة موسكو، وحصل منها على شهادة الدكتوراه في الرياضيات، ثم حصل على العلوم والفلسفة. قال: (كانت نتيجة هذه الحياة أني خرجت عن الأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده، وبالمنطق العلمي، وأشد ما كنت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالاً، وأكثر اطمئنانًا، من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقد ديني).

الدخول إلى موضوع البحث:

قال الدكتور في رسالته:

(إن الأسباب التي دفعتني للتخلي عن الإيمان بالله كثيرة، منها ما هو علمي بحت، ومنها ما هو فلسفي صرف، ومنها ما هو بين بين، ومنها ما يرجع لبيئتي وظروفي، ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية..

وقبل أن أعرض للأسباب، لابد لي من استطراد لموضوع إلحادي، فأنا ملحد، ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه. فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف في إيمانه. نعم؛ لقد كان إلحادي بداءة ذي بدء مجرد فكرة تساورني، ومع الزمن خضعتْ لها مشاعري فاستولت عليها، وانتهت من كونها فكرة إلى كونها عقيدة. ولى أن أتساءل: ما معنى الإلحاد؟

يجيبك لودفيج بخنر، زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر: «الإلحاد هو الجحود بالله، وعدم الإيمان بالخلود، والإرادة الحرة». والواقع أن هذا التعريف سلبي محض، ومن هنا لا أجد بدًا من رفضه. والتعريف الذي أستصوبه وأراه يُعبر عن عقيدتي كملحد هو: «الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في

ذاته، وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم». .

ومن مزايا هذا التعريف أن شقه الأول إيجابي محض، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقام دليلاً على عدم وجود الله، وشقه الثاني سلبي، يتضمن كل ما في تعريف بخنر من معاني). انتهى.

نقول: إن قوله إن الأسباب التي دفعته للتخلي عن الإيمان، منها ما هو علمي ومنها ما هو فلسفي، قول نراه وجيهًا، فقد اعترف العلماء أن العلم يعجز عن إقامة دليل على نفي الصانع، وليس من وظيفة العلم البحث فيما وراء المحسوسات، والحكم بوجود شيء أو نفيه مما وراءها، إلا إذا كان له في تلك المحسوسات أثر يُستهدى به.

والمعركة القائمة بين العلماء المثبتين للصانع والنافين له، تنحصر في أن الأولين يحتجون بوجود هذا الإبداع التكويني، والاستدلال به على وجود القدرة المبدعة، وأن الآخرين يدّعون بأن هذا الإبداع سببه وجود نواميس طبيعية منتظمة، ملازمة للمادة، تكفي لإيصال الكائنات في آماد طويلة إلى هذه الدرجة العالية من الإبداع، دون الحاجة إلى عقلٍ مدبر سواها.

وهذا كما لا يخفى موقف سلبي واهن، يحتاج الآخذ به للاعتماد على تحكمات افتراضية ليست من العلم في شيء.

وأما الفلسفة، وهى تناول الأمور بالنظر والتفكير، فهي كما تكون سببًا في الإلحاد، تكون سببًا في الإيمان، ناهيك أن تكون مصدرًا (لإيمان إلحادي) يفعل أصحاب الفلسفة الطبيعية، وهى لا تصلح أن تكون مصدرا (لإيمان الحادي)، لأن العلم الذي يستندون إليه لا يزال في دور التكامل، فقد كانوا يقولون بوجود جواهر فردة مادية، واليوم ثبت أن المادة تنتهي لقوة. وكانوا

يدّعون أن الحواس هي أصدق المصادر للعلم، وقد ثبت أنها لا تكفي لبنائه على أساس متين. وقد كانوا يقولون بأن أساس الكائنات عناصر أربعة، هي: الماء والتراب والهواء والنار، ففوجئوا قبل نحو مائة وخمسين سنة بأن هذه الكائنات بسيطة، ولكنها مركبة، وأن العناصر التي آلت إليها ربما كانت مركبة هي أيضًا من عناصر أبسط منها.

وكانوا لا يتخيلون وجود أشعة غير ما تتأثر به العين، فإذا بهم حيال أشعة تخترق الأجسام الصلبة، وتعمل في الأجسام عمل المواد الشديدة التأثير، حتى أن أشعة الراديوم قتلت مكتشفها الأستاذ (كوري) الفرنسي، وقتلت غيره من الباحثين فيها، وأحرقت وجوه وصدور عدد كبير منهم.

بقي ما عبر عنه الكاتب بأحوال البيئة والظروف، وبأسباب سيكولوجية. وهذه في نظرنا هي الأسباب الحقيقية في تكوين فكرة الإلحاد عنده، فإنه ذكر في تاريخ حياته أن أباه كان مسلمًا محافظًا، وأن أختيه كانتا تلقنانه الدين المسيحي، وفي الوقت نفسه كانتا تهزآن بخوارق الكتب المسيحية، وبخلود الروح في الحياة الآخرة! وأن زوج عمته كان يُرغمه على الصلاة وحفظ القرآن. فهذه كلها عوامل تقذف بنفسية الطفل من الشذوذ إلى مكان بعيد. ولا عجب لنفس يُحكم عليها أن تكون في وسط هذا التناقض، ولا تشعر بانقباض شديد يحملها على طلب المخرج منه. فلما أتته نظرية الإلحاد وجد فيها الراحة التامة لضميره، والثلج الكلي لصدره، فأخذ بها وتحمس لها.

لقد عاب الدكتور على بوخنر تعريفه للإلحاد، وجاء بتعريف له أكمل منه، فقال: «إن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته، وأن ليس ثمة شيء وراء هذا العالم».

وهذا تعريف معلول، لا يصح في عُرف العلم، ولا في عُرف أية فلسفة في

الأرض، وبخاصة لأهل هذا العصر، وإليك البيان:

أن تقول بأن سبب الكون في ذاته، لا يمكن أن يعدو كونه رأيًا، ولما كان الدكتور يكلمنا وهو في مجال العلم، فإنا نسأله: كيف يمكن في عُرف العلم أن يولّد الرأي إيمانًا راسخًا لا يقبل المناقشة؟!

نعم؛ إن المشاهَد أن كل ظاهرة طبيعية، تُحدثها علة طبيعية. ومن هنا يتخيل من يبحث بحثًا سطحيًا في علل الوجود، أن علله ذاتية فيه، ولكن العقول اجتازت هذه العقبة، فرأت أن هذه العلل الجزئية لا يتأتى أن تكون معلولاتها منتظمة، إلا إذا كانت متنزلة من علة رئيسية، تصدر عن تدبير سابق للحوادث.

قال العلامة السير وليم كروكس(١) - وهو من أقطاب العلم العصري وقد تولى رياسة المجمع العلمي البريطاني - قال في خطبة له(٢):

(الكون كله على ما ندركه، نتيجة الحركات الذرية، وهذه الحركات تنطبق كل الانطباق على ناموس حفظ القوة، ولكن ما نسميه ناموسًا طبيعيًا هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذي يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة. ونحن نستطيع أن نُعلل الحركات الذرية، كما نُعلل حركات الأجرام الجسمية، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة، ولكنا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه إلى حل أهم مسألة، وهي: أي نوع من أنواع الإرادة والفكر يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية، مُجبرًا لهذه الحركات على تباع

---

(١) السير وليم كروكس (١٨٣٢ - ١٩١٩م)، كيميائي وفيزيائي إنجليزي. اكتشف العنصر الكيميائي المعروف باسم الثاليوم، وحدد وزنه الذري. كما طور عددًا من الأجهزة التي استخدمت في البحوث العلمية طيلة سنوات عديدة على نطاق واسع. (س).

(٢) راجع: «مجموعة خطب السير وليم كروكس» (ص ٢٦).

طريق مرسوم لها من قبل؟ (تأمل). وما هي العلة العاملة التي تؤثر من خلف هذه الظواهر (وفى الأصل من وراء ستار المسرح)، وأي ازدواج من الإرادة والفكر (تأمل) يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجًا عن نواميسنا الطبيعية، بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادي الذي نعيش فيه؟

فاسمحوا لي أن أستنتج من هذا الفهم أنه يستحيل علينا أن نتخيل مقدمًا الأسرار التي يحتويها الكون، والعوامل الدائبة على العمل فيما حولنا). انتهى.

هذا رأى العلامة الكيماوي والرياضي الكبير وليم كروكس، وهو من الرجال القلائل الذين تضطرهم تجاربهم أن يطّلعوا على عمل النواميس كل يوم، فهم أقرب إليها ممن عداهم ممن يكتبون ولا يعملون. وقد رأيت أنه يأبى أن يُسلم بكفاية النواميس لإيجاد الكون وحفظه على ما هو عليه، فأظهر الحيرة في فهم كنه تلك (الإرادة)، وذلك (الفكر) الذي يعمل من ورائها.

وهو ليس يقول هذا القول متابعة لوهم، أو وراثة دينية عنده، ولكن تجاربه اضطرته إليه، فقد نص على ذلك نصًا في خطبة له في المجمع البريطاني، جاء في صفحة ٨ من مجموع خطبه:

(متى امتحنا من قُرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية، نبدأ بإدراك إلى أي حد هذه النتائج أو النواميس كما نسميها، محصورة في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم؟ أما أنا فإن تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حدًا بعيدًا. فقد تقبّض عندي هذا النسيج العنكبوتي للعلم، كما عبر بذلك بعض المؤلفين، إلى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تُدرك).

إذا كان هذا حال أقطاب العلم من الحيرة إزاء علل حدوث الكائنات: فمن أية الآفاق يتنزل (الإيمان بالإلحاد) الذي يذكره الدكتور صاحب الرسالة على

قلب باحث فيه؟ لا نشك في أنه يتسرب إليه من ناحية السذاجة العلمية! وقد نص على هذه الحقيقة: الرياضي المشهور (هنري بوانكاريه)، الذي يعتقد فيه حضرة الكاتب الإمامة في العلم، فإن في كتاب العلم والافتراض صفحة١:

(الحقيقة العلمية في نظر المشاهد السطحي تُعتبر خارجة عن متناول الشكوك، وعنده أن المنطق العلمي غير قابل للنقض، وأن العلماء وإن أخطئوا أحيانًا، فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده. والحقائق الرياضية في نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ، وهي واجبة، في رأيه، ليس علينا فقط، ولكن على الطبيعة أيضا (تأمل). . .

ثم قال: (هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة، وهاهو جهد فهمهم للدور الذي تؤديه التجربة والرياضيات، وهاهو أيضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مائة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة. .

ولكن لما تروى العلماء قليلاً، لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم، ورأوا أن الرياضي نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها، وأن التجربة لا تستغني عنها كذلك. حينئذ سأل بعضهم بعضًا: هل كانت هذه المباني العلمية على شيء من المتانة؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تكفي لجعل عاليها سافلها. فمن ألحد على هذا الوجه (تأمل) صار سطحيًا أيضًا). انتهى.

فمن أية السبل يأتي الإيمان برأي من الآراء الإلحادية لباحث في الطبيعة؟

فتعريف الدكتور كاتب المقالة بأن الإيمان بوجود سبب الكون في الكون

ذاته، وأن ليس ثمة شيء وراء هذا العالم، تعريف معيب من الناحية العلمية المحضة، وأدخل منه في العيب قوله: (فأنا لا أفترق من هذه الناحية -يريد ناحية الإلحاد- عن المؤمن المتصوف في إيمانه). فهذا تعبير بعيد كل البعد عن التحوط العلمي. فإن العالم يجب أن لا يكون واقفًا هذا الموقف حيال مدركات يقول عنها مثل (هنري بوانكاريه) أن نفخة واحدة تكفي لجعل عاليها سافلها، وتاريخ العلم يُبرر هذا التحفظ.

هل كان الفيلسوف (كنت) ملحدا؟

نقل الدكتور كاتب الرسالة عن الفيلسوف الألماني (كنت) قوله: (إنه لا دليل عقلي أو علمي على وجود الله، وإنه ليس هنالك من دليل عقلي أو علمي على عدم وجود الله). ثم قال الدكتور عقب ذلك:

(وهذا القول الصادر عن أعظم فلاسفة العصور الحديثة، وواضع الفلسفة الانتقادية، يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة. وقول (عما نويل كنت) لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس الشاعر اللاتيني منذ ألفي سنة).

وأنا أقول: لا أظن أن الدكتور صاحب الرسالة يجهل تاريخ الفيلسوف الذي يصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة، إن هذا الفيلسوف كان من أكبر المؤمنين بالله، وبالروح وخلودها، من طريق التحليل العلمي والفلسفي. جاء عنه في قاموس لاروس ما يأتي:

(شرع الفيلسوف كنت في إصلاح مجموع المعارف الإنسانية، فبدأ عمله على أسلوب التشكك، وبنى عليه الوصول إلى الحق اليقين بواسطة العقل العلمي، والناموس الأدبي، واستنتج من ذلك وجود الخالق وخلود الروح).

وهذا ما تعرفه الفلسفة عنه، فمن أين أتى حضرة الدكتور بأنه قال إنه لا دليل،

سواء أكان عقليًا أم علميًا على وجود الله؟ لا أستطيع أن أقول: إنه تقوّل عليه، ولكني أقول: إنه اقتضبه اقتضابًا من كلامه، فأوهم غير ما يرمي إليه الفيلسوف من مراده[١].

ثم عقّب الدكتور على ذلك بقوله:

(الواقع الذي ألمسه: أن فكرة الله أولية، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفي سنة، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقول: إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها في عالم الفكر الإنساني، لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس: التبرير Racionation، ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التي تُقام لأجل إثبات وجود السبب الأول قيمة علمية أو عقلية. ونحن نعلم مع علماء الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف، وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية، ومعرفتنا بأصل فكرة

---

(١) يقول الشيخ مصطفى صبري في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» (٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩): «أما الفيلسوف كانت، فهو ليس كديكارت، وعلى عاتقه قسط من تبعات ضلال الملاحدة العصريين، ومَن قبلهم، وإن كان الرجل أيضًا ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، فقد انتقد الأدلة القائمة على وجود الله، وادعى أنه لا يُمكن إثباته بالعقل النظري. .ثم أسندها - أي مسألة وجود الله - إلى دليل العقل العملي الآمر بالوظيفة، ويُعبر عنه بالدليل الأخلاقي». وقال (٢/ ٢٥٦): «وكانت لا يستند في اعترافه بالله إلى العلم الذي يريدون به العلم الحديث، المبني على التجربة والمشاهدة. .»، فهو يؤمن بوجود الله بأدلته الخاصة. وقد أطال الشيخ في مناقشة فكره. انظر: (٢/ ٢٢٨ - ٢٧٤)، وبيّن (١/ ٢٤٧) أن ملاحدة العرب: «اتخذوا الناحية السلبية لفلسفة كانت سندًا لهم في عدم الاعتراف بوجود الله، غير عابئين بالدليل الذي اختاره لإثباته»! وسيأتي رده على إسماعيل أدهم - إن شاء الله -. (س).

الله تُذهب بالقدسية التي نخلعها عليها) انتهى.

ونحن نقول: إن هذا الكلام ليس عليه أقل عبقة من اللهجة العلمية، كأن كاتبه لم يقرأ تاريخ العالم ولا تاريخ العلم! فإن قوله إن العقيدة بالله أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفي سنة، خطأ عظيم، إن هذه العقيدة صحبت الإنسان منذ نشوئه، حتى قال المنقبون إنهم لم يشاهدوا آثارًا تحت الأرض لجماعة من الجماعات المتغلغلة في القدم تدل على أنها كانت لا تدين لمدين ما. ولكن الأمر على العكس، فإن كل الآثار التي عثروا عليها تدل على وجود العقيدة لدى تلك الجماعات.

فما معنى قول الكاتب بعد هذا التقرير العلمي: إن العقيدة بالله لم تُصبح من مستلزمات الجماعات إلا منذ ألفي سنة؟ إن الأحجار المنقوشة في الهند والصين ومصر وغيرها تدل على أن تلك الأمم قبل ستة آلاف سنة كانت متدينة على أشد ما يمكن أن يكون، وكان للدين السلطان المطلق عليها، حتى كان فيها قبل نشوء الملكية للكهنة والرهابين.

وأما قوله: «إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها من عالم الفكر، لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس التبرير».

فنرد عليه بأنه إذا كانت العقيدة الإلهية تسلطت على عقول الناس من أقدم العصور، حتى عقول العلماء وكبار المفكرين، يمكن أن توصف بأنها مجردة من عناصر القوة الإقناعية، فأي عقيدة بعد ذلك يُتصور أن تكون حاصلة على تلك القوة؟

إن العقيدة بالله تقوم على أقوى البداهات العقلية، وأعظمها سلطانًا على

النفس البشرية، ويزيدها الشعور الوجداني الذي لا سبيل إلى عدم الاعتداد به. ذلك أن كل إنسان سأل نفسه بالفطرة: ماذا أنا، وأي شيء أوجدني، وأوجد هذا العالم؟ وكل إنسان وجد الجواب العقلي والوجداني عقب هذا السؤال كما يأتي: لابد أن يكون قد أوجدني موجد قادر، وهو نفسه الذي أوجد هذا العالم أيضًا.

هذه كانت البداهة العقلية والوجدانية التي لا تعارض، ولكن الفلسفة منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة هي التي حاولت أن تتشكك في هذه البداهة، فحاولت تعليل وجود الخليقة بذاتها، بغير حاجة لموجد أزلي حكيم. ورغمًا عما بذلته تلك الفلسفة المادية منذ تلك القرون من الجهود الشاقة، فإنها لم تتوصل أن تفتن إلا عقولاً قليلة، وبقيت جماهير الخليقة تحت سلطان تلك العقيدة، بل بقيت عقولٌ تُعتبر من أرقى طراز تحت ذلك السلطان نفسه.

فهل يُعقل أن وضَعَة الفلسفة: فيثاغور[1]، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وكل من جاء بعدهم إلى العصور الحديثة من صاغه الأصول الأولية، أمثال بيكون واضع الدستور العلمي[2]، وديكارت مصلح الفلسفة[3]، وعمانويل كنت

---

(١) فيثاغورس الساموسي، فيلسوف ورياضي إغريقي (يوناني)، عاش في القرن السادس قبل الميلاد،اهتم اهتمامًا كبيرًا بالرياضيات، وخصوصًا بالأرقام، وقدّس الرقم عشرة؛ لأنه يمثل الكمال - في نظره -، يعتقد وتلاميذه أن كل شيء مرتبط بالرياضيات، وبالتالي يمكن التنبؤ بكل شيء و قياسه بشكل حلقات إيقاعية. (س).

(٢) فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م)، فيلسوف إنجليزي، صاحب الفلسفة الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب». (س).

(٣) رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، فيلسوف فرنسي، وعالم رياضيات، أُطلق عليه لقب «مؤسس الفلسفة الحديثة»، واشتهر بمنهج «الشك» للوصول لليقين. انظر عنه: «ديكارت بين الشك و اليقين»، و«لن تُلحد» (ص ٦١ - ٨٦) كلاهما لأبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري، و«أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط»؛ لمحمد عثمان الخشت. (س).

مُنقح العلوم الإنسانية، وروسو[١] وفولتير[٢] إمامي النقد الفلسفي، وبرجسون زعيم الفلسفة الوجدانية في العصر الحاضر[٣]، هل يُعقل أن هذه العقول الجبارة كلها لم تُدرك أن فكرة الله وهمية بحتة، وأنها مجردة من عناصر القوة؟

قال حضرة الدكتور في تلك الفقرة: «إن كل الأدلة التي تُقام لأجل إثبات السبب الأول ليس لها قيمة علمية أو عقلية».

نقول: كيف يُمكن أن يروج مثل هذا القول في العقول، والبحث عن السبب الأول أمرٌ لابد منه، وإثبات وجوده لا معدى عنه في عصر من العصور، وإن كان بعضهم يعتقد بأن هذا السبب قادر حكيم، وبعضهم يراه وجودًا ماديًا محضًا. فإن كان مراده أن يقول إن إثبات أن ذلك السبب قادر حكيم ليس له قيمة علمية أو عقلية، فذلك حكمه الشخصي، ولكن جميع من ذكرناهم من وضعَة

---

(١) جان جاك روسو (١٧١٢- ١٧٧٨م)، فيلسوف سويسري، ساهمت فلسفته وكتاباته في تشكيل الأحداث السياسية التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية، وأثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة. واشتهر بكتابه «العقد الاجتماعي»، الذي طرح فيه آراءه فيما يتعلق بالحكم وحقوق المواطنين. (س).

(٢) فرانسوا ماري أرويه (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م)، ذاعت شهرته تحت اسم مستعار (فولتير)، كان كاتبًا فرنسيًا، ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية، ودفاعه عن الحريات المدنية، وكان فولتير كاتبًا غزير الإنتاج في كل الأشكال الأدبية تقريبًا؛ فقد كتب المسرحية والشعر والرواية والمقالة، والأعمال التاريخية والعلمية، وأكثر من عشرين ألفًا من الخطابات. وكان واحدًا من العديد من الشخصيات البارزة التي أثرت في أفكار الثورة الفرنسية. (س).

(٣) هنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١م)، فيلسوف يهودي فرنسي، حصل على جائزة نوبل عام١٩٢٧م، يدور فكره على «أنه ليس للدين ولا للأخلاق مصدرٌ رباني مطلقًا، ولا أسس عقلية تجعلهما حقيقة من الحقائق»! انظر لمعرفة فكره والرد عليه: «كواشف زيوف»؛ للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني (ص ٣٤٧ - ٣٥٧). (س).

الفلسفة ومصلحيها قد رأوا لها أعظم قيمة علمية وعقلية، وأثبتوها في مؤلفاتهم الخالدة. والعقول بطبيعة الحال تنساق وراء كبار الأعلام في هذا الشأن، وهو (عمانويل كنت) فوصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة، وواضع الفلسفة الانتقادية، وقد أثبتنا لك بنص تاريخي أنه توصل على أسلوبه النقدي إلى إثبات الله وخلود النفس، وله في ذلك كلام ممتع. وقس عليه سواه ممن ذكرناهم هنا.

وقال الدكتور في تلك الفقرة أيضًا: «إن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وإن الذي ولّدها للإنسان: الخوف والجهل بأسباب الأشياء الطبيعية، وإن معرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها».

نقول: أما أن هذه الفكرة قد تطورت، فهذا لا يستدعي العجب، فإن الجاهل يخلع على تصوراته خلعة من أهوائه، وكلما ازداد علمًا أزال طائفة من تلك الأوهام والأهواء، حتى ينتهي إلى إزالتها كلها، وتبقى العقيدة خالصة من كل شائبة.

فأي بأس في هذا على قدسية هذه العقيدة؟ أليس هذا كان حال الإنسان من جهة العلم والحكمة والحق والعدل والشرف والكرامة الخ..، مما يضحي الإنسان حياته في سبيله؟ فهل يسقط من قدسية العلم والحكمة أنهما تطورا في عقل الإنسانية من حالات بدائية؟ وهل لهذا السبب يجب علينا أن نُنكر وجود العلم والحكمة وكل هذه الحالات الكريمة؟

وهل أعلام العلم والفلسفة ممن ذكرناهم، ويطول ذكر غيرهم، لم يُدركوا أن تطور فكرة الله تذهب بقدسيتها، كما أدركها الدكتور كاتب الرسالة، فلم يحتقروا هذه الفكرة لهذا السبب، وكلهم أفاض في ذكر الأطوار التي دخلت فيها على مدى العصور والأجيال؟

هل السبب الأول للكائنات هو الخبط والاتفاق؟

قال الدكتور كاتب الرسالة: (إن العالم الخارجي عالم الحادثات يخضع لقوانين الاحتمال Probability، فالسُنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التي يخلص بها الباحث من حادثة، على ما يماثلها من الحوادث. والسببية العلية لا تخرج في صميمها عن أنها وصف لمجرى سلوك الحوادث).

ثم ذكر أنه عمل مذكرة بهذا الموضوع لمعهد الطبيعيات الألماني عن المادة وبنائها الكهربائي، وقال): وفى هذه المذكرة أثبتُ أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمي للذرة، فإذا كان ما في العالم يخضع لقانون الاحتمال، فإني أمضي بهذا الرأي إلى نهايته، وأُقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة).

ثم قال: (ولكن ما معنى الصدفة والتصادف؟

يقول هنري بوانكاريه في أول الباب الرابع من كتابه Science et methode في صدد كلامه عن الصدفة والتصاف: إن الصدفة تخفي جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب.

والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه في اعتقاده).

ثم قال: (غير أني من وجهة رياضية أجد للصدفة معنىً غير هذا، معنىً دقيقًا بُث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني في كتابي (Mathematic Und Physic) ج٢ فصل ٧».

ثم مثل لنظريته بمثال فقال: (لنفرض أن أمامنا زهر النرد، ونحن جلوس حول مائدة، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه. ثم قال: وربما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه

يُحدد معنى الصدفة التي نبحثها).

ثم قال: (فمثلا لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة، أعنى بنسبة ٣٦:١ مرة، ففي الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجيء الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية في شيء..

إذ يمكننا أن نقول: إن الصدفة التي تخضع العالم لقانون عددها الأعظم، تعطي حالات إمكان. ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض، في وحدات، وتتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد، لتعود من جديد لتنتظم. . .وهكذا، خاضعة في حركتها هذه لحالات الإمكان الذي يحددها قانون العدد الأعظم الصدفي، ومثل العالم في ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه في الحركة والاصطدام، فتجتمع وتنتظم، ثم تتباعد وتنحل، هكذا في دورة لا نهائية، فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع»، وكذا «القرآن» مجموعًا منضدًا مصححًا من نفسه، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التي وُضعت ستأخذ دورها في الظهور، خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهائية، فإذا اعتبرنا (ح) رمزًا لحالة احتمال، و(ص) رمزًا للانهائية، كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات: ح : ص

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابًا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة). انتهى.

ونحن نقول: إذا كان القارئ، سواء أكان باحثًا طبيعيًا، أم عالمًا رياضيًا، قد آنس في كلام الدكتور كاتب الرسالة غرابة وخروجًا عن المألوف، ومنافاة لكل ما نُقل عن أقطاب العلوم، وأركان الرياضيات، فإن الدكتور نفسه يعترف بذلك، فهو يقول إن نظريته هذه مبتكرة، ظهرت في عالم التفكير العلمي لأول مرة، فقد

قال: (إني من وجهة رياضية أجد للصدفة معنىً غير هذا، معنىً دقيقًا بُث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني في كتابي «Mathematatik Und Physik» ج٢ فصل ٧).

قال ذلك عقب إيراده قول العلامة الكبير (هنري بوان كاريه) الفرنسي، وهو قوله: (والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوان كاريه في اعتقاده).

وهذا اعتراف من الدكتور بأن كل العلماء متفقون على أن لا خبط ولا اتفاق في حوادث الكون، ولكن الدكتور وحده قد أدرك أنهم كلهم واهمون، وأن الخبط أو كما يسميه «الصدفة» هي الناموس الأعظم الذي أوجد الكون، وهى التي تسود جميع انقلاباته إلى اليوم!

ولما كان الدكتور يعتبر نفسه صاحب مذهب جديد في العلم، فهو لا يخشى أن يعرض للقراء آراء كبار الرياضيين المناقضين له. فنقل عن العلامة العبقري أينشتين أكبر أعلام الرياضيات في هذا العصر قوله:

(مثلنا إزاء العالم، مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئًا، فلما أخذ في مطالعته، وتدرج من ذلك لدرسه، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكري، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئًا غامضًا لا يصل لكنهه، هذا الشئ الغامض الذي عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير، عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقري أبدعه، كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشعر بأن نظامه شيئًا غامضًا لا تصل إلى إدراكه عقولنا، هذا الشئ هو الله).

ونقل أيضا عن العلامة (جيمس جينز) الفلكي الإنجليزي قوله:

(إن صيغة المعادلة التي توحد الكون هي الحد الذي تشترك فيه كل الموجودات، ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة لبابه. ولما كانت

الرياضيات تُفسر تصرفات الحوادث التي تقع في الكون، وتربطها في وحدة عقلية، فهذا التفسير والربط لا يُحمل إلا على أن طبيعة الأشياء رياضية، يرجع له هذا الكون. هذا العقل الرياضي الذي نلمس آثاره في الكون هو الله).

نقل الدكتور هذين القولين وعقّب عليهما بقوله: (وأنت ترى أن كليهما - والأول من أساطين الرياضيات في العالم، والثاني فلكي ورياضي من القدر الأول - عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة، والتي يتبع دستورها العالم، لا لشيء إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما).

وقد سبق له نقل رأى الرياضي الفرنسي الكبير هنري بوانكاريه في نكران الخبط والاتفاق (أي الصدفة).

وعقّب عليه بقوله: (الواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوان كاريه في اعتقاده، غير أني من وجهة رياضية أجد للصدفة معنىً غير هذا، معنىً دقيقًا بُث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني..).

فإذا كان الأمر كما ذكر، فيكون من العبث المحض أن ننقل إليه آراء رياضيي العالم كله في إنكار وجود الخبط في الطبيعة، وفي أنها قائمة على نظام حكيم، فلابد لنا من أسلوب آخر في دحض أقواله.

إن كاتب الرسالة لم يكتفِ بتخطئة أقطاب الرياضيين الذين ذكرهم في فهم نظام التكوين العالمي، ولكنه يتبرع فيشرح وجه خطئهم، فقد قال:

(الواقع أن أينشتين في مثاله انتهى إلى وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب، عبر عنه بعقل صاحبه - مؤلفه -، والواقع أن هذا احتمال محض، لأنه يصح أن يكون خاضعًا لحالة أخرى، ونتيجة لغير العقل (كذا)، ومثلُنا عن المطبعة وحروفها، وإمكان خضوعها لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة (كذا).

أما ما يقوله السير جيمس جينز، فرغم أنه أخطأ في اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء؛ لأن الوجهة الرياضية في ربط الحوادث، وتفسير تصرفاتها، لا يُحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية، بل يدل على أن هناك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء هي الكائن الواقع، والرياضيات ربط ما هو واقع في نظام ذهني على قاعدة العلاقة والوحدة. وبعبارة أخرى: إن الرياضيات نظام ما هو ممكن، والكون نظام ما هو واقع، والواقع يتضمنه الممكن، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه. ومن هنا يتضح أنه لا غرابة في عدم انطباقها، لأن لكل كون رياضته المخصوصة. فكون من الأكوان مربوطًا بالرياضيات شرط ضروري لكونه كونًا. من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة، كما انساق أينشتين إلى التماس الناحية الرياضية في العالم. وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضي وراء هذا العالم، وهذا خطأ، لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعًا لنظام ماهو ممكن، فهو حالة احتمال من عدة حالات، والذي يحدد احتماله: قانون الصدفة الشامل، لا السبب الأول الشامل). انتهى.

يريد كاتب الرسالة مما مر أن يقول: إن المثال الذي ضربه بالمطبعة ذات المليون حرف، وإمكان خروج الكتب منها، خضوعًا لقانون الصدفة الشامل بدون الحاجة لعقل، يكفي لبيان ما يُشكل على العلماء في هذا المجال!

فقولهم إن الكون قائم على نظام رياضي شامل؛ لانسجامه مع العلم الرياضي الإنساني، خطأ محض. فإن ترابط حوادث الكون، وتصرفها على قانون رياضي لا يُحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية كما يقول؛ لأنه بعد أن يتوصل قانون (الصدفة) الشامل، في رأيه، إلى إنشاء كون من الأكوان، يكون ضبطه بالقوانين الرياضية شرط ضروري لكونه كونًا، ومن هنا أخطأ، كما يدعي، أقطاب الرياضيين في اعتبار أن الطبيعة تجري على نظام رياضي دقيق. والحقيقة أنها

تجري على نظام الخبط، ومن هذا الخبط تتولد الأكوان ذات النظم الرياضية الدقيقة!

هذا مذهب غاية في الغرابة، فلا عجب أن ينفرد بالقول به واحد في الخلق! ولكن هذا لا يكفينا مؤنة مناقشته الحساب، حتى لا يُخيل إليه أن العقول تعجز عن بيان خطئه فيه.

مناقشة هذه النظرية الإلحادية/ الحساب:

ليس من الحكمة أن نعتمد في مناقشة صاحب هذه الرسالة على إيراد آراء علماء الكون، سواء أكانوا رياضيين أم طبيعيين أم فلكيين، لأنه يعترف بأن إجماعهم انعقد على أن للكون نظامًا أزليًا، وأنه جاء على وتيرة رياضية في جميع أدواره، وأنه منزه عن الخبط والاضطراب في جميع مكوناته. ولكن الذي يجدي في هذه القضية، هو مناقشته الحساب في مفهوم نظريته، وفي الأصول التي أقامها عليها إن كان لها أصول، فنقول:

أولا: إن ما يقرره الدكتور من عالم الخيال المحض لا من عالم العلم، حمله عليه شدة تهيامه بإبطال العقيدة بالخالق، ولكن تهيام الإنسان بنفي أصل من الأصول، لا يجوز أن يدفع به إلى متاهات يتجرد فيها من كل قوانين المنطق، جريًا وراء هوى من الأهواء النفسانية.

نعم؛ إن العالم مع اشتغاله بالواقع المحسوس، يُسمح له أن يخترق بخياله ما وراءه؛ ليصل إلى السبب الأول الذي لا تناله المشاهدة، ولا تبلغه التجربة، ولكنه لا يسمح لنفسه أن يفعل ذلك إلا مستهديًا بما بين يديه من الأصول، ومحوطًا بما يمكنه أن يحصل عليه من المرجحات.

فإذا كان العالم يرمي ببصره إلى أبعد ما تصل إليه قوى التلسكوب، فلا

يصادف غير نظام نظام قائم على أدق أصول العلم الرياضي، فلا حق له أن يستنتج منه أن العوامل التي صدر عنها الكون لا يسودها غير الخبط المحض؛ لأن سيادة النظام الرياضي الآلي في كل مكان لا يسمح له بذلك، ولكن يوجب عليه ضده، وهو أن الكون يجري على نظام محكم تسوده عوامل محكمة النظام، إلى أقصى ما يتخيله التصور.

وجميع ملاحدة العالم قديمًا وحديثًا، بنوا إلحادهم على أن العامل الرئيس هو الخبط، لأنهم لم يروه، ولكن على أنه وليد نظام آلي محض، لا يصدر عنه إلا ما هو آلي منتظم كل الانتظام. فقد قال بوخنر إمام الملحدين: (مادمنا لا نرى في كل مكان غير نواميس منتظمة، تصدر عنها كائنات منتظمة، فلا داعي يدعونا إلى افتراض وجود سبب عاقل أوجده)، وغفل عن أن هذه النواميس مظاهر لسبب عاقل أوجدها. ولكن بوخنر لا يستطيع أن يقول كما يقول الدكتور صاحب الرسالة: إنه مادمنا لا نرى إلا نواميس منتظمة، فلا مانع يمنع أن تكون هذه النواميس حالة لكون منتظم أوجده سبب أول، هو ناموس الخبط المحض.

وما الذي يحمله على التجرؤ على هذا الافتراض، ولم يرَ في الوجود كله ركنًا منعزلاً يعمل فيه ناموس الخبط، وتنتج منه كائنات منتظمة، تخرج بحكم نظامها من سيادته عليها، وتُصبح مستقلة عنه، توهم أنها صادرة من أصول رياضية دقيقة، ونظام آلي محكم؟

إن كل ما وصل إليه خيال المتخيلين في أمر الخبط من الملاحدة، أنهم قالوا: إن الكون محكوم من أزال الآزال بقوانين محكمة الوضع، وهى دائبة على العمل بغير قصد، فتارة ينتج عنها كائنات منتظمة، وأخرى شاده، ولكنها لقيامها على النظام، لا تزال بهذه الشواذ حتى تبيدها أو تحليها إلى النظام المحكم، ولذلك ترى كل كائنات الوجود محكمة الصنع.

إذا تقرر هذا؛ فعلى أي أساس استند الدكتور في تخيل أن السبب الأول للوجود هو الخبط، وليس في الوجود ما يمكن من الاستدلال به عليه؟ وكيف يأمل أن يبث دعوة خيالية محضة لا تستند على أصل من أصول العلم، بل على أي خيال من خيالات أصحاب الفلسفات الإلحادية؟

أليس انفراده بالقول الذي أورده، وهو يعترف بذلك، يصح أن يكون من أقوى أسباب الارتياب فيه، بل القذف به إلى عالم المهملات؟

يقول: إنه أرسل مذكرة علمية برأيه هذا لمعهد الطبيعيات الألماني في سنة ١٩٣٤، ولا عبرة بإرسالها، فقد مضى عليها ثلاث سنين، ولم يتلق عنها تأييدًا إلى اليوم، ومعنى ذلك أنهم أهملوا أمرها وعدوها من الخيالات، وإلا فقد كانوا يملئون الصحف بإشاعتها والمناقشة فيها، ككل الآراء الجديدة التي يُتخيل من ورائها زيادة لمادة العلوم.

ثانيا: هل تصح تسمية الخبط بالقانون؟

يُعبر الدكتور عن رأيه في الخبط بقوله: (قانون الصدفة الشامل)، فهل تسلم له هذه التسمية؟ المعروف أن الخبط، وهو يسميه الصدفة، هو اللا نظام المحض، والفوضى المجردة من كل قانون وضبط، فهو يتخيل أن القوى العالمية كانت على حالة تخبط هائل، فصدر عنها على مقتضى قوانين الاحتمال كونٌ منتظم بديع الصنع، هو ما نحن فيه، وما عليه العلم إلى أبعد ما يصل إليه التلسكوب. فهل يحق له - وقد اعتبر القوى العالمية في حالة فوضى وتخبط - أن يتخيل وجود قانون يسيطر عليها؟ وهل هذا القانون من الكون أم خارج عنه؟

أن الكاتب قد أكثر من ذكر قوانين الاحتمال، ولكنها عندنا لم تسمَّ بالقوانين إلا لأنها تطبق على موجودات منتظمة، وقد اكتشفها الفلكي لابلاس للترجيح لا

للجزم، ورتبها. فكيف يُطبق حساب الاحتمال العلمي على عالم الخبط المحض الذي لا أثر للنظام فيه، ولا قيام لكائن معه؟ وإذا كان الوصف المميز للخبط هو خلوه من كل قانون، فكيف يُلحق به نظام رياضي محض؛ كحساب الاحتمال القائم على قوانين ثابتة، ونظم مستقرة من العالم المحسوس، الذي يعترف الكاتب بأنه قائم على أصول رياضية؟

يضرب الكاتب مثلاً بوجود زهر الطاولة، ويُقرر أن الدش لابد من مجيئه مرة في كل ستة وثلاثين رمية للزهر، ويغفل عن أن وجوه الزهر قائمة على شكل هندسي، وأعدادها معينة مكتوبة، وهي بجملتها موجودة في عالم آلي يسوده النظام في كل ذرة من ذراته، فلا بِدع أن تسري عليه قوانين الاحتمال، ولكن عالم الخبط الذي لا أثر للعدد فيه، ولا صورة متعينة لشئ من أشيائه، ولا وجود للقوانين فيه، كيف يُطبق عليه عمل رياضي قائم على أصول مقررة، في عالم تسوده القوانين، وتحفظه من أي نوع من أنواع الخبط؟

ثالثا: هل يُعقل صدور النظام في الخبط العام بدون سبب خارجي؟

إن ما يذكره كاتب الرسالة الإلحادية من تعليل وجود الكون من طريق الخبط والاتفاق، يحب أن يسبقه تصور لذلك العالم.

فإذا أخذ آخذ بنظرية؛ وجب عليه أن يعتقد أن العالم محدَث غير قديم، خلافًا لرأى جميع الملحدين، وأن العالم لم يكن فيه غير قوى لا ضابط لها، ولا منظم من أي نوع كان، حتى ولا من نوع النواميس الأبدية التي يتخيلها الملحدون.

فإن قال بوجود نواميس في ذلك العهد، لم يصدق على العالم أنه كان عالم خبط واتفاق.

فمثل هذا المحيط اللانهائي من القوى الثائرة المتخبطة المنحلة النظام، لا يُعقل أن يتولد فيه نظام على وجه الإطلاق.

وقد لاحظ أقطاب الملحدين هذا الأمر، فقروا أن القوى العالمية مقوده بنواميس أزلية، غاية في الإحكام، ملازمة لها، وليست فوضى ولا متخبطة. افترضوا هذا خشية أن يُعترض عليهم بمثل ما نعترض به على كتاب الرسالة اليوم، من أن الخبط لا يُعقل أن يُوَلد نظامًا ما، فتبطل حجتهم، ويزدري الناس مذهبهم.

ولكن كاتب تلك الرسالة يقول: بلى إن قوانين الاحتمال تسمح أن نتصور صدور للكون المنتظم، المقود بنواميس حكيمة، من صميم هذه القوى العالمية المتخبطة.

يقول هذا، ويغفل أن في قوله قوانين الاحتمال تناقضًا لا يسيغه عقل عاقل في الأرض، فإن افتراضه سيادة الخبط والاتفاق في العالم، تنفي وجود أي ضرب من ضروب القوانين فيه.

إنه قال كما نقلناه عنه: (إن العالم الخارجي - عالم الحادثات - يخضع لقوانين الاحتمال). فهل غاب عنه أن ما يصدق على عالم الحوادث الطبيعية المقودة في كل ذرة من ذراتها بنواميس محكمة، لا يُعقل أن يصدق على عالم خبط واتفاق، ليس فيه حوادث مترابطة، ولا قوانين تسود عليها؟

وإذا استساغ أن يعتقد أن ذلك العالم المتخبط توجد فيه قوانين الاحتمال، فما الذي يمنعه أن يعتقد بوجود كل ضروب النواميس فيه؟

فلو سلمنا له جدلاً أن قوانين الاحتمال حاولت مرة أن توجد كائنًا منتظمًا، فهل نستطيع أن نعقل أن القوى العالمية الثائرة من حوله تدعه يتكون في هدوء

وسكون، ولا تعدو عليه فتُفسده قبل أن يتم تكونه؟ ما الذي يمنعها من العدوان عليه، بل ما الذي يمنع قوانين الاحتمال من توليد كائن آخر منتظم بجواره، يناقضه ويحرمه أن يتطور إلى أن يبلغ حد الكمال؟

إذا لم يستطع أحدٌ أن يُسيغ تصور هذا، فهل يُسيغ أن تترك القوى الثائرة المتخبطة حرية العمل لقوانين الاحتمال، حتى تُوَلد ملايين من مجموعات شمسية تملأ فضاءً لأحد له، تسودها قوانين عامة واحدة، لا يختل لها نظام في عدد لا يُحصى من ملايين السنين، ولا تعدو عليها فتجعلها حطامًا متناثرًا في الهواء؟

هنا يحتاج الآخذ بنظرية الخبط العام أن يتخيل أن القوى العالمية كانت في حالة سكون تام، لا في حالة ثوران، فإذا تفضلت قوانين الاحتمال أن توجد كونًا أو أكوانًا كثيرة، تركتها تلك القوى تفعل ما تشاء.

ولكن هذا الخيال يؤدي صاحبه أن يعتقد بأن القوى في عالم الخبط العام مجردة من الحركة والتأثير فيما حولها. وإذا كانت كذلك، فكيف يُتصور أن تسود عليها قوانين الاحتمال؟

لقد شبه الكاتب عمل قوانين الاحتمال بحركة زهر النرد، ولكن غاب عنه أن زهر النرد إذا لم يتحرك، فلا يُعقل أن يأتي الدش منه في كل ٣٦ رمية مرة واحدة، بل يبقى على ما هو عليه إلى الأبد.

وعليه؛ فلا يُعقل أن تكون القوى كانت ساكنة، فلابد أنها كانت في حالة حركة لا ضابط لها، ثم يُصبح لها ضوابط متى آلت إلى كائنات بواسطة قوانين الاحتمال. وإذا كانت كذلك؛ فكيف لا تعدو القوى المتخبطة العامة على أي جزءٍ منها، فترفع عنه تأثير قوانين الاحتمال؟ أيُ مانع يمنعها من ذلك وهي

محيطة بها من كل مكان؟

وكيف يُعقل حدوث نواميس رياضية محكمة، لكونٍ تولد من قوى مجردة من كل ناموس، ومن أي ضابط كان؟

يقول كاتب الرسالة: لا غرابة في ذلك، فما دام قد وُجد كون، فإن ضبطه بالرياضيات شرط ضروري لقيامه على حالة كونٍ قائم بنفسه.

نقول: في هذا القول تحكم يتنزه عن مثله أهل العلم، فإذا سلمنا جدلاً بأن قوانين الاحتمال أوجدت مجموعة شمسية، فما الذي يوجب عليها أن تجعلها على نظام رياضي دقيق، وأن تحليها بجميع النواميس المحكمة التي لا تكفي فقط لتماسك أجزائها، ولكن لتحليتها بنواميس أخرى تصلح لتكوين كائنات نباتية وحيوانية عليها، ولدفع هذه الكائنات للتطور والترقي، حتى يبلغ بعض آحادها إلى درجة عالية من إدراك الذات والتعقل؟

وإذا اتفق ذلك لمجموعة شمسية، فهل يتفق مثله لملايين المجموعات الشمسية السابحة في الفضاء، وعلى أبعاد لا يصل إليها الوهم، وتكون كل هذه القوانين واحدة فيها، ومتكافلة فيما بينها إلى هذا الحد المحيِّر للعقل؟

لم هذا التحكم كله؟ الأجل القول بأن أصل الوجود قوى متخبطة لا ضابط لها، وأي فائدة للإلحاد من هذا الافتراض، وقد أساغ الملحدون وجود نواميس محكمة ملازمة للقوى العالمية من أزال الآزال؟

إن الثمرة الضئيلة لا تساوي أن يتعسف الإنسان هذا التعسف كله ليُثبت أمرًا لا يسيغه عقل في هذا العالم.

نعم؛ إن بناء النظريات الجديدة أمر محبب إلى النفوس، تنساق إليه الفِطر ذات المطامح البعيدة، ولكن لو كانت هذه الشهوة النفسية تدفع إلى مثل هذه

المواطن من الخيالات، فيجب وقفها عند حد، فإنها تصبح مذمومة، ولا يجني صاحبها من ورائها غير الخيبة وسوء القالة.

ولكن يلوح لنا أن الذي حفّز كتاب الرسالة لأن يدفع بنفسه إلى هذه المهمة من الخيال المحض، هو أن يتفادى ما يلزم القائلين بوجود النواميس الأزلية المحكمة من الإيرادات، فقد قيل لهم: إن ما تقررونه من وجود تلك النواميس الرياضية المحكمة، ملازمة للهيولى الأولية، هو مظهر الحكمة الإلهية، وإلا فكيف يُعقل وجود قوى منتظمة، تؤدي إلى كائنات غاية في الإبداع، دون أن يكون وراءها عقل أوجدها؟

أراد صاحبنا أن يتقي هذه الإيرادات، فقفز قفزة خيالية باحتة، يرِد عليها من الاعتراضات أكثر مما يرِد على تلك، ويكون موقف المنابذ لها أشد حصانة ومناعة من موقفه حيال جميع النظريات الإلحادية مجتمعة.

قصبة المطبعة ذات المليون حرف:

قال كاتب الرسالة: (إن الصدفة التي تُخضع العالم لقانون عددها الأعظم، تعطي حالات إمكان. ولما كان العالم لا يخرج عن مجموع من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض في وحدات تتداخل وتتناسق، ثم تنحل وتتباعد، لتعود من جديد وتنتظم، وهكذا، خاضعة في حركتها هذه لحالات الإمكان التي يُحددها قانون العدد الأعظم الصدفي. مثل العالم في ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه في الحركة والاصطدام، فتجتمع وتنتظم، ثم تتباعد وتنحل، هكذا في دورة لانهائية. فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب «أصل

الأنواع»، وكذا «القرآن» مجموعًا منضدًا مصححًا من نفسه (كذا)، ويمكننا نتصور أن المؤلفات التي وُضعت ستأخذ دورها في الظهور، خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهائية). انتهى.

ونحن نقول ردًا على هذا الكلام:

إن من الابتلاء المر: أن يَضطر الإنسان في يوم من الأيام للدفاع عن رأيه بمثل هذه الأقوال التي تشذ عن كل قاعدة عقلية وعلمية! وقد فندنا كل ما ذكره الكاتب مما سماه قانون الصدفة الشامل، وبينّا تنافيها مع قوانين الاحتمال بما لا مزيد عليه.

والآن نتصدى لتشبيهه فعل قانون (الصدفة)، وما تخضع له من قوانين الاحتمال، بمطبعة ذات مليون حرف، لكل من وحدات الأبجدية، وقد درج الناس إذا ابتلوا بأقيسة فاسدة على أن يقولوا: هذا قياس مع كل ما يُتخيل من الفوارق.

فكيف يسوغ لباحث أن يُشبه حالة القوى الوجودية العارية من كل قانون، المجردة من كل ضابط، كما يفترضها الكاتب، بآلة ميكانيكية؛ كالمطبعة، قائمة على أدق قوانين الميكانيكا والرياضة، ولها قطع منقوش على رؤوسها حروف تتألف منها صحف، وللمطبعة إسطوانات مكسوة بالغراء، تستمد من محبرة بجوارها حبرًا تنقله إلى الحروف، بحركات مدبرة تدبيرًا محكمًا؟ وهذه المطبعة الميتة لا تغني شيئًا إذا لم يكن لها عمال يُحركونها، ويُدبرون دوراتها، ويراقبون كل خلل يطرأ عليها أثناء العمل؟

إن هذا التشبيه معيب للدرجة القصوى، بل هو غير جائز أصلاً، ومجيئه من باحث ينتمي للرياضيين يزيد في غرابته، ويجعله أطروفة الأعاجيب في عصر المباحثات المدققة، والمقررات المحرّرة.

وأدخلُ من كل ما مر في عالم الأوهام والخيالات، زعم الكاتب أن المطبعة ذات المليون حرف تستطيع تحت تأثير قانون الخبط الشامل، أن توجد جميع المؤلفات التي قام بوضعها العقل البشرى الناقص، أو تنزلت من العلم الإلهي الكامل، فهذا القول لو صدر من جاهل ساذج لاحظ له من أبسط ضروب الثقافة العقلية، لما اغتُفر له بحال من الأحوال، وعيب عليه التلفظ به، فما ظنك وهو صادر من رجل يحمل شهادات علمية راقية؟

ومن عجب أن كاتب هذه الرسالة - اعتمادًا على ما قرره في أمر هذه المطبعة الوهمية - يناقش عباقرة الرياضيين، ويتخيل أنه يُلزمهم الحجة، فيعيب على العلامة الكبير أينشتين تشبيهه الوجود بكتاب، وقوله: (كما أن وراء الكتاب عقلاً ألفه، فكذلك الكون يجب أن يكون وراءه حكيم أوجده)، يعيب عليه هذا القول، ويرد عليه بقوله: (الواقع أن هذا احتمال محض؛ لأنه يصح أن يكون - أي الكتاب - خاضعًا لحالة أخرى، ونتيجة لغير العقل، ومثلُنا عن المطبعة وحروفها، وإمكان خروج الكتب خضوعًا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة).

المدهش المحير للعقل في هذا الرد أنه يعيب على أينشتين قوله إن الكتاب يدل دلالة قاطعة على وجود عقل وضعه، ويدعي أن هذه الدلالة خاطئة، يصح أن يكون نتيجة لغير العقل، أي لقانون الخبط المحض!!

أقسم لولا أني أنقل عبارات الكاتب، لخشيت أن يظن ظان أني أتقول عليه. فهل يحتاج مثل هذا الخبط إلى رد؟

إننا كنا نستطيع أن لا نرد عليه بحرف؛ لأن رسالته تحتمل في ثناياها معاول هدمها، معاول لا يستطيع أبلغ قلم أن يأتي بأشد فعلاً منها، ولكنا خشينا أن يتوهم من لا علم له، أن هذا الكلام فيه أثارة من علم، لاسيما وهو يقول: (إنها تعطي العالم مفهوماً جديدًا، وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التي ألفناها، ومن

هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها، لأن التغير الحادث - أي الذي تحدثه - أساسي، يتناول أسس التصور نفسه).

فكاتب الرسالة لا يخفي أن كلامه يتعذر فهمه، ولكن لا لأنه وهمي محض، بل لأنه يُغير أصول الفهم، ويتناول أسس التصور نفسه، فهو - والحالة هذه - يتطاول إلى إحداث حدث عقلي بوضع أسس جديدة للتصور، بحيث يجعلك لو قرأت كتابًا لا تحكم بأن عقلاً وضعه؛ لأنه قد يكون (كما يقول هو نفسه) نتيجة لغير العقل، أي لقانون (الصدفة) الشامل، ومعتمده في ذلك ما مثّل به من المطبعة ذات المليون حرف!!

وهذه طامة لابد من مناقشة الحساب فيها، وإنا لسائلوه: هل يُستطاع تغيير أسس التصور، وهى ضمن النظام الكوني، وقامت على ما قام عليه الكون كله من الأصول الرياضية الثابتة، والقواعد الطبيعية الركينة، وقد أفنى العلماء أعمارهم في تأسيسها على ما خُلقت له من المنطق العلمي، القائم على اليقينيات العلمية؟ وإذا أمكن ذلك؛ فهل يُرجى خير من قلبها وجعلها صالحة للأخذ بكل خيال يُقدم إليها، والاعتداد بالافتراضات والاحتمالات التي لا تمت إلى العلم بأوهى صلة؟ لتجد كل الخزعبلات والأوهام طريقًا لإفساد عقول الناس بالأوهام التي لا تصدر عن أصل ثابت، ولا تقوم على أساس صحيح؟

إن تغيير أسس التصور على هذا النحو، يعود بالإنسانية إلى العهود المظلمة التي كانت فيها، ويدفع بالناس إلى تيهور[1] من الخيالات، لا يجدون فيه حدًا يقفون عنده.

---

(١) موج البحر المرتفع، والتيهور ما بين أعلى الوادي والجبل وأسفلهما. والجمع تياهير، وتياهر.
انظر: «المعجم الوسيط» (١/ ٩٠).

إن اليوم الذي يقرأ فيه الرجل كتابًا، فيتبادر إلى ذهنه احتمال أن يكون قد صدر عن غير عقل، ولكن بتأثير قانون الخبط الشامل، تحت قيادة نواميس الاحتمال، وأن يكون خرج مرتبًا مجموعًا مصححًا من المطبعة ذات المليون حرف، إن ذلك اليوم يكون فيه التصور الإنساني قد انحل انحلالاً لا يُرجى معه التئام، ووصل من عالم الخبط إلى مكان سحيق؟



ملحد جديد

رد الشيخ مصطفى صبري على رسالة إسماعيل أدهم[1]

وكأن العالم المتخبط في سيره وتطوره لم يكفه أن أنجب فيما مضى «بوخنر» المشهور بتخبطاته في كتابه، ولاسيما في إنكار نظام العالم، واعتباره تخبطًا محضًا في صورة النظام، حتى أتى قبل بضع سنوات بمتخبط جديد غير بعيد أن يكون من رُسل البلشفة الروسية أو التركية الحديثة، إلى مصر التي وجدها مستعدة لترويج المبادئ المضلة الهدامة بين متعلميها، فاجترأ على نشر كتابه الذي سماه «لماذا أنا ملحد؟». والذي لا يجترئ مجترئ على نشر مثله لا في أي بلد إسلامي فقط، بل في أي بلد أيضًا يسود فيه العقل ويُحترم. لكنه اختار مصر لنشر كتابه على نهج قول الشاعر:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كُلاها وحتى سامها كلُ مفلس[2]

---

(١) نقلاً عن كتابه الشهير: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» (٢/ ٤٠٢ - ٤٣٣). وجميع الهوامش منه.

(٢) أثار كتاب هذا الرجل المدعو إسماعيل أحمد أدهم ضجة اطلعت عليها بما كتب رئيس تحرير «مجلة الأزهر» في الرد عليه. وبعد سنة تقريبًا قرأت في الجرائد أنه انتحر غريقًا في ميناء إسكندرية، ولم يخذله الباكون من كتّاب مصر على شبابه ونبوغه المدلول عليه بما عنده من الشهادات العلمية التي نالها في روسيا وألمانيا! وإني بعدما كتبته في هذا المقام من كتابي تعليقًا على نظرية هذا المُليحد ورد الأستاذ رئيس تحرير «مجلة الأزهر» عليه، حكى لي صديقي صادق صبري بك ميرآلاي أركان الحرب سابقًا في تركيا وأحد إخواني المهاجرين منها، معرفته عن كثب بالشباب المنتحر ووالده أحمد بك عند إقامته بالاسكندرية. قال: وكان الوالد يجتمع كثيرًا به ومعه ولده إسماعيل. =

لم يختلف الرجل بكثير في تخبطه وبناء نظام العالم على التخبط، عن إمامه «بوخنر» إمام الملاحدة منذ القرن الثامن عشر الميلادي، بحيث يرد على المأموم ما أوردته قريبًا على الإمام، من الحملات القاضية. إلا أن الرجل مع اقتفاء أثر الأول في إلغاء مبدأ العلية الذي اعتبر علماء الغرب المناقشة فيه وفي أمثاله من المبادئ الأولى هذيانًا وغرابة تختص بالمجانين، حاول أن يزيد في توسيع دائرة الافتراض على نفسه، فيقيم مقام مبدأ العلية والسببية حالات الإمكان والاحتمال التي يحددها قانون العدد الأعظم الصدفي - على تعبيره -، وقلبَ كل ما ذكره عقلاء كل أمة وعلماؤها في استبعاد تكوّن العالم المنتظم بالمصادفة والخبط والاتفاق، من الأمثلة كمثال المليون حرف من الحروف الأبجدية المطبعية المنتشرة على سطح الأرض، ثم ديوان الشعر المتشكل منها بنفسه

= وبعد وفاة الوالد استشاره الولد في السفر إلى الآستانة لطلب العلم في مدارسها، فلم يشر عليه به بسبب أن معرفته باللغة التركية لا تكفيه لدخول المدارس العالية والثانوية، ولا تتناسب سنه مع الدراسة الابتدائية، لكنه سافر غير منتصح بنصحه. ثم لم يلبث بها أكثر من نصف سنة حتى عاد، وكان أمره فيها كما قال حضرة الصديق. وبعد مدة من عودته استغله ملاحدة مصر من المسلمين والمسيحيين، وجعلوا منه فيلسوفًا في أحدث طراز حامل الشهادات من روسيا وألمانيا ومؤلف كتاب لماذا هو ملحد؟ فيُفهم أن هذا الشاب الملحد والدكتور الزائف لم يكن زيف روسيا أو ألمانيا بل زيف مصر، وليس يمكنه في مدة وجوده القصيرة بتركيا إلا أن يلقى فيها بعض ملاحدة الروس أو الألمان وربما الترك أيضًا . . قال صديقي: وقد كتبت ترجمة هذا الشاب الخاسر الحقيقية إلى الصحافي العجوز بالأهرام لما كتب عنه بعد انتحاره عادًا له من نوابغ الدكاترة والفلاسفة، فلم يُصغ إلى كتابي، ولعله لم يصب منه المرغب. هذا، ومع ما يعلم من حكاية صديقي مبلغ الشاب الملحد الذي استقبلته الصحافة المصرية بفضل إلحاده كأحد النوابغ المبكرين. . . مع ما يُعلم منها مبلغ الرجل من استحقاق ذلك الاستقبال، فأستاذ مجلة الأزهر لم ينجح في رده عليه كما سيتبين على القارئ المدقق عند درس الرد».

مصحَّحًا بنفسه من دواوين أيٍ من الشعراء المشهورين شئت من غير ترتيب ولا تصحيح... قلبَ الرجل مثال الاستبعاد هذا، فادعى إمكانه خاضعًا لقانون العدد الأعظم الصدفي. ويعني بالعدد الأعظم على ما أظن: عدد النثرات والتقلبات اللانهائية، وإن كان المثال الذي أورده الرجل لحالات الإمكان والاحتمال من مجيء الدش مرة واحدة في كل ٣٦ مرة من رميات زهر الطاولة، موهمًا لدوران العدد الأعظم الصدفي الذي بنى فرضيته عليه، في العدد المحدود، لأن تحديد العدد الأعظم بالعدد المتناهي مهما كان كثيرًا يضر بفرضية الرجل التي يدعي امتيازها على فرضيات الملاحدة الأوائل، فيلزم أن يبني فرضيته على العدد اللانهائي حتى يضمن لها النجاح في أوسع دائرة الإمكان، كما يدل عليه قوله:

«مثل العالم مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحروف في الحركة والاصطدام، فتجتمع وتنتظم، ثم تتباعد وتنحل هكذا في دورة لا نهائية.. فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع»، وكذا «القرآن» منضّدًا مصححًا من نفسه»!

ولا يحتاج الرجل إلى حفظ ما يحتمل حصوله في كل دورة الحركة والاصطدام من بعض الكلمات المتشكلة الموافقة لكلمات المقالة أو الكتاب، بل يدعي أنه لابد في إحدى دورة من دورات الحركة اللانهائية أن يتشكل كلٌ من المقالة المفروضة أو الكتاب المفروض بتمامه منضدًا ومصححًا من نفسه.. وفي إمكان الرجل أيضًا - بناءً على قانون الاحتمال الأوسع - أن يحذف محرك الحروف وراميها على سطح الأرض منثورة، فيجعل كل دورة من دوران حركتها

رمية من غير رام خالصةً، وقوله: «وقد أخذت هذه الحروف في الحركة والاصطدام. . .» يشير إلى ذلك.

ولا تقل كيف تكون الحركة من غير محرك خارج عن سلسلة الحركات اللانهائية، وكيف يكون الارتماء من غير رام؟ إذ لو كانوا اعترفوا بالمحرك لسقطت دعوى الإلحاد في أولى مرحلتها. والكلام معهم في هذا المقام مقصور على ما إذا أمكن أن يكون نظام العالم غير مقرون بالقصد كما يقولون، فلا يدل على إدارة عليمة ولا يتم دليل العلة الغائية، أو لم يمكن ذلك إلا أن يكون مقرونًا بالقصد، فيستلزم وجود ناظم ويتم دليل العلة الغائية كما نقول نحن.

فالرجل ينازعنا في دليل العلة الغائية بسعيه لتخلية نظام العالم عن القصد والعلم، كما نازع فيما مضى إمامه «بوخنر» ساعيًا لذلك. وكان إمامه يحيل التنظيم على اصطدام أجزاء العالم وعناصره بعضها مع بعض، ويعتبره كمعدِّل من نفس الأجزاء والعناصر المصطدمة، فيرينا شيئًا من أسلوب التنظيم مهما أغرب في ذلك، وهو لا يبتعد من طريق العقل ابتعاد تلميذه الذي تشجع فوق الأستاذ وأمعن في الاعتصام بالمصادفة المحضة، وناط كل تعويله بتوسيع دائرة الإمكان، وتكبير العدد الأعظم الصدفي (على تعبيره) لحد أن أصعده إلى اللانهاية.

والرجل يقلب ما استدل به الفيلسوف «آنشتاين» على وجود الله قائلاً: «مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتي بكتاب قيّم لا يعرف عنه شيئًا، فلما أخذ في مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكري، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئًا غامضًا لا يصل إلى كنهه، وهو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقري أبدع هذا الكتاب. كذلك نحن إزاء العالم، نشعر بأن وراء نظامه شيئًا غامضًا لا تصل عقولنا إلى إدراكه، وهذا الشيء هو الله».

فيقول الرجل معاكسًا للفيلسوف: «يحتمل أن يكون الكتاب المذكور خاضعًا لحالة أخرى ونتيجة لغير العقل، بأن تألف من نفسه ورُتبت حروفه من نفسها، وطُبع من نفسه، فخرج مجموعًا منضَّدًا مصححًا من نفسه من غير مؤلف مفكر في معناه و، من غير ناسخ لألفاظه، ثم من غير مرتِّب لحروفه وطابع، ويحتمل أن يكون هذا الأثر هو المقال الذي تتلوه الآن أو «القرآن» قرآن المسلمين، أو كتاب «أصل الأنواع» لدارون قرآن أناس ينتفي نسبهم إلى الحيوانات. وهذا كله مبني على أن المصادفة التي تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطي حالات، فيمكننا أن نتصور المؤلفات الموضوعة ستأخذ دورها في الظهور خاضعة لحالات إمكان واحتمال في اللانهائية، فيحتمل أن يأتي زمان تصدر فيه الكتب من نفسها من غير مؤلف ولا طابع».

وترى الأستاذ فريد وجدي مدير «مجلة الأزهر» ورئيس تحريرها يكاد يتميز تعجبًا من نظرية هذا الملحد الجديد، التي لا يضبطها ضابط ولا يقيسها مقياس. وأي ضبط يُتصور لقانون الخبط؟ ولا يدري الأستاذ كيف يرد عليه تلك النظرية التي تجدر بأن تعد من نتائج قانون الخبط. ولا محل عندي لتعجب الأستاذ، فعلى نفسها جنت براقش!

ومن يدري أن لا يكون الرجل اطلع على كتابات الأستاذ قبل بضع سنين، قبل توليه الوظيفة الأزهرية عن مدح الإلحاد، لحد أن يراه رمز الثقافة والنبوغ، ويدعي كون نوابغ الكتاب والشعراء في البلاد الإسلامية من معتنقي الإلحاد مستبطنين له، ومكتفين بالسعي في تهيئة أذهان الناس لقبوله دسًا في مقالاتهم وقصائدهم إلى أن يصلوا إلى درجتهم العلمية؟ فليس بمستبعد إذن أن يكون رسول البلشفتين اللتين لا يزال الأستاذ يحبذ إحداهما ويهتف بها، رأى الجو بمصر متهيئًا لعرض ما ابتدعه من نظرية الإلحاد الطريفة المتطرفة، رجاء أن

يدخل أو يُدخله الأستاذ في عداد نوابغ الكتاب الشرقيين الإسلاميين![1]

ولا تجدي اشتغالات الأستاذ اليوم في نقد كتاب المُليحد بإعظام ما فيه من سقط الخيال وغرابة الرأي، أو بالاعتراض على مواضع فرعية منه، كقوله على ضربه مثلاً من وجوه زهر الطاولة متمسكًا بأن الدش مثلاً لابد من مجيئه مرة واحدة في كل ست وثلاثين رمية: «إنه يغفل عن أن وجوه الزهر قائمة على شكل هندسي وأعدادها معينة مكتوبة الخ»، وقوله على مثال الحروف المطبعية التي يدعي الرجل حصول كتاب معين من حركاتها وتقلباتها في دورة من دوراتها اللانهائية: «كيف يسوغ لباحث أن يشبِّه حالة القوى الوجودية العارية من كل قانون، المجردة من كل ضابط كما يفترضها الكاتب، بآلة ميكانيكية كالمطبعة، قائمة على أدق قوانين الميكانيكا والرياضة، ولها قطع منقوش على رؤوسها

---

(١) لكن الملحد الشاب غفل عن أن الأستاذ مدح المستبطنين للإلحاد، واعتبرهم نوابغ الكتاب والشعراء، لا الجاهرين به الناشرين كتابًا باسم «لماذا هو ملحد؟»، ولذا كتب الأستاذ الزيات ناشر مجلة «الرسالة» وصديق الشاب الخاسر لما مات منتحرًا في أحضان البحر بالإسكندرية: «إن الملحد مهما كان يعيش في الغرب فإنه لا يعيش في الشرق؛ لأن الإلحاد ظلام والظلام لا يعيش في النور».
ويُرد عليه أن في مصر ملاحدة من المسلمين والمسيحيين لا يمكن إنكارهم، كما اعترف بهم الأستاذ فريد وجدي في مقالته القديمة، وهم يعيشون كما يعيش الناس، وفوق ما يعيش الناس. فالوجه المعقول في تحرير مراد الأستاذ الزيات أن الشرق يعيش فيه مستبطنو الإلحاد، أي المنافقون، ولا يعيش فيه الملحد المجاهر. ولكون المنتحر مجاهرًا في إلحاده، والعائشين فيها منذ عهد مصطفى كمال عيشة أرغد بكثير من عيش المؤمنين هناك، فجوابه أن تركيا الجديدة خارجة عن الشرق في رأي أولئك الكتاب، ملحقة بالغرب بأمر تكويني من مصطفى كمال! ولا مراء في خروج تلك البلاد بعد إعلان الجمهورية اللادينية عن الشرق الإسلامي الذي كلامنا وكلام الأستاذين فريد وجدي والزيات - لاسيما كلام الأستاذ فريد وجدي - فيه. (منه).

حروف تتألف منها كلمات، وهي مفصلة تفصيلاً هندسيًا، بحيث يقوم بعضها إلى جانب بعض، فتؤلف منها صحف. وللمطبعة أسطوانات مكسوة بالغراء، تستمد من محبرة بجوارها حبرًا تنقله إلى الحروف بحركات مدبرة تدبيرًا محكمًا».

يُفهم من تفصيل الأستاذ هذا عن انتظام أدوات الطبع أنه لم يفهم مراد الملحد الصغير في تمثيل العالم بمطبعة، فظن أنه يُشبّه تكون العالم المنتظم بنفسه من غير ناظم، بمطبعة تشتغل على أصولها الموضوعة بأدواتها المعلومة فتُصدر مطبوعاتها بانتظام واطراد. مع أن المُليحد لم يأخذ من المطبعة إلا حروفها البالغة ملايين، ثم فرض أنها تتحرك بنفسها، وتصطدم فتجتمع وتنتظم، ثم تتباعد وتنحل هكذا، كل ذلك بنفسها حتى تُخرج كتابًا منضدًا مصححًا من نفسه، فليس ما اعترض عليه الأستاذ من كلام الكاتب الشاب محل الاعتراض، ولعله كما لم يفهم مراد الكاتب، لا يعلم أن هذا التمثيل بحروف مطبعية تتنضد من نفسها دون منضد فيحصل منها كتاب كامل، معروف بين القائلين بالإله الخالق يأتون به مثال استبعاد لتكوّن نظام العالم بنفسه من دون ناظم، فسعيُ الأستاذ لتقريب هذا المثال من العقول يضرّ بهم - أي بأصحاب المثال - لا بالكاتب الشاب المتمسك بنظرية الإمكان والاحتمال التي يفترضها على أوسع ما يتصور.. حتى إنه يُدخل كل مثال ذكره الفلاسفة المؤمنون بالله في هذا المقام لما لا يحتمل ولا يكون، كمثال الحروف المطبعية المتحركة بالحركات الفوضوية إلى أن تصير كتابًا من الكتب المعروفة - فيما يحتمل ويكون. ومن هذا لا يُقال أيضًا ردًا عليه كما قال الأستاذ فريد وجدي:

«لو سلمنا جدلاً أن قوانين الاحتمال حاولت مرة أن تُوجد كائنًا منتظمًا، فهل نستطيع أن نعقل أن القوى العالمية الثائرة تدعه يتكون في هدوء وسكون، ولا

تعدو عليه فتُفسده قبل أن يتم تكوّنه؟ ما الذي يمنعها من العدوان عليه، بل ما الذي يمنع قوانين الاحتمال من توليد كائن آخر منتظم بجواره يناقضه ويحرمه أن يتطور إلى أن يبلغ حد الكمال؟».

إذ ربما يقول الشاب الملحد في جوابه: إن الإمكان والاحتمال نفسهما يمنعان القوى العالمية الثائرة أن تعدو على العالم المنتظم بتنظيم الإمكان، والاحتمال المتكون في هدوء وسكون، وهما نفسهما أيضًا يمنعان نفسهما من توليد كائن آخر منتظم بجواره يناقضه ويحرمه أن يتطور إلى أن يبلغ حد الكمال. لأن الإمكان والاحتمال أمران ذوا طرفين من الإيجاب والسلب، أو الحركة والسكون، للمتوسل بهما أن يستمد من طرفهما الذي يساعده ويحلو له ما ساعده وما حلا له، حتى إذا لم يساعده ولم يحلُ له يدع هذا الطرف ويستفيد من طرفهما الآخر، فهو يفرض ولا يمنعه قانون الإمكان والاحتمال الأوسع أن يفرض أن الفوضى العامة الداخلة في دائرة الإمكان سادت في العالم، فارتبكت أجزاؤه وعناصره، وهاجت وماجت واصطدم بعضها ببعض، وتداخلت وتناسقت، ثم انحلت وتباعدت، ثم عادت من جديد فانتظمت شيئًا، ثم انحلت وتفرقت وعادت وانتظمت شيئًا آخر، وهكذا إلى تشكل عالم من طريق المصادفة كعالمنا في الانتظام التام. ولا تقل كيف يحصل هذا الأمر المستبعد، لأن الفارض لاشك أنه يُسلم بكون ما فرضه مستبعدًا غاية الاستبعاد. ولكن قل هل: هو ممكن أو محال؟ وصاحب الفرضية يدعي أنها ممكنة وليست بمستحيلة؛ لأن دائرة الإمكان ودائرة الصدفة التي تخضع العالم عنده لقانون عددها الأعظم، أوسع مما يتصوره الأستاذ فريد وجدي، وهذا القانون قانون الصدفة (على تعبيره) في عددها الأعظم الذي يستمر في الثورة وفي البناء والهدم إلى أن يتشكل العالم في انتظامه، يُمكنه أيضًا ويُمكّنه عدده الأعظم أن ينهي ثورته

الهدامة، ويميل إلى الجانب الآخر، فيسير بعده في انتظام كانتظام العالم الحاضر، ولكن في انتظام، مستند أيضًا إلى المصادفة لا إلى غيرها.

هذا، وأنا عارف بأن المُليحد يتلاعب بعقول الشرقيين، لاسيما عقول المسلمين الذين أثبتت الحاثات العالمية الأخيرة وانقلاباتها أن التلاعب بها ليس من صعاب الأمور، كما كان يُظن من قبل، ولاسيما في مصر التي رأينا بها الأستاذ فريد وجدي نفسه عبّد طريق التلاعب بها في تطوراته المختلفة. أنا عارف بذلك، ولكني عارف مع ذلك أن موقف الملحد الشاب المستمد في نضاله القوة من أوسع دائرة الإمكان والاحتمال، ومن عدد الصدفة الأعظم، ومن الدورات اللانهائية لها، لا ينجع أمامه دفاع الأستاذ فريد الذي يأخذ كل قوته من الاستبعاد لافتراضات المُليحد.. مع أن الاستبعاد لا يقاوم الإمكان ولا يقابله لما أن نطاقه الأوسع يسع كل مستقرَب وكل مستبعد، حتى لو قيل في الرد عليه: إذا كان العالم في طريقه إلى التشكل المنتظم بواسطة الثورة والفوضى، وفي بقائه بعد تشكله على حالة الانتظام، تابعًا في كل ذلك لقانون الصدفة والإمكان والاحتمال، غير خارج عنه، فيلزم أن نبيت كل ليلة ونحن غير واثقين وغير آمنين من احتمال أن لا تطلع الشمس علينا في غدها، ما دام نظام العالم من أوله إلى آخره تابعًا لهوى الصدفة، وما دام هواها يسع كل احتمال قريب أو بعيد أو أبعد، فنفقد النهار إلى الأبد، ونعيش في ظلام دائم، أو يفاجئنا أحوال أخرى أشد من ذلك هولاً... لو قيل هكذا كان في إمكانه أن يجيب ويزيل المخافة معتمدًا على الاحتمال النافع من احتمالات الصدفة التي تعوّد العالم مواتاتَه إلى الآن لصالحه، أي صالح ذلك الاحتمال النافع.

ولا تقل كما أن من الاحتمال ما هو نافع للشاب المتمسك بالإمكان والاحتمال في تأسيس نظام العالم على مصادفاتهما، فهناك أيضًا ما هو ضار،

بل الاحتمالات الضارة أكثر بكثير من الاحتمال النافع الذي هو واحد في ٣٦، أي العدد الأعظم التقريبي بالنسبة إلى وجوه زهر الطاولة.. وعلى تقرير أن يكون المطلوب مجيء الدش والعدد الأعظم التقريبي هنا حاصل ضرب الستة في الستة، وكلما زيد العدد المضروب والمضروب فيه ازدادت الاحتمالات الضارة، أي غير المطلوبة كثرة، وازداد الاحتمال المطلوب الذي هو واحد دائمًا من مجموع الاحتمالات، قلة وبُعدًا: فقد يكون واحدًا في المليون وقد يكون واحدًا في البليون أو في أكثر منه أيضًا، بل قد يكون واحدًا في احتمالات غير متناهية. فلماذا إذن لا يخاف الملحد الصغير من الاحتمالات الكثيرة الضارة لفرضيته، حينما نخاف نحن من احتمال واحد موافق لها؟ لا تقل هكذا ردًا عليه، ولا تثق بمثل هذا الرد الذي يشبه ردود الأستاذ رئيس تحرير «مجلة الأزهر»؛ لأن موقف الشاب صاحب الفرضية في النقاش موقف «المانع»، وموقفنا إزاءه موقف «المثبت» أو «المعلل» على تعبير علماء آداب البحث والمناظرة (والمنع هنا بمعنى عدم التسليم)، والمانع يكفيه احتمال واحد يساعده، ولا يكفي المثبت احتمالات تساعده مهما كثرت وبلغت الملايين، ما دام احتمال واحد يبقى في جانب الخصم المانع، وإن كان ذلك الواحد واحدًا في المليون أو البليون أو في أكثر منه أيضًا. فهذا ما لا يفهمه الأستاذ رئيس التحرير حين تمسك باستبعاد فرضية الملحد الجديد، وحين عاب عليه إلحاده، وسط هذه الاحتمالات المعارضة، ولم يدرِ أن الملحد لا يحتاج في ضلاله إلى الإيقان بما يجعله ملحدًا، بل يكفيه الشك في الإيمان بالله، متمسكًا بأضعف احتمال وأبعده. أما نحن المؤمنين المثبتين لوجود الله بواسطة إثبات القصد والإرادة والعلم في نظام العالم، فواجبنا قطع جميع الاحتمالات المخالفة لما نحاول إثباته، من دون بقاء أي احتمال في خارج الاحتمالات المقطوعة.

ولأجل ما ذكرنا كان استشهاد الأستاذ رئيس تحرير «مجلة الأزهر» بقول الرياضي المشهور «هانري بوانكاريه»: «الحقيقة العلمية في نظر المشاهد السطحي تعتبر خارجة عن متناول الشكوك، وعنده أن المنطق العلمي غير قابل للنقض، وأن العلماء وإن أخطئوا أحيانًا فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يرعَوا قواعده، والحقائق الرياضية في نظره مشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ، وهي واجبة في رأيه ليس علينا فقط، ولكن على الطبيعة أيضًا «تأمل»[١].

«وهذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة، وها هو جهد فهمهم للدور الذي تؤديه التجربة والرياضيات، وها هو أيضًا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مائة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة».

«ولكن لما تروّى العلماء قليلاً لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ورأوا أن الرياضي نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها، وأن التجربة لا تستغني عنها كذلك. حينذاك سأل بعضهم بعضًا: هل كانت هذه المباني العلمية على شيء من المتانة؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تكفي لجعل عاليها سافلها، فمن ألحد على هذا الوجه «تأمل»[٢] كان سطحيًا أيضًا».

غير مفيد للأستاذ شيئًا في محل نقاشه الكاتب الُمليحد، وإن كان شاهدًا قيمًا في كبح جماح المكبّرين للعلم الطبيعي الحديث، لحد أن يحتكموا إليه حتى في

---

(١) الأمر بالتأمل من الأستاذ فريد وجدي لا منا.

(٢) الأمر بالتأمل من الأستاذ فريد وجدي لا منا.

المطالب المتعالية عن الدخول في موضوعه، وفي كبح جماح الطائشين من أهل الشرق، المستهينين بدين الله ومعجزات أنبيائه افتتانًا منهم بعلوم الغرب، التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل.. قلنا غير مفيد للأستاذ فريد شاهده، لأن الكاتب الشاب الذي يناقشه لا يبني نظريته على قوانين العلم، بل على قانون الصدفة الواسع الصدر. وإذا أورد قول ذلك العالم الرياضي شاهدًا ضد الإلحاد العصري، فإنما يورد على الملاحدة البالغين في إلحادهم مبلغ أن يقولوا «أفي الإلحاد شك؟»، ولسنا نحن بصدد إثبات وجود الله، بحيث أن يكفينا أن نلقي الشبهة في عقيدة الملاحدة، بل موقفنا يحتم علينا قطع جذور الشبهات عن عقيدة التصديق بوجود الله قائلين: «أفي الله شك؟»، لكن الأستاذ فريد وجدي لا يميز بين الموقفين: موقف الدفاع عن قضية «أفي الله شك؟»، وموقف الاعتراض على قضية «أفي الإلحاد شك؟». فالأولى قضيتنا وليست الثانية قضية الملاحدة، بل أعم منها وأسهل، إذ الإلحاد لا حاجة له إلى الإثبات الذي يُزيل كل شبهة عنه، فقد يكفي الملحد في النيل من المؤمن تشكيكه في وجود الله كما فعل الملحد الصغير، ولا يكفي المؤمن ضد الملحد إلقاء الشك في عقيدة الإلحاد؛ إذا الإلحاد يجتمع أيضًا مع عدم العقيدة مطلقًا.

فالحاصل أن موقف المؤمن أدق بقدر ما هو أشرف، حتى إن أحدًا لو كانت عقيدته في نظام العالم مثلاً أن يكون استناده إلى وجود ناظم صنعه بعلمه وإرادته، ملائمًا كل الملاءمة للعقل، مع تجويز احتمال عدم استناده إليه، مهما كان هذا الاحتمال أضعف وأبعد بالنسبة إلى الاحتمال الأول، فتكون دلالة نظام العالم عنده على وجود الله في درجة الظن الغالب.. لو كانت عقيدة أي أحد في نظام العالم هكذا - وربما يوافق ذلك عقيدة كثيرين من المتعلمين العصريين - فلا تُعد هذه العقيدة إيمانًا بوجود الله؛ لعدم كون هذا الوجود

المعترف بوجوده واجب الوجود، بل مظنون الوجود ومأموله، في حين أن ميزة الله بين الموجودات أن يكون وجوده واجبًا أي ضروريًا لا احتمال لعدم وجوده. ومن هذه الضرورة قلنا نحن المؤمنين بوجوده من دون أن نراه. فما يحتمل أن لا يكون موجودًا ولو احتمالاً واحدًا في مائة ألف مليون، فليس هو الله، وليس المؤمن به مؤمنًا بالله.

ومثل قول «هانري بوانكاريه» في عدم النفع للأستاذ فريد وجدي في محل نقاشه الخصم المُليحد، وفي كونه شاهدًا قيمًا جديرًا بأن أضيفه إلى شواهد أوردتها فيما سبق تأييدًا لبعض أبحاث هذا الكتاب، قول السير «وليم كروكس» رئيس المجمع العلمي البريطاني، ومن أقطاب العلم العصري، وقد استشهد به الأستاذ فريد وجدي أيضًا هنا: «متى امتحنا من قريب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية، نبدأ بإدراك أنه إلى أي حد محصورة هذه النتائج أو النواميس كما نسميها في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم؟ أما أنا فإن تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حدًا بعيدًا. فقد تقبض عندي هذا النسيج العنكبوتي للعلم كما عبر به بعض المؤلفين إلى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تُدرك».

أما رد الأستاذ فريد وجدي على ما نقل الشاب الملحد عن «كانت»: «أنه لا دليل عقلي أو علمي على وجود الله، وأنه ليس هناك من دليل علمي أو عقلي على عدم وجود الله»، بقوله: «لا أظن أن الدكتور صاحب الرسالة «الإلحادية» يجهل تاريخ الفيلسوف «كانت» الذي يصفه بأعظم فلاسفة العصور الحديثة، أن هذا الفيلسوف كان من أكبر المؤمنين بالله وبالروح وخلودها من طريق التحليل العلمي والفلسفي».

فليس غير مفيد له فقط، بل مضر أيضًا؛ لثبوت كون الفيلسوف «كانت»

ويالأسف قائل ذلك القول الذي ينفيه الأستاذ عنه، بشُهرة لا يمكن معها إنكاره، ناهيك أن هذا الفيلسوف انتقد جميع أدلة إثبات الواجب، وهو معروف عند من لا يجهل فلسفته، إن لم يكن معروفًا عند من لا يجهل تاريخه[1] ومن

---

(١) عدم معرفة الأستاذ فريد وجدي بالصورة الصحيحة لفلسفة «كانت» الإلهية المشهورة، على الرغم من أن الإكثار في النقل عن فلاسفة الغرب مهنة الأستاذ الذي يمتاز بها، يرينا كونه سطحيًا في مهنته غير ضليع ولا متثبت. قال الفيلسوف الفرنسي «بول ثرانه» في تاريخ فلسفته الذي أسماه «مطالب ومذاهب» ص٢٥٩ من الترجمة التركية: «اعتبر «كانت» جميع الأدلة النظرية لوجود الله من الأوهام؛ لكونها أدلة منسوبة إلى ما وراء الطبيعة، وأقام مقامها دليلاً اعتمد عليه وسماه الدليل العملي أو الأخلاقي»، وصرح به في ص٢٨٨ أيضًا، فعدم معرفة الأستاذ بذلك مما يُتعجب منه. وهذا ما يتعلق بمهنته من المأخذ، أما عدم معرفة من يرأس تحرير «مجلة الأزهر» بموقف الفيلسوف المشهور «كانت» من أدلة وجود الله النظرية، التي هي أدلة إثبات الواجب الحقيقية، وباعتراضاته عليها التي أصبحت ولا تزال منذ عصر «كانت» أسلحة مشهورة بأيدي أنصار الإلحاد ضد الإيمان بالله إيمانًا علميًا، والتي أصبحت مكافحتها من أقدم واجبات المدافعين في الأعصر الحديثة عن مسألة وجود الله، فهو أليم فوق أن يكون عجيبًا. وقد صرح «بول ثرانه» أيضًا في مبحث المعرفة من كتابه المذكور بأن الفلسفة الإثباتية تستند إلى الشطر السلبي لفلسفة «كانت»، والفلسفة الإثباتية معروفة بين كتاب مصر العصريين باسم الفلسفة الوضعية، وقد سبق أن لفتنا إلى تنويه الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدي بتلك الفلسفة بهذا الاسم، وأيًا كان اسمها في فلسفة «أوجست كونت» الذي سبق منا أيضًا بعض الشيء عن ترجمته وفلسفته، وهي اليوم آخر شكل الإلحاد في الغرب، كما أنها الفلسفة التي بواسطتها دخل الإلحاد في الشرق العصري، وقد سهل دخوله فيه على ما أظن امتياز هذه الفلسفة الملحدة بأمرين:

الأول: استنادها إلى أحد شطري فلسفة «كانت»، الذي لا يُتهم بالإلحاد، ومع هذا فإني قد نبهت من قبل وما نبهت عبثًا أن في عاتق هذا الفيلسوف قسطًا من تبعات ضلال العصريين الشاكين في مسألة وجود الله.

والثاني: أن الله تعالى لا يُثبت عند أصحاب الفلسفة الوضعية ولا ينفى، فقد يجذب =

هذا كانت مناقشة «كانت» الحساب على فلسفته الإلهية مما عني به كتابي هذا. أجل إن هذا الفيلسوف مؤمن بوجود الله تعالى، لكن لا من طريق العقل النظري بل من طريق أخلاقي، أو كما يسميه من طريق العقل العملي، وسنتكلم عليه أيضًا. ولعل الأستاذ يلتبس عليه الطريقان كما يدل عليه ما نقله عن قاموس «لاروس» في تأييد مدعاه عن «كانت»، بما نصه: «شرع الفيلسوف في إصلاح مجموع المعارف الإنسانية، فبدأ عمله على أسلوب التشكك، وبنى عليه الوصول إلى الحق اليقين بواسطة العقل العملي والناموس الأدبي، واستنتج من

= إلحادهم الظاهر في مظهر الاعتدال أنصاف العلماء وأنصاف العقلاء من المسلمين المفتونين بالغرب، مع أن الإسلام الذي يعلو ولا يعلى عليه أكيس من أن ينخدع بالإلحاد في أي شكل من أشكاله، كما أن المسلم لا يرضى بالله المنفي والله الغير المثبت على السواء، والذين لا يثبتونه ولا ينفونه من أصحاب الفلسفة الوضعية يُعرضون عنه وعن بحثه إعراضًا، كما يدل عليه قول زعيمهم «أوجست كونت» بأن الدين حالة ابتدائية في الإنسان من حالاته الثلاث، وحالته المتوسطة اشتغاله بما وراء الطبيعة، أما حالته الثالثة الكمالية فاشتغاله بالعلم وانصرافه عن حالتيه الأوليين، واهتمامه بتجريد العلم من صبغة الدين. وقد كان شطب اسم الله من أوائل الكتب في الأزمنة الأخيرة من مأثورات الفلسفة الوضعية، كما أن القاعدة القائلة «بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به»، التي يتمسك بها الأستاذ رئيس تحرير «مجلة الأزهر» في كل مناسبة، قانون أساس لهذه الفلسفة، ولذا أدى تمسك الأستاذ بهذا القانون الأساس إلى عدم اقتناعه بأدلة وجود الله العقلية التي اقتنع بها علماء الشرق والغرب، وإلى تعليق إثبات وجود الله بما ينتظره من كشفيات البحوث النفسية الجارية في الغرب! وليس معنى هذا إلا أن إلحاد الفلسفة الوضعية مستولٍ على قلب الأستاذ، مع قانونها الأساس، فموقفه الحالي كموقف الإثباتيين، لا يُثبت الله ولا ينفيه. ومن الغريب أن موقف الملحد الصغير الذي يناقشه الأستاذ، والذي خلاصة نظريته عدم الاقتناع بوجود الله - لا إثبات عدم وجوده كما أشرنا إليه من قبل - عين موقف الإثباتيين الوضعيين وموقف الأستاذ نفسه، ولا فرق بين الأستاذ والملحد الصغير، إلا أنه يعرف كون موقفه الإلحاد، ولا يعرف الأستاذ كون موقفه كذلك، فيُناقش من يعرف موقعه!

ذلك وجود الخالق وخلود الروح». فالأستاذ يدعي إيمان «كانت» بالله من طريق التحليل العلمي، وما نقله عن «لاروس» يدل على كون إيمانه بواسطة العقل العملي والناموس الأدبي!

ومما لا ينفع الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر من أقواله عند مجادلة خصمه، ولا يخلو عن الدلالة على عدم صحة وقوفه على فلسفات الرجال، وعن الدلالة على عدم تمحيصه لهذه المسائل التي يزاولها ويجادل فيها، قوله:

«فإذا كان العالم يرمي ببصره إلى أبعد ما اتصل إليه قوى التلسكوب، فلا يصادف غير نظام قائم على أدق أصول العلم الرياضي، فلا حق له أن يستنتج منه أن العوامل التي صدر عنها الكون لا يسودها غير الخبط المحض؛ لأن سيادة النظام الرياضي الآلي في كل مكان لا يسمح له بذلك، ولكن يوجب عليه ضده، وهو أن الكون يجري على نظام محكم تسوده عوامل محكمة النظام إلى أقصى ما يتخيله التصور.

وجميع ملاحدة العالم قديمًا وحديثًا بنوا إلحادهم لا على أن العامل الرئيس في العالم هو الخبط، ولكن على أنه وليد نظام آلي محض، لا يصدر عنه إلا ما هو آلي منتظم كل الانتظام. فقد قال «بوخنر» إمام الملحدين: «ما دمنا لا نرى في كل مكان غير نوامس منتظمة تصدر عنها كائنات منتظمة، فلا داعي يدعونا إلى افتراض وجود سبب عاقل أوجدها»، وغفل عن أن هذه النواميس مظاهر لسبب عاقل أوجدها».

وفيه أن هذا طور «لبوخنر» وغيره من الملاحدة في مذهب الإلحاد، ثم ترقوا منه أو رجعوا عنه إلى إنكار النظام بالمرة؛ لما رأوا أن الاعتراف بنظام آلي - وبعبارة أخرى ميكانيكي - يضطرهم إلى الاعتراف بوجود صانع صنع ماكينة العالم المنتظمة بالعلم، ككل ماكينة وآلة منتظمة، وقد سبق منا بيان هذا

الاضطرار منهم في أحد الفصول المتقدمة. فلا يصح قول الأستاذ بعده: «ولكن «بوخنر» لا يستطيع أن يقول كما قال الدكتور صاحب الرسالة: إنه ما دمنا لا نرى إلا نواميس منتظمة فلا مانع أن تكون هذه النواميس حالةً لكون منتظم، أوجده سبب أول هو ناموس الخبط المحض».

وصاحب الرسالة لا يقول هكذا، ولا يستنتج ناموس الخبط والتصادف من كون العالم جاريًا على نواميس منتظمة، بل ينكر وجود النظام، ويدعي أن ما يرى في العالم من صورة النظام يحتمل أن يكون حاصلاً بطريق المصادفة. وقد قال «بوخنر» أيضًا بما يشبه قول صاحب الرسالة في بناء نظام العالم على المصادفة والفوضى، واشتغلنا فيما سبق بنقله ونقده[1].

الحاصل: أن الأستاذ رئيس تحرير «مجلة الأزهر» يجادل الملحد الجديد غير محيط فهمًا بما أسس عليه نظريته، فالأستاذ يعترض عليه باستبعاد ما يقوله، وهو يتوسل إلى ما قاله بالإمكان العقلي، ولا يدعي أن الأمر كان كذا بتاتًا حتى يُعترض عليه بأنه مستبعد جدًا، وإنما يدعي عدم كونه في خارج الإمكان مهما كان بعيدًا... أو غير محيط علمًا بما يكون لمبلغ الاحتمال والإمكان العقلي في حد ذاته من السمة - كما علمت ذلك من الأستاذ عندما أنكر معجزات الأنبياء، وجرت بيني وبينه مناظرة فيما مضى من أجل ذلك - فيتكلم مع خصمه على مقياس الإمكان العادي، في حين أن خصمه يتكلم في ظني على المنهج الذي هو أساس علم الهندسة من أن كل ما ليس بمتناقض فهو ممكن، فيدعي

(١) وأصل شبهتهم أنهم لا يرون الإله الخالق للعالم ونظامه بعين رؤوسهم، ولا يصلون إليه بتجاربهم المادية؛ فينكرون وجوده أو على الأقل لا يقتنعون بوجوده ثم لا يرون له ناظمًا أيضًا، فيقولون نظام بدون ناظم، وذلك قولهم بالقوانين الطبيعية، ثم يأخذون يعلمون أنه لا يكون نظام بدون ناظم، فينكرون النظام أيضًا ويقولون بالمصادفة.

معتمدًا على هذا الأساس الأوسع احتمال أن يكون ما نراه في صورة نظام العالم نتيجة تطورات المصادفة وتقلباتها، غير مستند إلى سبب عاقل أوجده قاصدًا لانتظامه، وهو أي خصم الأستاذ يرى قانون عدد الصدفة الأعظم مسيغًا لذلك الاحتمال، استدلالاً من وجوه زهر الطاولة الدائرة على قانون الصدفة، ثم ارتقاءًا منه إلى مثال الحروف المطبعية المتحركة جزافًا، المصطدمة بعضها ببعض، المتشكلة في أشكال مختلفة، إلى أن يحصل منها صفحات كتاب من الكتب المعروفة، منضدة مصححة، وكل ذلك من قبيل الاحتمالات الممكنة.

وزيادة على هذا؛ فإنه يعضد فرضيته بإحالة حصول الشكل المطلوب على إحدى دورة من دورات الحركة اللانهائية الجزافية، فكلما اعترض عليه في أي دورة من أدوار الحركة الفوضوية بعدم حصول الكتاب المنتظر، فله أن يجيب بأن أمامه من الزمان ما لا نهاية له، فمن الممكن حصوله في المستقبل إن لم يحصل في الحال، وهو يرى ذلك ممكنًا مهما كان بعيدًا ما دام عنده من الوقت ما لا ينتهي. وقد علمت منا أن الإمكان المجرد إلى حد التمسك باحتمال واحد في الملايين أو البلايين، أو فيما لا يحصى ولا يتناهى من الاحتمالات يكفي صاحب الرسالة.

فيجب لكسب المسألة المنازع فيها حيال خصم كهذا، أن يُنفى الإمكان الذي يبني نظريته على نطاقه الأوسع، وذلك بإثبات أنه لا سبيل إلى الاحتمال الذي يتمسك به، وهو ليس باحتمال أبعد فقط، بل احتمال محال متضمن للتناقض، وإليك البيان:

أما أولاً:

فقوله: «مثل العالم مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف وقد أخذت هذه الحروف في الحركة والاصطدام الخ»، يردُ عليه: لماذا

أخذت الحروف في الحركة والاصطدام من غير محرك؟ وقد كان في الإمكان الذي بنى صاحب الرسالة كل فرضيته عليه أن تتحرك وأن لا تتحرك بناء على عدم المحرك، وهي بالنسبة إلى ذاتها قابلة للحركة والسكون من غير أن يكون أحد الحالين راجحًا لها لذاتها، بل متساويين، فإذن: هذه الحركة المفروضة بدون محرك من الخارج تكون رجحان أحد الحالين المتساويين على الآخر من غير مُرجّح من الخارج؛ لعدم وجود المحرك في مفروض صاحب الرسالة، ولا من نفس الحروف؛ لكونها قابلة للحركة والسكون على السواء، فلو كانت لحركة الحروف مُرجح من نفس الحروف كانت الحركة واجبة لها والسكون مستحيلاً، فثبت أنها إذا تحركت كانت حركتها رجحانًا من غير مُرجح، وهو محال؛ لتضمنه وجود المرجح وعدم وجوده معًا[1]، وهكذا يقال في العالم الغير المنتظم المفروض حركته بنفسه، والمفروض حصول الانتظام المشهود له مصادفة في إحدى دورات حركته الجزافية اللانهائية: إن حركته بمحرك من الخارج خلاف مفروض صاحب الرسالة، وحركته من دون محرك رجحان من غير مرجح، وإنه محال[2]، بل نقول إن حصول الانتظام المطلوب في إحدى

---

(١) وتأليف قولنا إن الحروف قابلة للحركة والسكون وإنهما ممكنتان لها، مع قولنا باستحالة الحركة لكونها رجحانًا من غير مرجح، أن الحركة مستحيلة بدون المحرك وممكنة مع المحرك.

(٢) لا يقال سبب كل دورة من دورات حركة العالم هي الحركة التي تقدمتها، من غير انتهاء إلى الحركة الأولى التي لا حركة قبلها، فيستند كل دورة من دورات الحركة إلى السبب ولا يلزم الرجحان من غير مرجح. لأني أقول في جوابه: إن هذا محال من وجهين: أما أولاً: فلأن الاعتراف بالسبب رجوع إلى خلاف قانون الخبط الذي بنى كاتب الرسالة فرضيته عليه، والرجوع إلى خلاف المفروض محال مستلزم للتناقض.
وأما ثانيًا: فلأن هذا - أي كون سبب كل دورة من دورات حركة العالم هو الحركة التي =

دورات حركته الجزافية اللانهائية من غير سبب لهذا الحصول سوى الصدفة محال أيضًا، ورجحان ثان من دون مرجح، ومعنى هذا أن القول بالصدفة سواء كان في نظام العالم أو في غيره بإلغاء مبدأ العلية والسببية، واعتبارَ الصدفة نفسها سببًا، قولٌ باطل متضمن للتناقض، وزهر الطاولة لا يجيء بالدش ولا بغيرها من وجوهه بالصدفة؛ لأن الصدفة يراد بها حصول أحد الاحتمالين أو الاحتمالات الممكنة للشيء من غير سبب يُرجحه على غيره، وهي أي الصدفة بهذا المعنى الذي هو حصول بدون سبب لا يُعتبر سببًا للحصول كاعتبار عدم السبب سببًا. فإذن لا يكون ما يقولون عنه الصدفة صدفة، ولا يمكن حصول واحد من الاحتمالات الممكنة المتساوية إلا لسبب جلي نعلمه أو خفي لا نعلمه.

وإن لم يكن كذلك، بأن يميل الشيء من نفسه إلى أحد احتمالاته الممكنة المتساوية، فيترجح ذلك الاحتمال على غيره بلا سبب، لزم الرجحان من غير مُرجح، وهو محال كما قلنا، مستلزم للتناقض، أي لكون ما فرض مساويًا غير مساو، أعني مستلزم للقول بالتساوي وعدم التساوي معًا، وفيه اجتماع النقيضين.

وهذا تحقيق ما قاله الرياضي الكبير «هانري بوانكاريه» الذي يعتقد فيه صاحب الرسالة الإلحادية الإمامة في العلم: «إن الصدفة تخفي جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب». ومن الغريب أن المُليحد المعتصم بقانون الصدفة، وخصمه الأستاذ رئيس تحرير

= تقدمتها من غير انتهاء في التقدم إلى الحركة التي لا حركة قبلها، كيلا تحتاج إلى محرك خارج من سلسلة الحركات - هو التسلسل في العلل، وهو باطل بإجماع الفلاسفة والمتكلمين.

«مجلة الأزهر»، كلاهما ينقل قول الرياضي الكبير هذا، فلا يقبله الأول ويقبله الثاني من غير علم منهما بالأساس الذي يستند إليه!

ومسألة استحالة الرجحان بدون مرجح مسألة معروفة بين علمائنا المتكلمين..

وبرهان الرجحان من غير مرجح هذا الذي يساوي في قطعيته البراهين الرياضية لكونه مستندًا إلى مبدأ التناقض مثل تلك البراهين، قاض على المذهب الطبيعي القائل بوجود العالم من نفسه وطبيعته، من غير وجود موجد له[١]؛ لأن العالم المتصف بصفة الإمكان الذي يستوي فيه جانبا الوجود والعدم، لعدم وجود علة موجبة لوجوده ولا لعدمه، لو وُجد من نفسه لزم رجحان جانب الوجود فيه على جانب العدم، حين كان المفروض تساوي الجانبين، وهذا خلف متضمن للتناقض، أعني عدم تساوي ما فُرض كونهما متساويين. فمذهب حركة العالم من نفسه ومذهب المصادفة في نظام العالم ومذهب الطبيعة أي وجود العالم بنفسه من غير علة موجبة لوجوده، كل ذلك باطل يُبطله برهان الرجحان من دون مُرجح الذي يستند إلى مبدأ التناقض، ويكون محالاً مثله.

والغافل الذي يرى العالم موجودًا ولا يرى موجده، ويراه متحركًا ولا يرى محركه، ويراه منتظمًا ولا يرى ناظمه، يظن أنه موجود بنفسه من غير موجد، متحرك بنفسه من غير مُحرك، منتظم من نفسه بدون ناظم. لأنه يقول بما يراه، ولا يرى ما في قوله من التناقض؛ لعدم كون التناقض من المرئيات

---

(١) أما احتمال كون نفسه وطبيعته توجبان له الوجود، فهو احتمال باطل، وإلا كان العالم بجميع أجزائه واجب الوجود مستحيل العدم، وهو خلاف الواقع، إذ لو كان كذلك لزم أن لا يكون شيء من الكائنات في العالم قابلاً للعدم ولا التغير، ولزم أن يكون كما هو أزلاً وأبدًا، وهو خلاف المشهود.

والمحسوسات، في حين أن الثقافة العصرية أو بالأصح الثقافة العصرية المصرية لا تعتد بغير المحسوس، حتى الأستاذ الذي يرأس تحرير «مجلة الأزهر» ويناضل الأستاذ المادي نصيف المنقبادي المحامي، يقول أثناء نضاله: «كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يُعتد به»[١].

فقد وجدنا ثلاثة محالات[٢] في قول المؤلف الملحد، المستند إلى حالات الإمكان: «مثل العالم مثل مطبعة فيها ملايين من الحروف، وقد أخذت في الحركة والاصطدام.. الخ»، فمن أنشأ المطبعة والحروف؟ ومن حرك الحروف؟ ومن ناط الانتظام بنتيجة حركاتها؟.

---

(١) ومن هذا يراني القارئ أقول له دائمًا في هذا الكتاب - عكس ما يقول أدعياء العلم الحديث -: إن اليقين العقلي أقوى من اليقين الحسي؛ لأن الإنسان لا يتيقن شيئًا في الدنيا بقدر ما يتيقنه من استحالة التناقض، على الرغم من أنها ليست من المحسوسات.

(٢) وهناك محال رابع؛ وهو أن صاحب الرسالة لا يطمئنه إمكان حصول النظام الصدفي المطلوب للعالم في دورات حركته الكثيرة المتناهية حتى يبني هذا الإمكان على الدورات اللانهائية. لكن حصول الدورات اللانهائية محال متضمن للتناقض، أي انتهاء مالا يتناهى؛ لأن مالا يتناهى متناه في جميع مراحله المتحققة. أما مرحلته اللانهائية فلا تتحقق أبدًا إلا بالوصول إليها، وفي الوصول إليها انتهاء مالا يتناهى، وهو التناقض الذي نلفته إليه.. وهذا على الرغم من أن صاحب الرسالة وأمثاله من الملاحدة، بل ومن عقلاء الفلاسفة الموحدين مثل «كانت»، بل ومن علماء الدين المسلمين كالشيخ محمد عبده، لا يعرفون هذا المحال، وهم الذين قصرت مداركهم عن الاعتراف ببطلان التسلسل الذي له خطورته في أساس البرهنة على وجود الله، ولذا عنينا به في هذا الكتاب، وكشفنا عنه غطاءه بعون الله وتوفيقه. فإذن هذا الملحد الجديد الذي يبني إمكان حصول النظام المطلوب للعالم على دورات حركته الصدفية اللانهائية، يبني الممكن عنده من حيث لا يشعر على المحال.

وأما ثانيًا:

فإن الملاحدة قد ينكرون كل شيء، وينكرون القصد والعلم والعلة الغائية والسبب العاقل في تكون العالم، ويدّعون تولده من المصادفة، وأن النظام الجاري قديمًا وحالاً واستقبالاً هو نظام المصادفة من غير وجود أي نظام علمي أو رياضي فيه، كما نص عليه الأستاذ فريد وجدي عند تحرير مراد صاحب الرسالة الإلحادية قائلاً:

«فقولهم إن الكون قائم على نظام رياضي شامل؛ لانسجامه على العلم الرياضي الإنساني خطأ محض.. فإن ترابط الحادثات الكونية وتصرفها على قانون رياضي لا يُحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية، لأنه بعد أن يتوصل قانون الصدفة الشامل، في رأيه، إلى إنشاء كون من الأكوان، يكون ضبطه بالقوانين الرياضية شرطًا ضروريًا لكونه كونًا. ومن هنا أخطأ، كما يدعي، أقطاب الرياضيين في اعتبار أن الطبيعة تجري على نظام رياضي دقيق، والحقيقة أنها تجرى على نظام الخبط».

فقد ينكرون كل شيء، وقد يمكنهم بناءًا على فرضياتهم إنكاره، ولكن هل يمكنهم إنكار وجود القصد والعلم والعقل وفكرة التنظيم وفكرة العلة الغائية في الإنسان؟ وهل يمكنهم إنكار وجود العلم الرياضي الإنساني الذي دونه وقوانينه علماء الإنسان، إن أمكنهم إنكار العلم الرياضي العامل في إنشاء العالم؟!!

كلا، لا يمكنهم إنكار ذلك، وكيف يُنكرون علومهم وعقولهم التي بها يُنكرون وجود ما يوجد في أنفسهم، في العالم؟ فأنا أسألهم إذن: هل أنتم وعقولكم وعلومكم الرياضية وغير الرياضية وفكرة العلة الغائية وقصد التنظيم والتدبير في أموركم ومصالحكم وجميع أفعالكم داخلة في العالم أم كل ذلك خارج عنه؟ ولا شك في أنه غير خارج. فهل لكم أن تقولوا على سؤالي هذا:

ليس فينا تلك الأمور كما لم تكن في العالم؟ كلا، لا تستطيعون أن تقولوا ذلك، وقد قلتم آنفًا ما معناه: لا قانون رياضي في إنشاء العالم، وإنما هو قانون الصدفة، ولكن الإنسان فسره خطأ بما في نفسه من القوانين الرياضية.

فها هي العلة الغائية والقصد والعقل والعلم وفكرة التنظيم والقوانين الرياضية في العالم! أعني أن التي موجودة منها في الإنسان هي نفسها موجودة في العالم، وإن كانت في ضمن قضية جزئية، لكنها تكفي في نقض السلب الكلي الذي ادعيتموه؛ لأن نقيض القضية السالبة الكلية هو القضية الموجبة الجزئية كما هو مقرر في علم المنطق الإنساني.

فهذا تناقض آخر منكم، حيث تنكرون القصد والعلة الغائية والعلم الرياضي والسبب العاقل في إنشاء العالم، وتقرون بوجود كل ذلك فيكم، كأنكم خارجون عن العالم الذي يجري فيه كل شيء على نظام الصدفة والخبط.. فمن أين أتتكم هذه المزايا التي لا توجد في العالم؟ لا أقول: كيف أتتكم؟ فلعلكم تجيبون بمجيئها بطريق الصدفة والخبط. بل أقول: كيف تديرونها وكيف تستخدمونها وتطبقونها على أموركم ومصالحكم؟ فهل ذلك أيضًا بطريق الصدفة والخبط؟ وهل صاحب رسالة «لماذا أنا ملحد؟» ألفها من قبيل الاشتغال بما لا يعنيه، ولم يكن له في تأليفه علم ولا شعور، بناء على عدم وجود العلم والشعور في العالم!

وكيف يجوز لمن يوجد في هذا العالم الذي لا توجد فيه علة غائية ولا يجري فيه نظام غير نظام التخبط أن يقول: «لماذا أنا ملحد؟»، فجواب هذا الاستفهام إذن: لأنك متخبط والسلام! فإن لم تكن متخبطًا فمتورط في التناقض، أو جاهل بما هو موجود في العالم. وكما أنه جاهل لماذا هو ملحد، غافل حتى عن كون سؤاله هذا يتناقض، ولا يأتلف بدعوى عدم وجود العلة الغائية في نظام

العالم، وعدم وجود مبدأ العلية والسببية في مبادئه، فليس ببعيد عنه أن يجهل ما يوجد في العالم وما لا يوجد.

فالحق أنه لا معنى لوجود العقل والعاقل والمعقول بين أجزاء العالم الذي يسود فيه نظام الخبط ولا يجري فيه التعليل، أو يلزم أن يكون أي عقل لا يُدرك وجود العلة الغائية في نظام العالم عقلاً مخالفًا لعقل البشر الذي يبني كل أموره وكل تصرفاته على العلل الغائية.

وأما ثالثًا:

فإن مثال زهر الطاولة ومجيء الدش مرة على الأقل في ٣٦ رمية مثال خادع، بعيد كل البعد عما كنا بصدد درسه من نظام العالم الذي يحتمل في رأي الملحد الصغير أن يكون قد جاء بطريق الصدفة كما يجيء الدش، لأن كون عدده الصدفي الأعظم ٣٦ وهو أقل عدد يُذكر بهذا الصدد، ناشئ من كون كلٍ من زهريّ الطاولة ذا وجوه ستة، فحصل من ضرب الستة في ستة ٣٦ وضعًا، فلو كان الزهر ذا ألف وجه أو مائة ألف أو مائة ألف مليون أو ما لا يحصيه العدد مثل ذرات العالم، ثم ضُرب هذا العدد الذي يضيق عنه أسماء العدد، في مثله من الزهر الآخر، وكان المطلوب مصادفته واحدًا من حاصل هذا الضرب، فتصوروا حينئذ مبلغ كثرة العدد الأعظم الصدفي هنا، وقلة احتمال مصادفة المطلوب الذي هو واحد حيال الاحتمالات الأخرى غير المطلوبة التي لا يحصيها عدد. فيحتمل احتمالاً أغلب وأقرب إلى المتحقق أن لا يصادف العالم بين هذه الاحتمالات التي تكاد تكون غير متناهية نظامه المطلوب الذي نفرضه النظام الحاضر، إلى الأبد.

أُمثل ذلك بمثال تذكرة اليانصيب التي تملكها من بين التذاكر البالغة في الكثرة إلى حد ليس له اسم في أسماء العدد المتداولة في ألسنة المحاسبين ولا في

مخيلاتهم. فهل يكون عندك أدنى أمل أو وثوق بإصابة نمرتك كلما تكرر السحب ولم ينقص في كل سحب شيء من مجموع تلك النمر غير المحصورة، وإنما يُعاد كل سحب ويجري على تمام المجموع الأول الأكبر لتجربة الإصابة لنمرتك فقط.. وأنت متأكد من أن هذه الإصابة لن تحصل أبدًا. هذا إذا كان ما عندك تذكرة واحدة تنتظر إصابة نمرتها في كل سحب، أما إذا كانت ألف تذكرة أو مائة ألف تذكرة أو مائة ألف ألف مليون على نمر مختلفة وسُحب في كل مرة عدد يساوي عدد التذاكر التي عندك، ليصيب كل ما عندك من النمر في دفعة واحدة، واعتبرت الإصابة لبعضها ملغاة كلا إصابة، فإما أن تكسب الكل أو تخسر الكل، فحينئذ تصبح إصابة هذا المطلوب المركب أصعب بأضعاف مضاعفة مما إذا كان المطلوب إصابة نمرة واحدة.. والتركيب في نظام العالم الحاضر أكثر وأدق مما في كل مثال مقصور، فتكون إصابة المصادفة فيه للوضع المطلوب أصعب من الأصعب.

ولنا مثال آخر: وهو أن عندنا بلايين من الحروف المطبعية تكفي لطبع أكبر كتاب في الدنيا، تبلغ مجلداته المئات والألوف، والمطلوب طبعه في مرة واحدة من غير تقسيمه إلى ملازم؛ لكون الحروف كثيرة لا تحتاج إلى تكرار الجمع والفض، فنحدث فيها الهرج والمرج، ونستمر فيهما لنصادف هيأة تشكل ذلك الكتاب بجميع أجزائه في دفعة واحدة من دورات الهرج والمرج، وأنت تعرف أن مصادفة الهيأة المطلوب تصعب وتبتعد على نسبة الزيادة في ضخامة حجم الكتاب، فتصوّر مبلغ الصعوبة والبعد إذن على تقدير أن يكون هذا الكتاب كتاب الكائنات.

ومن هذا ترى صاحب الرسالة يُعلق حصول مقال منتظم أو كتاب منتظم من غير ترتيب حروفه بمجرد حركاتها الفوضوية، على الدورات اللانهائية حيث

يقول: «فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب «أصل الأنواع» وكذا «القرآن». وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابًا من هذه الكتب».

وقد قلنا نحن: إن خروج مقال أو كتاب منتظمين لاسيما كتاب من أكبر الكتب يكاد يكون محالاً، إلا أن صاحب الرسالة يريد أن يكون له حق الاعتذار عن عدم خروج الكتاب المطلوب في أي دورة من دورات الحركات الفوضوية، فيقول: لكن الدورات اللانهائية لم تنتهِ بعد، فإن لم يخرج حتى الآن فسيخرجه في دورة أخرى. فللكتاب أن لا يخرج أبدًا، وللدورات اللانهائية أن لا تنتهي أبدًا، ولصاحب الرسالة أن يكرر اعتذاره الذي جعله مضمون القبول، إلى مالا نهاية له، ومعنى هذا الاعتذار تعليق خروج الكتاب على نهاية اللانهاية، أعني على المحال!

ولننته من نقد الرسالة المسماة «لماذا أنا ملحد»، ولنترك لها الأوهام والأضاليل التي تنتهي الدنيا وهي لا تنتهي، كما قال الشاعر التركي المشهور ضيا باشا في مقدمة «الخرابات»:

سرمايـة شـاعـران تـوكـه نمـز دنيا توكه نير يالان توكه نمز[1]

نعود إلى الكلام على أقوال «بوخنر» في الفصل السابع من كتابه:

أما الاستناد في دعوى تولد النظام والكمال في العالم من المصادفات والمصادمات الفوضوية، إلى طول الزمان الذي حصلت فيه هذه النتيجة البعيدة المنال - وهو ثالث متمسكات «بوخنر» ومن حذا حذوه من الملاحدة في فكرة

---

(١) ترجمته: لا ينفد رأس مال الشعراء؛ لأن الدنيا تنفد، ولا ينفد الكذب.

الاستغناء عن الخالق القادر - فالجواب عليه: أن الفوضى إذا كانت تنافي النظام والكمال كما أثبتناه عند الجواب على متمسكهم الثاني إثباتًا بينًا، فاستمرارها في الأزمنة الطويلة يكون أشد منافاة لهما، إذ يزداد الفساد والتشوس الحاصلان من الفوضى كلما طال الزمان وطالت معه الفوضى، بله أن تتحول إلى النظام والكمال بسبب تمادي الفوضى، وهذا من أجلى البديهيات. فليس من المعقول في شيء أن يتفرس الملاحدة عدم وجود الله رب العالمين من وقوع التكملات العالمية في أطول زمان، ويحكموا بحصول هذا التكمل بنفسه من غير مكمل، قائلين: لو كان الله موجودًا لما احتاج في خلق الكائنات العالية في الأرض مثل النبات والحيوان والإنسان إلى مضي زمان طويل من تبرد كرتنا وحصول تطورات وتقلبات فيها. لكن مراعاة التدريج في الخلق لا يلزم أن تكون ناشئة من حاجة الله إلى التدريج، وإنما من حكمة يعلمها الله، ولا نعلمها نحن، وقد نعرف منها بعض الشيء. فهل يلزم مطلقًا على تقدير وجود الله الخالق أن يفعل في لحظة عينٍ ما نراه من التكملات الحاصلة في أطول زمان؟

وهل الإله القادر على خلق الكمال العالمي في أسرع وقت، غير قادر على خلقه في أطوله؟ أم إننا تولينا إرشاد الإله الخالق إلى الطريقة التي يجب عليه أن يسلكها في خلق ما يخلقه؟ فالعدول عن حمل طول الزمان على إرادة الله كذلك[1] إلى تفسيره بكون الانتظام والتكمل في الكائنات حاصلَين بنفسهما من غير وجود ناظم يديرها ومكمل يدبرها، وإنما بإقامة استمرار المصادفات، والمصادمات الفوضوية مقام الناظم المدبر المكمل؛ ما لا يقبله عاقل، ويأباه

---

(١) على أن الزمان المعدود بملايين السنين غير طويل بالنسبة إلى الله، فإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون، وإنما طوله بالنسبة إلى الإنسان المخلوق من عجل.

مبدأ العلية الذي بينا قريبًا عند انتقاد الرسالة الإلحادية، أن إلغاءه محال، مستلزم للرجحان من غير مرجح، وهو متضمن للتناقض.

فحصول النظام من غير ناظم محال، ولا ينقلب المحال ممكنًا مهما طال الزمان، كما لا ينقلب الإله القادر عاجزًا إذا أراد أن يخلق في أطول الزمان ما يقدر على خلقه في أسرع وقت، ولا يجوز إقامة الصدفة مقام السبب الناظم؛ لأنها عبارة عن حالة عدم السبب، ولا يعتبر عدم السبب سببًا، كما لا يجوز إقامة الفوضى التي هي ضد النظام مقام سبب الانتظام؛ كإقامة المانع مقام المقتضى.

ويأبى القول بالصدفة أو الفوضى قولهم بالقوانين الطبيعية أيضًا، إذ يكون معنى القانون على تفسيرهم لكيفية تكمل العالم عدم القانون أو اعتبار الفوضى الدائمة، قانونًا ضد الفوضى. فهذا التفسير والتوضيح لصورة تكمل العالم واكتسابه النظام الحاضر، من إمامهم القديم المشهور «بوخنر» ومن تلميذه الجديد الخامل إسماعيل أدهم، يدل دلالة صريحة على تراجعهم من القول بالقوانين الطبيعية، وعلى أنه لا معنى لذلك القول غير فراغه من المعنى. وإني ألفت دقة القارئ إلى هذا المقام، فإنه يرى التصميم الهندسي لأساس الإلحاد، وتحليله وتبيين أنه أساس مبني على شفا جرف هار: من لباب هذا الكتاب.

ثم إني على يقين من أن القارئ بعد اطلاعه على أقوال الملاحدة التي ذكرناها يتعجب ويسأل نفسه عن السبب الذي ألجأهم إلى هذه السخافات المصادمة للبديهيات، ثم يتذكر أن السبب دليل العلة الغائية المنتصب أمامهم مثبتًا لوجود الله الخالق للكائنات، على نظام تام يُدهش العقول ويكل الأبصار، فيستبين في نظره أنه دليل قيم مُفحم للملاحدة بشدة وطأته التي لا قِبل لهم بها، فهم على الرغم من تجلدهم وتمردهم يرزحون تحت ثقلتها الساحقة، ويلجأون إلى سخافات تُضحك الجمادات.

وقد كان الأستاذ فريد وجدي قال لصاحب الرسالة الإلحادية: «لم هذا التحكم؟ الأجل القول بأن أصل الوجود قوى متخبطة لا ضابط لها؟ وأي فائدة للإلحاد من هذا الافتراض، وقد أساغ الملحدون وجود نواميس محكمة ملازمة للقوى العالمية من أزل الآزال».

ونحن نقول: وهل ساغ عند الأستاذ ما أساغوه من وجود نواميس محكمة من غير وجود واضعها الحكيم العليم، فيشير به على صاحب الرسالة؟ كيف ولم يسغ لهم أنفسهم ذلك، حتى تركوا افتراضه وراجعوا افتراضًا غيره مبنيًا على المصادفة، وإن كان كلٌ من الافتراض الذي تركوه والذي راجعوه أسخف من الآخر. وكيف يستكثر الأستاذ هذه السخافات من المنكرين لدلالة نظام العالم على وجود ناظمه العظيم، ألا يعلم أن سخافتهم حيال دليل نظام العالم الذي أضاع عنهم صوابهم بدلالته الباهرة وضربته القاهرة بلغ مبلغ ادعائهم أن العين ليست أداة مُعدة للرؤية، والأذن للسماع، وإنما رأت العين وسمعت الأذن وشم الأنف مصادفة؟ وكذا سائر الحواس والأجهزة العضوية لذوي الحياة. وليس الدماغ أداة للتفكير والإدراك، ولا وراءه نفسٌ مدركة، وإنما المفكر هذه المضغة المركبة من اللحم والدم، وتفكيرها مصادفة كرؤية العين وشم الأنف وتنفس الرئة. ومقصودهم من هذه الادعاءات المخالفة للبداهة: نفي القصد والإرادة والخطة في صنع تلك الأعضاء؛ لئلا تدل على أنها آثار صانع قدير خبير، صنعها، وولاها وظائف موجهة نحو غايات مقصودة.

وهؤلاء المنكرون للقصد والخطة في إنشاء أعضائهم يلزمهم أيضًا أن يُنكروا وجود قصد لهم أنفسهم في أفعالهم، ووجود سعي منهم وراء أية غاية، ووجود خطة منتظمة للوصول إليها.

مثلاً: أن لا يكون توجيه أنظارهم إلى أي شيء حتى استعانتهم بالنظارة قصدًا

منهم لرؤية ذلك الشيء والتثبت فيها، وأن لا يكون أكلهم لدفع أذى الجوع، وشربهم لدفع الظمأ، إذ لا قصد في الكائنات على مذهبهم، أو ليسوا هم أنفسهم من الكائنات؟ فيكون كل أعمالهم صادرة منهم على وجه المصادفة والخبط، مثل ما كان الحال في غيرهم من أجزاء العالم ومن أعضائهم وجوارحهم[١].

ونراهم كثيرًا ما يفرون من سخافات المصادفة إلى تعبير القوانين الطبيعية والسوق الطبيعي والانتخاب الطبيعي والتكمل الطبيعي وقوانينها، ثم يرون أن الاعتراف بالقانون اعترافٌ بالنظام المتضمن للعلل الغائية التي يسعون جهد طاقتهم في إنكارها، فيرجعون عن طريق فرارهم ويقولون: إن لفظ القانون مجاز واستعارة كما سبق ذكره وتفصيله!

وبعضهم لما سئم من الفرار والتراجع بين المصادفة وما ينافيها من القانون وأشباهه، ثم تأويل ذلك بالمجاز والاستعارة، عزم على نبذ الحياء بالمرة، فادعى أن القانون الطبيعي وما يماثله من السوق والانتخاب والاصطفاء والتكمل على حقيقته، وأن للمادة إحساسًا وشعورًا وهي تحوز هذه المزايا بالقوة، وتخرجها كلما اكتملت إلى الفعل. قال «شوبنهاور» «كما أن المادة تسقط فهي تفكر أيضًا».

وادعى «هكل»[٢] مؤسس مذهب الوحدية «مونيزم» ومعدِّل مذهب الماديين

---

(١) وهذا غير مذهب الإيجاب الطبيعي الميكانيكي الذي ينفي فيه الماديون أيضًا القصد والاختيار للإنسان.

(٢) إرنست هيكل (١٨٣٤ - ١٩١٩م)، فيلسوف وعالم أحياء ألماني. قام باكتشاف الآلاف من أنواع الكائنات الحية.

القائلين بحصول النظام في العالم بغير ناظم سوى المصادفة والفوضى لما رأى حراجة موقفهم؛ وجود جميع القوى اللازمة لحصول الموجودات بجميع أشكالها في الطبيعة قائلاً: «إن في كل جزء فرد من المادة وفي كل ذرة مبادئ الروح الجبارة؛ مثل الحس والميل والشعور».

وكان منبع المشكلات قبل مادية «هكل» قبول مادة منفعلة غير قادرة بنفسها للتكمل، فحاول الرجل حل معميات المنشأ والقوة والحركة والحس وجميع الكمالات الناجمة في طبقات الموجودات العالية، بادعاء وجود جميع هذه الخواص في المادة، حتى أن منبع الإرادة عنده هو الجاذبة والدافعة الموجودتان في الأجزاء الفردة. فكأنه أجاب بهذا الادعاء عن الأسئلة التي لا يزال الماديون منهوكي العواتق بثقلها: من أين جاءت الحركة المادة العاطلة، ومن أين جاءها الإحساس والإدراك؟.

لكن هذا الادعاء معاكس للتجربة التي يباهي الماديون، وفيهم «هكل»، باستنادهم إليها. فنفي الإدراك والإرادة كسائر الماديين في المحل الذي تجدهما التجربة فيه، وهو جملة الأعضاء، ثم أثبتهما في أجزاء تلك الأعضاء الفردة التي لم يُجرب وجودهما فيها، أو بالأحرى يتمكن أن يجرب. فمعنى نظريته أن اقتدارنا أقل من اقتدار الأجزاء الفردة التي نتركب منها، ونحن تحت سلطة إرادة الأجزاء وإدارتها بدلاً من إدارتها تحت إرادة مشعور بها عائدة إلى الهيأة المجموعة، فليست في الإنسان حرية وإرادة غير ما نتوهم منه فيه، كما أن الأمر كذلك عند الماديين إلا أنهم ينكرونها بتاتًا، في حين أن «هكل» يسلبهما من الإنسان ويردهما إلى الأجزاء الفردة. وأنت تعلم أنه لا يوجد دليل على وجودهما في الأجزاء الفردة غير وجودهما في جملة الأعضاء المتركبة منها الذي ينكر «هكل» وإخوانه الماديون وجودهما فيها. لكن هذا الاستدلال غير

صحيح، وإنما يصح عكسه، أعني لو كانتا موجودتين في الأجزاء، واستُدل به على وجودهما في الجملة المركبة منها لصح الاستدلال، إذ يلزم أن يوجد في الكل ما يوجد في الأجزاء، ولا يلزم أن يوجد في الأجزاء ما يوجد في الكل؛ لجواز أن يكون من خواص اجتماع الأجزاء.

وهذا أبلغ شاهد على مبلغ صداقة الملاحدة لأصولهم التجريبية، فانظر كيف يقيمون الفروض مقام التجربة، بل كيف يدوسون التجربة في سبيل التمسك بالفروض؟ وكان الروحيون يعيبون على الماديين قولهم بأن الإدراك فعل الدماغ لا فعل الروح، فجاء «هكل» وادعى لكل جزء من أجزاء المادة الاستعداد للإدراك، أعني أنه وسع دائرة الفروض التي لا مقياس لها إلى أقصى حد، فهو أشبه في فعله هذا بمن تمنى وأخذ يبني قصرًا له في مخيلته، فلما رأى عدم كفاية الثمن الذي فرضه لبنائه راجع صديقًا له، فأشار إليه بأن يضاعف الكمية الأولى المفروضة، ففعل وحل مشكلته!.

وقد انتقد الفيلسوف «أوليورلوج» على «هكل» جهله بالقاعدة البسيطة القائلة بأن القوى الداخلية المتخالفة المتساوية كالجاذبة والدافعة، أو الفعل ورد الفعل المتساويين الموجودين في داخل المادة وأجزائها، لا تكون محركة في مجموع جسم مركب من تلك الأجزاء لتعارضها وتساقطها. وقال أيضًا: «إن هكل يفعل في إيضاح الحياة والإرادة والشعور التي لم تُعرف حقيقتها إلى الآن فعلاً واحدًا، هو أن يفرض حيازة المادة لتلك الصفات: لكن هذا الفرض ليس بعلم ولا بمعطٍ فكرة عن الأمور المذكورة، وإنما هو عبارة عن قبول وجود أشياء غير قابلة الوصول إليها، ثم نفيها إلى الأجزاء الفردة اتكالاً على عدم إمكان تدقيقات أعمق من ذلك».

وقال «بوخنر»: «إن انكشاف العقل وتكمله كان أصعب أعمال القوى الطبيعية

وآخر انتصاراتها، ونتيجة ترقياتها من مرتبة إلى مرتبة في أعصار غير معدودة، حتى بلغت مرتبة البشرية».

لكن القائلين بهذه الأقوال الناقض بعضها بعضًا لم يفكروا فيما ورد عليهم من أنه إذا كان في الطبيعة عقل وشعور يكفلان للعالم نظامه كما ادعوه في آخر أقوالهم، فلماذا نفوا أولاً نظام العالم على خلاف المشهود، ولماذا نفوا العلة الغائية في الكائنات وادعوا في سبيل نفيها مالا يدعيه العاقل، مثل عدم كون العين أداة معدة للرؤية، والأذن للسمع(١)، ولماذا رأوا في وجود العلل الغائية أكبر مانع لصحة مذهبهم، مع إمكان ربطها إلى عقل الطبيعة وشعورها إن كان لها ذلك؟

ألم تكن دعاوى السوق الطبيعي والاصطفاء الطبيعي والأفعال الطبيعية والقوانين الطبيعية، ووصف كل منها بصفة «الطبيعي»، ثم حمل موصوفاتها على التجوز والاستعارة في التعبير، ثم القول بالمصادفة والخبط، كل ذلك، لإنكار القصد والإرادة هناك، الدالة على العقل والشعور؟ فهذه المساعي وتلك الدعاوى السابقة ترينا أن آخر دعواهم القائلة بوجود العقل والشعور للمادة - ولا أقول للطبيعة إذ لا وجود لها فضلاً عن وجود عقلها - دعوى لم تصدر عن تبين واعتقاد صدق(٢)، كما أن آخر دعواهم ترينا وكل الناس أن إنكارهم أولاً

---

(١) قال «وولتر»: «إن القول بعدم كون العين للرؤية والأذن للسمع ولا المعدة لهضم الأطعمة أكبر فضالة وأقبح جنة».

(٢) قال «الفرد بينه» في كتابه «الروح والجسم»: «أنا أعلم يقينًا أن من كان ماديًا لم يعن بتحليل ما يسمى الشعور، فلو عني به لرأى عدم إمكان تعليق حادثة من حادثات الشعور بذرة مادة على أي صورة كان».

وقال الشاعر «سوللي برودم» في خطاباته التي كتبها جوابًا على مقالة «شارل ريشه» مدرس علم وظائف الأعضاء بالجامعة الفرنسية: «إن الكائنات ترى لنا بالنظر إلى المعلومات =

للنظام المقصود وادعاءهم السوق الطبيعي غير المقصود والانتخاب الطبيعي والميول الطبيعية والقوانين الطبيعية أعني غير المقصودة، ثم قولهم بالمصادفة المحضة، كل ذلك لم يكن عن تبين واعتقاد صدق منهم، بل لجس نبض الانخداع من الناس، فكل هذه الإقدامات والإحجامات المتضاربة مع بعضها، زيادة على خروج كل منها في ذاته عن حدود العقل، تنم على ما في موقف الملاحدة من الضيق والحرج تحت قوة دليل نظام العالم، وثقل وطأته عليهم.

والمدعون وجود العقل والشعور في الطبيعة أو المادة ادعوه على تخوف، فقالوا إنها تحوز هذه المزايا بالقوة، وتُخرجها كلما اكتملت إلى الفعل. وقال «بوخنر»: «إن انكشاف العقل أصعب أعمال القوى الطبيعية الخ» فمقتضى كلامهم أنه لا وجود للعقل في الطبيعة أو المادة فعلاً قبل مرتبته البشرية، إذ معنى كونها عاقلة بالقوة أنها سوف يكون لها عقل عند بلوغها المرتبة البشرية، فإذا لم يكن لها عقل قبل تلك المرتبة فبماذا تسعى لأن تكون بشرًا عاقلاً؟ فهل لها عقل مدرك لمصلحتها قبل أن يكون لها عقل؟

والذي يقضي به المنطق: أن الطبيعة أو المادة التي لا عقل لها قبل أن تبلغ مرتبة البشرية لا تستطيع مهما سعت جهد طاقتها إلا أن ينشأ من نفسها بشرًا حظه من العقل كحظ «بوخنر» وأضرابه[1]، فلو قالوا: إن البشر العاقل نشّأ الطبيعة أو

= البشرية الحاضرة منقسمة إلى قسمين، لا يمكن إرجاع أحدهما إلى الآخر، ومع هذا فهما مرتبطان بروابط لا تعد ولا تحصى: مادي وروحي».

وقال أيضًا: «إن الشعور مهما كان قليلاً فلا شبهة في أن المادة ليست هي التي تقدر عليه، هي عديمة الشعور في ذاتها وهو أي عدم الشعور صفتها الأساسية».

(١) ولو كان العقل في الإنسان عطية الطبيعة أو المادة ولم يكن من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء كثيرًا ويؤتى من يشاء قليلاً ويضل من يشاء ويهدي من يشاء، لكان في كل إنسان على نسبة واحدة. وليس الأمر كذلك حتى إن ما قالوه من أن العقل الصحيح يوجد =

المادة غير العاقلة بشرًا عاقلاً، لكان أقل سخافة مما قالوه من أن الطبيعة أو المادة غير العاقلة نشّأت بشرًا عاقلاً، وهذا على الرغم من أن البشر المتأخر في الوجود لا يمكنه أن ينشئ الطبيعة أو المادة المتقدمة عليه.

وأنت إذا رأيت وتبينت المشكلات التي يتضور الملاحدة في غمرتها، ولا يجدون منجى منها أينما ذهبوا وأي باب طرقوا، ورأيت أيضًا أنهم لو وافتهم هداية الله فاعترفوا بوجود الله لزالت عنهم كل مشكلة. . . إذا رأيت وتبينت هذه الحقيقة: علمت سقوط قول شاعر الإلحاد جميل الزهاوي البغدادي:

لما جهلتَ من الطبيعة أمرها ... وأقمتَ نفسك في مقام معلِّلِ

أثبتَّ ربًا تبتغي حلاً به ... للمشكلات فكان أكبرَ مشكلِ

إذ لا إشكال في الاعتراف بوجود الله - الذي لا حل لمشكلات الكائنات سوى الاعتراف به - غير عجزنا عن معرفة ذاته، وغير أن الإنسان عدوٌّ لما جهل. .

وكذلك كان ينبغي لمن وجوده حل طلسمات الكائنات أن لا تصل معرفة البشر إلى ذاته، وهل يروم شاعر الإلحاد بعقله القصير أن يعرف ذات الله الذي وسع كرسيه السماوات والأرض؟ وهو غير مكلف بمعرفتها، وهو لم يعرف بعدُ وجوده، على الرغم من أنه أظهر من ظاهر.

وإشكال ثانٍ في الاعتراف بوجود الله، هو كون المعترف يُدخل نفسه في مشقة الامتثال بأوامر الدين، والابتعاد عن محارمه، ولعل هذا هو مراد الشاعر الفيلسوف مما كبر عليه وأشكل!

= في البدن الصحيح غير صحيح وفي قوله تعالى ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ آيات لقوم يعقلون.

الإلحاد في العصر الحديث

للشيخ: جعفر شيخ إدريس[(١)]

١- ظاهرة الإلحاد:

كان الناس في العصور الماضية يعتقدون اعتقادًا جازمًا بوجود خالق مدبر للكون، وكانوا يعدون هذا من البدائه العقلية، وكان الإلحاد -بمعناه الحديث الذي هو إنكار وجود هذا الخالق- أمراً شاذاً لا يقول به إلا فرد بعد فرد من الناس.

وظل الأمر كذلك حتى القرن الثامن عشر الميلادي تقريبا[(٢)]، ثم بدأ الألحاد يحل محل الإيمان عند كثير من قادة الفكر الأوروبي، وصار بعد مقدم الشيوعية هو (الدين الرسمي) لدُولها. ولما صارت للإلحاد هذه المكانة في الغرب، ولما كانت الحضارة الغربية هي الحضارة السائدة في عصرنا؛ فقد انتشر هذا الإلحاد، وانتشرت أكثر منه لوازمه في أرجاء المعمورة انتشاراً لم يُعهد له مثيل فيما مضى من الزمان[(٣)].

---

(١) من كتابه «الفيزياء ووجود الخالق» (ص ١٧ - ٤٠).

(٢) أول كتاب يُصرح بالإلحاد ظهر في أوروبا في عام ١٧٧٠م، وفي بريطانيا في عام ١٧٨٢م. (Atheism in Britain, p3).

(٣) هذا مع أن الملحدين ما زالوا -من الناحية العددية- قلة قليلة حتى في الديار الغربية. ففي استطلاع للرأي العام أجرته صحيفة نيويورك تايمز -(٢٧/ ٢/ ١٩٩٣م، ص ٩)، (ثقافة الكفر، ص ٤)- صرح ٩٦% من الأمريكان بأنهم يؤمنون بالله.

وفي استطلاع أحدث أجرته مجلة (US News and World Report) كانت =

وكان من نتائج ذلك:

أن صار الإلحاد -من الناحية العلمية والعقلية- هو الموقف الطبيعي الذي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، وصار المؤمن هو المطالَب بمثل هذا الدليل.

وأن صار الملحد هو الذي يتحدى المؤمن ويتهمه بعدم العلمية، وعدم العقلانية، وبالتقليد، والانسياق وراء العواطف.

وأن صار إظهار الاهتمام بالدين -ولاسيما في وسائل الأعلام العامة- أمراً مستغربا بل منكراً. يقول صاحب كتاب (ثقافة الكفر): «إنه ما أن نشرت مجلة نيوزويك مقالاً عن الدين، حتى جاءها خطاب -نشرته- من قارئ يلومها على إفساح المجال لمثل هذا الهراء»، ثم يعلق على ذلك قائلاً: «من حيث الأحصاء؛ فإن كاتب الخطاب ينتمي إلي الأقلية... وأما سياسيًا وثقافيًا فإنه ينتمي إلى التيار الأمريكي الغالب؛ لأن أولئك الذين يُصلون بانتظام -بل أولئك الذين يؤمنون بالله- يحرصون على إبقاء ذلك في السر، بل على عده سرًا يخجل من إفشائه. وذلك أنه فيما عدا الالتجاء إلى الله الشعائري الظاهري المتوقع من سياسيينا؛ فإن الأمريكي الذي يأخذ دينه مأخذ الجد، ويعده شيئًا مأموراً به لا مجرد خيار؛ يخاطر بأن يُعد من المارقين[1].

وأن صار الدين هو (الظاهرة الاجتماعية) التي تحتاج إلى تفسير، وأما عدم التدين فهو الأمر الطبيعي الذي لا يستدعي دراسة ولا بحثًا ولا تنقيبًا.

= النسبة قريباً من ذلك. فقد صرح ٩٣% بأنهم يؤمنون بالله، وصرح ٥% فقط بأنهم ملحدون (٤/ ٤/ ١٩٩٤م، ص ٤٨). مثل هذه الإحصاءات تُحرج كثيراً من الملحدين الذين يريدون أن يربطوا بين التقدم العلمي والرفاه المادي وبين الإلحاد. فالولايات المتحدة أكثر الدول الغربية تقدماً في الأمرين معاً، وأكثرها ديمقراطية، لكنها أكثرها ديناً!

(١) ثقافة الكفر، (ص ٤).

وأن صار الإلحاد هو القاعدة -المعلنة أو المضمرة- التي تقوم عليها فلسفة العلوم، طبيعية كانت أم اجتماعية أم إنسانية، فصار الإلحاد لذلك جزءًا من مفهوم العلم؛ ومن هنا جاءت المقابلة بين ما يسمى بالتفسير العلمي والتفسير الديني. فالتفسير العلمي هو التفسير الذي يفترض أن الكون مكتف بنفسه، لم يخلقه ولا يُصرف أمره خالق. وأما التفسير الديني فهو الذي يجعل للإرادة الإلهية تدخلاً في حوادث الكون.

وإذا كان العلم قد وُضع -بسبب فلسفته الإلحادية- في مقابل الدين، فقد وُضع الدين- مهما كان نوعه -في زمرة الكهانة والسحر وسائر أنواع الشعوذة والأساطير. أو عُد -حين يُحترم- من قبيل الأدب والفن الذي يُعبر عن المشاعر ولا يقرر الحقائق!

وقد صاحب هذا الإلحاد في أوروبا تطورٌ هائل لم يُعهد له مثيل في مجالات العلوم الطبيعية، وما يقوم عليها من تقنية دخلت نواحي الحياة المختلفة وسهّلتها.

فربط الناس في الغرب بين هذا وذاك؟ فاعتقدوا أن هذا التطور ما كان ليحدث لولا اطّراح الدين، وإحلال الفلسفة المادية الإلحادية العقلانية التجريبية محله.

وتبع الغربيين في هذا الاعتقاد خلقٌ كثيرٌ من الأمم الأخرى، فظنوا أنهم لا يمكنهم أن يبلغوا شأن الغربيين في التقدم العلمي والتقني، إلا إذا هم حذوا حذوهم في اطّراح الدين واعتماد الفلسفة الإلحادية.

ولم يقتصر أثر هذا الفكر الإلحادي على مجال العلوم، بل دخل حياة الناس الاجتماعية والسياسية. فكما أن الدين أُقصي عن المجال العلمي المشترك بين

العلماء، وصار في أحسن حالاته مسألة خاصة بالعالِم لا يجرؤ على ذكرها، دعك من الدفاع عنها أو الدعوة إليها، فقد أُقصي أيضًا عن المجال السياسي حتى في البلاد الإسلامية -إلا ما رحم ربك-، وكاد أن يصير -كما قد صار في الغرب- مسألة ذاتية تخص الفرد، ولا تتعلق بدساتير البلاد وقوانينها، وسياستها الداخلية أو الخارجية أو التعليمية أو الإعلامية.

٢- أسباب انتشار الإلحاد في هذا العصر:

ما الذي حدث فقلب الأمور هكذا رأسه علي عقب؟

لماذا تحول كثيرٌ من الناس في الغرب هذا التحول العجيب من الاعتراف بربوبية الخالق إلي إنكار وجوده، بل إلى محاربة المؤمنين بوجوده حربًا ضارية بالأقلام، وأحيانًا بحد السنان، كما حدث في البلاد الشيوعية؟

لقد حاول كثير من الغربيين أنفسهم تفسير هذه الظاهرة، والإجابة عن مثل هذه الأسئلة، وكتبوا في ذلك كتباً كثيرة.

ويمكن أن نُجمل ما ذكروه في الأسباب الآتية:

١- التناقض الشديد بين كثير من دعاوى الدين الذي ورثوه، والعلم التجريبي الذي اكتشفوه. فقد وجدوا وما زالوا يجدون كثيرًا من دعاوى دينهم مخالفة لما أثبتته علومهم التجريبية. والأمثلة علي ذلك كثيرة، تجد بعضها في كتاب (موريس بوكاي): (العلم والكتاب المقدس والقرآن).

٢- تناقض بين منهج العلم التجريبي القائم على الدليل الحسي أو العقلي، ومنهج دينهم التسليمي. بين منهج العلم الذي يشترط الاتساق المنطقي، ومنهج الدين الذي يقبل المتناقضات العقلية، على أساس أن حقائق الدين يقبلها القلب وإن رآها مخالفة لصريح العقل!

٣- خوض كثير من علماء الدين وغيرهم من المثقفين المتدينين في المسائل الغيبية، والحديث عنها بمجرد الرأي الذي لا سند له من كتابهم، ولا دليل عليه من غيره. من ذلك مثلاً ما كتبه (نيوتن) من كلامٍ مفصّل عن طبغرافية جهنم!

٤- تعصب بعض العلماء الطبيعيين المتدينين تعصباً جعلهم يحاولون لي أعناق الحقائق العلمية لتوافق الدعاوى الدينية. من ذلك أن المطران (جيمز أشر)، وهو دارس مشهور للكتاب المقدس، استنتج من تحليل متأن لنصوص الكتاب المقدس أن الأرض خُلقت في عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد. نُشرت هذه النتيجة التي توصل إليها رئيس الأساقفة في عام ١٦٥٠م، ولم تلبث أن أُلحقت بهامش سفر التكوين من النسخة المعتمدة للكتاب المقدس، وظلت به حتى زمان فكتوريا، ولا يزال من الممكن وجودها أحيانا حتى اليوم[1].

لم يكن غريبًا أن يأتي هذا الزعم من رجل دين يعتمد علي كتابه المقدس، لكن الغريب أن معاصرًا لهذا الأسقف، هو مدير جامعة كيمبردج آنذاك، أيد هذا الزعم، بل ذهب إلي أبعد من هذا؛ إذ زعم أن: «الثالوث خلق الإنسان في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ٤٠٠٤ عند الساعة التاسعة صباحًا. كما أوضح رونالد ميلر؛ فإن مديراً لجامعة كمبردج هو وحده الذي تبلغ به الجرأة أن يجعل تاريخ خلق الإنسان ووقته موافقة لبداية العام الدراسي»[2].

٥- والخلاف بين العلم والدين لم يقتصر على مسائل الدين الفرعية، بل شمل مسائله الأصولية. فمن المعروف الآن حتى عند علماء اللاهوت أنه ليس هنالك من دليل علمي على أن الكتاب الذي يقوم عليه الدين كله هو من قول

---

(1) Facts, Milton, p.40

(2) Facts, Milton, p.40

المسيح. بل المعروف أنه كتبه أناس آخرون، منهم من هو معروف ومنهم من ليس بمعروف، وأنهم كتبوه بعد موته بآماد طويلة، وأن هنالك تناقضًا في أقوال هؤلاء الكُتاب، حتى صارت دراسة مثل هذا التناقض تسمى عندهم بالنقد الأعلى.

٦- قد شمل التناقض فكرة الألوهية نفسها؛ فبينما يوصف الإله بأنه هو الخالق، يُنسب إليه الولد. وبينما يقال إن عيسى ابن الله، يقال إنه صُلب. وبينما يقال إن الإله واحد، يقال إنه مكوَّن من ثلاثة أقانيم؛ هي الأب والابن وروح القدس، وهكذا.

٧- رأى بعض المؤمنين من النصارى أن وصفاً كهذا لله إذا أُخذ على ظاهره الذي تدل عليه اللغة، جعل الخالق -تعالى- مشابهاً للمخلوقات، ففروا من هذا التشبيه إلى ما كان يسميه علماؤنا بالتعطيل، فلم يكتفوا بتأويل هذه الصفات التي تدل على المشابهة، بل أولوا كل الصفات الأخرى، فجعلوا الخالق شيئًا مجردًا، فهو لا يوصف بالعلو، ولا بالمباينة للمخلوقات، ولا بأن له ذاتًا، ولا شخصًا ولا صورة، وإنما هو شيء مجرد، لا يوصف بصفة من الصفات الثبوتية، كالحياة والسمع والبصر والكلام. كتب أحد القساوسة قريبا كتابا أسماه: (الإله الباطني)، زعم فيه أنه ليس لله -تعالى- وجود خارجي، وأن الإيمان بالله إن هو إلا إيمان بمجموعة من المُثل والمبادئ الخُلُقية. هذا التصور التعطيلي للخالق، أصبح الآن هو التصور الشائع بين جماهير المثقفين من أهل الديانتين النصرانية واليهودية، بل ربما كان الأمر قريباً من ذلك حتى بين كثير من (المثقفين) من المسلمين.

إن المسافة ليست بعيدة بين هذا التصور التجريدي للخالق وبين الإلحاد. الإلحاد إنكار لوجود الخالق، وهذا إنكار لكل صفاته. وهل يكون وجود (أي

ذات) إلا بصفات ثبوتية؟ فمن أنكر كل الصفات الثبوتية فقد أنكر الوجود، شعر بذلك أم لم يشعر؟ ولذا كان مثل هذا التصور لوجود الخالق مقدمة ممهدة للإلحاد، وقد فطن أئمة علماء السنة إلي هذا، فكانوا يقولون إن المشبه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا. المشبه هو الذي يجعل صفات الخالق كصفات المخلوقين، فيده كأيديهم، وعينه كأعينهم.. وهكذا؛ مع فارق واحد، هو عظم هذه الصفات حين يوصف بها الخالق. والمعطل هو الذي يفر من تشبيه الله بالمخلوقات، ليقع في تشبيه شر منه، هو تشبيهه بالمعدومات؛ لأن المعدوم هو الذي يوصف بكل صفة سلبية، كأن تقول: هو ليس طويلاً ولا قصيراً ولا عالياً ولا سافلاً ولا مادة ولا روحاً، ولا داخل العالم ولا خارجه.. وهكذا، ولا يوصف بصفة ثبوتية؛ كأن تقول: هو كبير وعظيم وسميع وبصير وحي وعالٍ.. وهكذا.

أدرك علماء أهل السنة خطر هذا التصور للخالق، فألفوا الكتب الكثيرة في الرد علي أصحابه من الجهمية والمعتزلة وغيرهم، ولولا ذلك لوجد الإلحاد طريقه إلى العالم الإسلامي كما وجده إلى العالم الغربي. ولكن أنواعًا من هذا التصور التعديلي تعود الآن فتنتشر بين المثقفين في عالمنا الإسلامي بسبب ذلك التاريخ، ثم بسبب التأثر بالفكر الغربي.

٨- ولم يكن الخلاف خلافًا (علمياً) مع الدين فحسب، بل كان أيضاً خلافاً أخلاقياً وسياسياً مع الكنيسة التي تتحدث باسم هذا الدين. لأسباب مثل هذه؛ اعتقد كثير من المؤمنين بوجود الخالق والمدافعين عن هذا الإيمان؛ أنه ينبغي أن لا يُربط الإيمان بالله بالدين. قال أحد مؤرخي الإلحاد في الحضارة الغربية: «أن يكون هذا - أي الدفاع عن وجود الخالق - من غير لجوء إلي الكنيسة، كان يبدو بدهياً؛ فقد كانت الكنيسة جزءًا من المشكلة، جزءًا من المرض الذي كان

يصيب كل معرفة بالله، لا جزءًا من العلاج. لقد كانت الكنائس هي الأرض التي أنبتت الإلحاد»[١].

٩- وكان من أكبر أسباب الإلحاد بعض القواعد الفكرية التي أصّل لها، ودافع عنها فلاسفة مشهورون محترمون مؤثرون، كانوا في أنفسهم مؤمنين، لكن قواعدهم الفكرية تلك كانت في حقيقتها قواعد للإلحاد؛ ولذلك اقتنع كثيرٌ ممن جاء بعدهم بتلك القواعد الفكرية، وأسسوا عليها إلحادهم، واعتبروا إيمان أولئك الفلاسفة الذين قعّدوها أمرًا شخصيًا لا يتناسب مع ما قعّدوا من قواعد عقلية.

كان من هؤلاء الفلاسفة: (ديكارت)، الذي أتى بنظرية للطبيعة، ومن ثم للعلوم الطبيعية، فحواها أن الطبيعة -بعد أن خلقها الله- صارت مستقلة تمامًا بقوانينها التي أودعها إياها، ولم يعد الخالق يتدخل في شؤونها أو يوقف فاعليتها!! صار الخالق إذن شيئًا بعيدًا عن حياة الناس اليومية واهتماماتهم الحالية، صار شيئًا يمكن أن تستمر الحياة من غير لجوء إليه أو حتى تذكره، ولم يعد من ضرورة لذكره، إلا إذا كان الحديث عن بداية الخلق. لم يلبث هذا الخالق السلبي أن تحوّل عند كثير من العلماء الطبيعيين إلى مجرد اسم مجازي للمبدأ أو المبادئ التي يقوم عليها نظام الطبيعة.

إن كثيرًا من الناس يظنون أن إينشتاين كان مؤمنًا بالله، حين يسمعون ذكره لله في عبارات، مثل قوله المشهور: «إن الإله الرب لا يقامر». لكن إينشتاين إنما كان يستعمل هذه العبارة مجازًا؛ ليعرب عن رفضه للنظرية التي تقول بأن المصادفة حقيقة موضوعية في بنية الكون، وليست أمرًا نسبياً خاصاً بالمشاهد للكون.

---

(1) Atheism, Buckly, p. 38

وفي أيامنا هذه قال الفيزيائي (جورج سموت) الذي اكتشف وجود (تجعدات) في الإشعاع الكوني الخلفي، ترجع إلى ثلاثمائة ألف سنة الأولى لعمر الكون، والتي كانت النواة التي تكونت منها الأجسام الكونية بحسب نظرية الانفجار العظيم، قال وهو يعلن ذلك الاكتشاف، ويشرحه لغير المختصين في مؤتمر صحفي عام ١٩٩٢م: «إذا كنتَ متدينًا فكأنك ترى الله».

وكانت هذه العبارة من بين كل ما قال في شرح اكتشافه هي التي تناقلتها وسائل الإعلام، ونشرتها على نطاق واسع في العالم كله. لكنه حين كتب كتابه المسمى: (تجعدات في الزمان) قال -وكأنه يعتذر لإخوانه الفيزيائيين-: «في علم الكون يتلاقى علم الطبيعة بالفلسفة- عندما يقترب البحث من السؤال الأقصى عن وجودنا، فإن الخطوط الفاصلة بينهما تكاد تنطمس. إن إينشتاين الذي وهب نفسه للتفسير العقلاني للكون، قال ذات مرة: «إنني أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم؟ أريد أن أعرف أفكاره»، لقد قصد أن يكون هذا مجازًا، لقد كان يعبر به عن المدى العميق الذي ذهب إليه في البحث. ولقد كانت ملاحظتي التي كثر الاستدلال بها مصوغة في هذا القالب نفسه»(١).

وكان منهم (كانط)، الذي زعم أن مبدأ السببية مبدأ خاصٌ بعالمنا هذا.

إن مسلك هؤلاء الفلاسفة يدل على حقيقة ينبغي أن نعتبر بها، وهي أن الإنسان قد يكون في نفسه مؤمنًا -أو منتسباً إلى جماعة المؤمنين-، ويكون في بعض فكره كافرًا. وشأن الفكر هنا كشأن السلوك؛ فالإنسان يكون مؤمنًا، لكنه يكون منطويًا على جاهلية، ويتصرف تصرفًا جاهليًا لا يتناسب مع إيمانه، بل

(١) تجعدات في الزمان، جورج سموت، (ص ٢٨٩).

يتناقض مع ذلك الإيمان. ألم يقل الرسول ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[(١)]؟

كذلك الفكر. لكن الانحراف الفكري أعظم خطرًا على المنحرف وعلى غيره، من الانحراف السلوكي.

لقد مر المسلمون في تاريخهم بتجارب من هذا النوع، لقد كان الجهمية مثلاً معلنين للإسلام، بل كان فيهم عُبّاد، لكن تصورهم لصفات الله -تعالي- كان تصوراً إلحادياً، كما ذكرنا قبل هنيهة. فلولا أن الله -تعالى- أنقذ الأمة بجهابذة من علماء السنة بينوا زيف ما يقولون عقلاً ونقلاً، لربما كان لهم في تاريخنا أثر مثل أثر أولئك الفلاسفة الغربيين. لقد استطاع علماء السنة أن يبينوا أن القواعد التي قعّدها الجهمية زائفة عقلاً، وأنه يلزم عنها الإلحاد.

١٠- من المسائل التي يتكرر ذكرها في كتابات الغربيين تعليلاً لنفورهم من الدين: كثرة الحروب والمآسي التي حدثت في تاريخهم بسبب الخلافات الدينية.

يقول عالم الأحياء البريطاني (بيتر مدور) -كما نقل عنه (تيلر)-: «لقد كان الثمن -الذي اضطرت البشرية في عمومها لتدفعه مقابل الراحة والانتعاش الروحي الذي آتاه الدين قلة من الناس- دماً ودموعاً، وهو من الغلاء بحيث لا يسوغ لنا أن نأتمن الاعتقاد الديني على... الخلقي»[(٢)].

لا جدال في أنه حدث باسم ما يسمى بالدين حروب ومآس ومظالم في البلاد الغربية وفي غيرها، ولكن هل يُعد هذا مسوغاً لرفض كل دين أياً كان؟ كلا، فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٢) عندما دقت الساعة صفراً، جون تيلر، (ص ٤).

المنهج العلمي المنصف يستدعي أن ننظر في هذه الأديان لنميز بينها، فاسم الدين، اسم تندرج تحته معتقدات وقيم، ودعاوى مختلفة اختلافًا لا يجعل بينها صلة إلا ذلك الاسم، ويستدعي أن ننظر في هذه المعتقدات والقيم والدعاوى المختلفة؛ لنتبين ما هو حق منها وما هو باطل. وإذا كان بينها أمر مشترك؛ فهل كان هو السبب في تلك المآسي؛ حتى نحكم على الأديان كلها هذا الحكم العام؟ أو أن السبب كان أمراً خارجاً عن تلك المعتقدات فلا تتحمل جريرته؟! أعني أنه قد يكون بسبب استغلال لتلك الأديان، أو بسبب سوء فهم لها، أو بسبب ظلم واقع على الفئة المتدينة.

إن استغلال الدين -كاستغلال كل شيء حسن- استغلالاً سيئاً أمرٌ وارد، بل واقع، والدين الحق يقرر هذا ويحذرنا منه. أنا لا أعرف كلاماً أشد في التحذير من الذين يستغلون الدين لتحقيق مآرب دنيوية، أو الذين يرتكبون الفظائع بسبب التصور المنحرف للدين، مثلما قرأت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

خذ مثلاً على ذلك: قول الله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقول الرسول ﷺ عن الخوارج: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميَّة، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[1].

ثم على افتراض أن المعتقدات الدينية هي التي أدت إلى تلك الحروب؟ فهل توقفت الحروب بعد أن حلت العلمانية في الغرب محل الدول الدينية؟! إن القتل والقرح والأذى والتدمير والإفساد الذي حدث بسبب الحربين العالميتين لم يكن

(١) أخرجه البخاري (١٠٦٤).

له مثيل في تاريخ البشرية كلها؛ فهل كان هذا بسبب الدين؟! والحروب التي شنتها الدول الغربية الرأسمالية والشيوعية على الشعوب الضعيفة لاستعمارها وسرقة خيراتها؛ هل كانت حروباً دينية؟! والحروب التي حدثت في السنوات الأخيرة: في العراق، أفغانستان، الصومال، اليمن، وغيرها؛ هل كانت بسبب معتقدات دينية؟!

فإذا كانت الحروب والمآسي التي حدثت باسم الدين سبباً في النفور من الأديان كلها وعدم الثقة بها؛ فلتكن هذه الحروب والمآسي سبباً أقوى للنفور من العلمانية وعدم الثقة بها.

يجب إذن إذا أردنا أن نكون منصفين في تقويمنا للدين، أن نضع كل هذه الأمور في اعتبارنا، والا كان رفضنا له ونفورنا منه أمراً عاطفياً يقوم على الهوى، لكنه يتزيى بزي العلم والعقل.

١١- ومنها أن الملحدين اتبعوا طريقة خداعة؛ هي أن يضعوا الدين في مقابل العلم الطبيعي، ثم يتكلموا عن المزايا التي يمتاز بها منهجه العلمي، وعن الثمار التي جناها الناس من المخترعات التي قامت على أساسه، وعن توسيعه لدائرة معارف الناس بالكون، وقضائه بذلك على كثير من الخرافات المتعلقة بطبيعة الكون أو طبيعة الأسباب الفاعلة فيه، وهكذا. ثم يقولون إنه لهذا كله ينبغي أن يكون الاعتماد على العلم الطبيعي لا الدين في معرفة الحقائق.

هذه الحجة كانت تصلح لو أن الدين والعلم الطبيعي كانا أمرين متناقضين لا يمكن للعاقل أن يجمع بينهما، وربما كانت تصلح لو أنه كان من الممكن أن يُستعمل منهج العلم الطبيعي في كل المجالات التي يحتاج إليها الناس، بما في ذلك مثلاً الهدف من حياتهم علي هذا الكوكب الأرضي، ومصيرهم بعد هذه

الحياة، والقيم التي يستهدون بها في حياتهم. لكن العلم الطبيعي بطبيعة منهجه، وباعتراف أساطينه، لا يستطيع أن يفصل في هذه الأمور.

فالذي يقول للناس -والحال هذه-: خذوا العلم الطبيعي واتركوا الدين. هو كإنسان يقول لك: إن الناس يتفقون على ما يشاهدون بحواسهم أكثر من اتفاقهم على ما يستنتجون بعقولهم، فإذا ما وافقته على ذلك، مضى ليقول: إذن فيجب أن نعتمد على الحواس ونترك العقل جانباً!

الخطأ هنا هو أن الحواس ليست طريقًا إلى معرفة كل ما يحتاج الناس إلى معرفته، وأنه لا تناقض بين الاعتماد على الحس في معرفة ما من شأنه أن يعرف بها، والاعتماد على العقل في معرفة ما لا يُعرف إلا به.

إنه لا تقابل بين العلم الطبيعي والدين، بل إن الدين الحق يعترف بالمنهج العلمي الطبيعي وسيلة إلى المعرفة، لكنه يقول: إنه ليس وسيلة إلى كل المعارف، بل هنالك معارف لا تُدرك إلا بالرواية، وأخرى لا تُدرك إلا بالاستنتاج العقلي، ورابعة لا يُمكن الوصول إليها إلا عن طريق الرسل. فالعاقل هو الذي يستفيد من كل هذه الوسائل بحسب نوع المعرفة التي يريدها، ومن لا عقل له يحصر نفسه في بعضها ويُنكر غيره.

ولذلك فإن الناس -لشدة حاجتهم إلى تلك المعارف التي لا يوصلهم العلم الطبيعي إليها- يُفضلون التعلق بأي دين، ولو رأوا فيه بعض الأباطيل؛ لأنه يلبي شيئاً من حاجتهم إلي هذه المعارف.

من هذه المقابلات المفتعلة التي أجدها مضحكة: قول الفيلسوف (بوبر) الذي استشهد به (واينبيرج): «إنه من البديهي جداً أن اللاعقلانية لا العقلانية هي المسؤولة عن كل الحروب والعداوات القومية، قبل الحروب الصليبية

وبعدها، ولكنني لا أعرف حرباً أُشعلت لغاية (علمية) أو بإيعاز من العلماء»[١].

يقال لـ(بوبر): كذلك لم تقم حروب بسبب الاختلافات الأدبية والأذواق الفنية، لكن المتحاربين -متدينين كانوا أم غير متدينين- يستفيدون مما يعرفون من علم بالدنيا في حروبهم. فلئن لم تقم الحروب باسم هذا العلم، فقد كان خادماً مسخراً فيها؛ فأي فضلٌ له على الدين في ذلك؟ ويقال له: إنه قد قامت حروب بسبب الاختلافات اللونية والانتماءات العنصرية؛ فهل يتخلص الناس عن ألوانهم وأجناسهم؟ ويقال أيضا: إن الحرب شرٌ ما في ذلك شك، ولذلك قال رسولنا ﷺ للمؤمنين: «**أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية**»[٢]. لكن هذا الشر قد يكون عملاً صالحاً إذا ما كان الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الحق ولدرء شر أكبر.

١٢- وكان من أسبابه: دعاوى ادعاها وما يزال يدعيها الملحدون عن التناقض بين الإيمان وحقائق العلم الطبيعي، سلم بها كثير من المفكرين في الغرب، وبدأتَ تجدها تتكرر من جيل إلي جيل، وتُنقل في كتاب بعد كتاب؛ مع أنها لا تدل على شيء مما أراد لها مدعوها. ليس هذا مكان تفصيل القول في هذه الدعاوى والرد عليها، لكن لنذكر منها علي سبيل التمثيل:

أ- توهمهم أن الإيمان بوجود الخالق مرتبط بتصورات معينة للدنيا كانت شائعة عند الناس في أوروبا، وأن العلم أثبت عدم صحة تلك التصورات، فأزال بذلك الأساس الذي كان يقوم عليه ذلك الإيمان! هذا مع أنه لا علاقة ضرورية بين الإيمان وبين تلك التصورات. من أكثر ما يذكرونه في هذا المجال: اعتقاد

(1) Open, p. 244

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٥)، ومسلم (١٧٤٢) واللفظ له.

الناس فيما مضى بأن الأرض هي مركز الكون، وأن (كوبرنكس) جاء فأثبت أن الأرض إن هي إلا كوكب من كواكب عدة، وأنه لا ميزة لها على سائر الكواكب والنجوم. ينسى أصحاب هذا القول أن العلم الطبيعي كذلك ارتبط في أذهان كثير من أهله بتصورات للكون ما لبث العلم نفسه أن أبطلها. ألم يكن كثير من العلماء الطبيعيين يتصورون أن الكون أزلي لا بداية له ولا نهاية، بل يُعد هذا أمراً لازماً للنظرة العلمية، حتى جاءت نظرية (الانفجار العظيم)، فسببت لهم حرجاً عظيماً؟! فإذا كان الدين سيُرفض لأن بعض التصورات قد ارتبطت عند بعض الناس به، وهي ليست بلازمة له لا عقلاً ولا نقلاً؛ فليُرفض العلم الطبيعي أيضاً لارتباطه في أذهان بعض أهله بتصورات تبين بطلانها.

زعم الفيزيائي المشهور (واينبيرج) - في كتاب له حديث[1]- أن المتدينين كانوا يظنون أن الأجرام السماوية ذات طبيعة سامية مختلفة عن طبيعة الأجرام الأرضية، ولذلك كانوا يعتقدون أنها هي التي تدل على وجود الخالق: «لكن الشمس وسائر النجوم فقدت مكانتها المتميزة؛ فنحن نعلم أنها كرات من غاز ملتهب، متماسك بفعل الجاذبية، وممنوعة من التقوض بضغط يظل مستمرًا بسبب الحرارة الناشئة عن المفاعلات الحرارية النووية الموجودة في قلب النجوم. إن النجوم لا تنبئنا عن عظمة الخالق بأقل ولا أكثر مما تنبئنا به الحجارة الموجودة على الأرض حولنا».

ويقال لـ(واينبيرج) هذا وأمثاله: على فرض أن بعض المتدينين كانوا يعتقدون أن الأجرام السماوية ذات طبيعة مختلفة عن المخلوقات الأرضية؛ فمن الذي قال: إن كل المؤمنين بوجود الخالق كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد؟ وعلى فرض

(1) Dreams of Final Theory, Weinberg, p. 193

أنهم كانوا جميعًا يعتقدونه؛ فمن الذي قال: إن إيمانهم بوجود الخالق كان متوقفاً على مثل هذا التصور للأجرام السماوية؟ ما أكثر ما يتصور الإنسان الشيء ثم يجده على غير ما تصور، فلا يؤثر ذلك في إيمانه ولا في ثقته بربه، بل يعزو ذلك إلى جهله، ويَسرُّه أن الله هداه إلى التصور الصحيح. إن كل إنسان يمر عليه زمان وهو طفل يتصور السماء والشمس والقمر والنجوم على غير حقيقتها، ثم يشب ويعلم أن هذه القبة الزرقاء ليست كما تصورها جسماً صلداً، وإنما هي مجرد لون، وأن الشمس والقمر والنجوم ليست بأحجامها البادية للعين، بل هي أكبر من ذلك بكثير، فلا يدعوه ذلك لأن يتحول من الإيمان إلى الكفر؛ فلماذا إذن يكون خطؤه في تصوره لطبيعة الأجرام السماوية داعياً لمثل هذا التحول؟

إن الملحد لا يتحدث هنا عن واقع مشاهد، ولا عن لازم عقلي، بل يُعبر عن وهم توهمه؛ وإلا لو كان الأمر كما زعم؛ لما بقي علي ظهر الأرض مؤمن، ولما كان الناس محتاجين إلى العلم الطبيعي الحديث لينتقلوا من الإيمان إلى الكفر؛ لأنهم كانوا يكتشفون مثل هذه الأخطاء في تصوراتهم حتى قبل مجيء هذا العلم. ولو كان اكتشاف الإنسان أن الأجرام السماوية هي غازات ملتهبة داعياً لأن يقول إن الله لم يخلقها؛ لكان يكفيه أيضًا للوصول إلى مثل هذه النتيجة أن يعلم مثلاً أن الإنسان هذا برغم عقله ومواهبه وعواطفه وإنجازاته تمثل كمية الماء ستين بالمائة من جسمه!.

ب- ومنها توهمهم وجود تناقض بين فكرة الخلق وفكرة الأسباب، أي أنه لكي يكون الشيء مخلوقاً لله، فلا ينبغي أن تكون لحدوثه أسباب طبيعية، فإذا اكتشفنا أسباب حدوثه الطبيعية، كان هذا دليلاً على أنه لم يحدث بقدرة الخالق.

هذه فكرة غالطة رغم شهرتها وانتشارها بين الناس، مؤمنهم وكافرهم، في الشرق والغرب، وعلى مدى تاريخ طويل. عرضنا بشيء من التفصيل لهذه القضية في الفصل الخامس من هذا الكتاب، فيكفي أن نقرر هنا ما قرره علماء أهل السنة من أنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقاً، وكون لحدوثه أسباب؛ لأن الله -تعالي- من سُنَّته وعادته أن يخلق بالأسباب، ولأنه هو -سبحانه- خالق تلك الأسباب وجاعلها أسباباً.

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «**هي من قدر الله**»[١].

إن الغفلة عن هذه الحقيقة هي التي جعلت الملحدين يستطيلون على بعض المؤمنين، ويتحدونهم كلما اكتشفوا لبعض الأحداث أسباباً لم تكن معروفة من قبل.

من ذلك ما يقوله صاحب هذا الكتاب في الفصل الذي خصصه للعلاقة بين العلم ووجود الخالق: «بل إنه حتى القرن التاسع عشر كان تصميم النباتات والحيوانات يعد دليلاً بيناً على وجود الخالق. ما تزال في الطبيعة أشياء لا حصر لها لا نستطيع تفسيرها، لكننا نرى أننا نعرف المبادئ التي تحكم الطريقة التي تعمل بها. إن على من يريد السر الغامض الحقيقي اليوم أن يبحث عنه في مجال علم الفلك أو علم الجزئيات الصغيرة»[٢].

يريد (واينبيرج) أن يقول لنا كما قال مئات الفلاسفة والعلماء الغربيين قبله: إن السر الذي يعتمد عليه الإيمان يُكشف -ويزول فتزول بزواله الحاجة إلى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧) واللفظ له.

(2) Dreams, p. 200

وجود الخالق- حين نستطيع تفسير حدوث الأشياء تفسيراً طبيعياً، وأنه لم يبق هنالك اليوم من سر، إلا في المجالين اللذين ذكرهما، فهما وحدهما اليوم ملاذ من يبحث عن سرٍ يُرسي عليه إيمانه.

إنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقاً لله وكون لحدوثه تفسير طبيعي، كما قدمنا، لكن غاية ما يبلغه العلم هو أن يفسر لنا الحدوث بأسباب ثانوية، أي أسباب هي نفسها بحاجة إلى أسباب، ونحن محتاجون بلا شك إلى معرفة مثل هذه الأسباب في حياتنا اليومية، لكنها ليست الأسباب التي تفسر لنا وجود الأشياء تفسيراً نهائياً.

١٣- ثم إن الكشوف العلمية الهائلة التي ساعدت الناس على فهم كثير من الظواهر الكونية، والتي بنيت عليها تقنية يسرت للناس معاشهم من أكل وشرب ولبس وعلاج وعمارة واتصال وغيرها، فتنت كثيراً من الناس، فجعلتهم يعتقدون أن العلم التجريبي سيغنيهم عن الدين، بل سينجح حيث أخفق الدين، فكان مثلهم في ذلك كما قال الله -تعالي-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال -سبحانه-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]

قال مؤرخو العلوم: إنه لم يخفف من غلواء هذا الغرور إلا الحرب العالمية الأولى ثم الثانية.

١٤- نجح العلمانيون في إيهام كثير من الناس بأن الحقائق العلمية تُبطل الدعاوى الدينية وتؤيد النظريات الإلحادية، بل نجحوا في إيهامهم بأن النظرة الإلحادية إلى الوجود هي وحدها النظرة العلمية؛ فصارت العلمانية أو الإلحاد جزءاً من مفهوم العلم نفسه.

وقد ظفروا بهذا الذي أرادوه بوسائل عدة أهمها :

- تفسير الحقائق العلمية بنظريات إلحادية، ثم تصوير هذه النظريات على أنها هي وحدها القادرة على تفسير تلك الحقائق، واستبعاد كل نظرية يمكن أن يُشم منها رائحة تأييد للدين.

- ثم نشر هذه النظريات الإلحادية، والدفاع عنها، وتدريسها للطلاب حتى ينشؤوا على اعتقاد أنها جزء من الحقائق العلمية، لا نظريات قد تصدق وقد تكذب.

- ثم التعصب لهذه النظريات تعصباً يجعلهم يغفلون الحقائق التي تُكذبها، أو تُضعف من قوتها. من ذلك: التعصب للنظرية الداروينية في التطور؟ إن المؤمنين بهذه النظرية، وهم الآن معظم الأسماء الكبيرة في مجال علم الأحياء، يضيقون ذرعاً بكل من يتفضل فيبين للناس ضعف بعض المرتكزات التي تقوم عليها، ويتهمونه إما بالجهل أو التعصب الديني، أو غير ذلك من الأوصاف التي لا تليق برجل العلم. حدث هذا مثلاً لصاحب كتاب (حقائق الحياة)، الذي نشر في بريطانيا في عام ١٩٩٢ م، ولم يلبث أن صار من أعظم الكتب بيعاً.

١٥- ومما زاد من حدة البغضاء للدين، وتحول الناس إلى العلمانية والإلحاد، أن رأوا الأمة التي حباها الله بالهداية إلى الدين الحق الذي ليس فيه شيء من تلك المآخذ التي أخذها الغربيون على الدين الذي عرفوه- واقعة في معظمها تحت تأثيرهم، ورأوها -حتى بعد أن يسر الله لها الخلاص من الاستعمار- تنهج في معظم دولها نهج مستعمريها في سياستها واقتصادها وكثير من تصوراتها، ورأوها أمة ضعيفة ومتخلفة عنهم في العلوم والتكنولوجيا، ولم يروها قادرة على أن تتحداهم بفكرها، أو تريهم الفرق بين دينهم ودينها، ففتنهم -إلا من رحم الله منهم- هذا الحال الغالب على هذه الأمة عن النظر في دينها، وتقديره حق قدره.

فتخلُفنا ليس تقصيراً في حق أنفسنا فحسب، وإنما هو فتنة للأمم المتطورة مادياً، يغريها بالتمادي في كفرها وإلحادها. إنه ظلم للإنسانية يفوّت عليها فرصة الاهتداء والسعادة الدنيوية والأخروية. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

٣- الملحدون مشركون!

إن وجود خالق للكون أمرٌ تعرفه العقول بداهة؛ لذلك لم يكن ينكر وجود الخالق فيما مضى إلا فئات قليلة من البشر كما قدمنا، ولذلك كانت الرسالات السماوية تُبنى على إقرار الناس بوجود الرب، وأنه الذي خلقهم ويرزقهم، ويحييهم ويميتهم، ثم تزيدهم علماً به، وتدعوهم إلى عبادته وحده دون سواه، مما يعلمون أنه لم يخلق ولم يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يتصف بشيء من صفات الخالق.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

حتى الذين أنكروا وجود الخالق، والذين يُسمون في عصرنا بالملحدين، لا ينكر معظمهم وجود الخالق أي خالق، وإنما ينكرون وجود الخالق الحق الذي دعتهم إلي الإيمان به رسالات السماء، والذي كان يؤمن بربوبيته من يشرك معه غيره في عبادته.

انظر إلى حال الملحدين في عصرنا: تراهم -إذ أنكروا وجود الخالق الحق- يعزون حَدوث الأشياء إلى أشياء أُخر، وهم وإن لم يسموها بالخالقة، إلا أنهم يقيمونها مقام الخالق سبحانه، بل ويُضفون عليها بعض صفاته.

خذ الملحدين الماديين في عصرنا مثلاً؛ لقد كان عمدتهم في إلحادهم قولهم بأن (المادة أزلية لا تستحدث ولا تفنى)، وكانوا يعتقدون أن هذا شيء أثبته العلم، فلا مجال للخلاف فيه. لكن المادة التي يتحدثون عنها ويصفونها بهذا الوصف ليست هي المادة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية وفي معاملنا العلمية؛ إن المادة التي نعرفها هي مادة في صورة من أجسام سماوية، أو أجسام أرضية، أو مكونات هذه الأجسام: الذرات ومكونات الذرات، والفوتونات وما أشبه ذلك، لكن ليس شيء من هذا أزلياً، بل إن كل مادة في صورة من الصور تحدث وتزول، وأما المادة التي لا صورة لها، فإنما هي -كما قال ماركس-: «وَهْمٌ في أذهان الفلاسفة لا وجود له في الخارج».

وإذا كانت المادة قد أُعطيت صفتين من صفات الخالق هما الأزلية والأبدية - إذ الله وحده هو الأول الذي ليس لأوليته ابتداء، والآخر الذي ليس لآخريته انتهاء -فإن شيئًا اسمه الطبيعة قد عُزيت إليه بعض أفعال الخالق سبحانه. فأنت كثيراً ما تسمع الملحدين، ومن يقلدهم -وإن لم يكن ملحداً مثلهم- يقولون: إن الطبيعة فعلت كذا وكذا، وإنها اختارت كذا وكذا. لكن الطبيعة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية والعلمية هي مجموع الكائنات الحية والجامدة والسائلة، وهذه الموجودات هي التي تنفعل، هي التي تُوجد وتتكون وتنمو وتفنى؛ فأين هي تلك الطبيعة التي تفعل كل هذا بالطبيعة هذه التي نعرفها؟ أهما طبيعتان حقاً؛ الواحدة تفعل والثانية تنفعل؟ كلا.. وإنما الطبيعة الحقة هي هذه الطبيعة التي نشهدها. وأما الأخرى- التي تقام في مقام الخالق سبحانه- فإنما

هي وَهْمٌ كبير في رؤوس الملحدين.

وما يقال عن الطبيعة يقال عن التطور؛ إن التطور في مفهومه العلمي هو: «الطريقة المتدرجة التي نشأت بها الكثرة الحاضرة في الحياة النباتية والحيوانية عن أقدم الكائنات الحية وأكثرها بدائية». (القاموس العلمي)[١]. فالتطور إذن هو الطريقة التي حدث بها هذا التنوع، وليس هو صانع التنوع. لكن الملحدين يتحدثون عنه كما لو كان هو الفاعل. يقول (دارون) -في الطبعة الثانية من كتابه: (أصل الأنواع)-: «يمكن أن يقال-مجازًا- إن الانتقاء الطبيعي مستمر في تفحصه في كل يوم وكل ساعة- وفي العالم كله- لكل تغير وإن دق، رافضاً للسيئ، حافظاً وجامعاً لكل ما هو جيد، عاملاً في صمت ولطف؛ كلما سنحت فرصة لتحسين كل كائن حي بالنسبة لظرف حياته المادي وغير المادي. نحن لا نرى شيئًا من هذه التغيرات البطيئة وهي تحدث، حتى تضع يد الزمان علامة على الآماد الطويلة التي مضت»[٢].

---

(1) "The gradual process by which the present diversity of plant and animal life arose from the earliest and most primitive organisms.." Concise Dictionary of Science.

(2) "It may be said that natural selection is daily and hourly scrutinizing, throughout the world, every variation, even the slightest; rejecting that which is bad, preserving and adding up all that is good; silently and insensibly working, whenever and wherever opportunity offers, at the improvement of each organic being in relation to its organic and inorganic condition of life. We see nothing of these slow changes in progress, until the hand of time has marked the long lapse of ages". Steven M. Stanley, The New Evolution ary Timetable, P. 13.

يقول (ستانلي)- الذي نقلت عنه هذا النص الداروني-: «إن دارون لم يضف كلمة (مجازاً) إلا في الطبعة الثانية من كتابه». ويفسر هذه الإضافة بأنه وقد كان يعيش في عصر كان يدَّعي فيه غيره وجود قصد إلهي للحياة، أراد -فيما يبدو- أن يبين للقارئ أنه لا مكان في حجته لمثل هذا الكلام الديني، وأن مشروعه آلي إلى درجة مفزعة.

فأنت ترى أمثال هؤلاء يقولون: إن التطور أو الانتقاء يفعل كذا وكذا، ويضعونه بذلك في موضع الخالق سبحانه. هذا مع أن وصف الطريقة التي تحدث بها الأشياء لا يتنافى مع وجود خالق لها يحدثها، ويطورها بتلك الطريقة. فنحن يمكن أن نصف الطريقة التي يتطور بها الإنسان منذ أن كان جنيناً في بطن أمه إلى أن يخرج طفلاً فينمو شاباً فيصير شيخاً، ولا نجد في هذا ما يتعارض مع إيماننا بأن الله -تعالى- هو الذي خلق هذه الأطوار كلها. فالله -تعالى- يقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦] ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

فليس هنالك -من حيث المبدأ- تناقض بين التطور وبين الخلق، إلا إذا فهم الخلق -كما يفهمه بعض النصارى- بأنه شيء يحدث مرة واحدة. وأما الخلق بهذا المفهوم الإسلامي الذي نجده في القرآن الكريم، فليس فيه ما يتنافى مع القول بأن الكائنات تمر بأطوار؛ لأن الله -تعالى- هو الذي يخلق هذه الأطوار طوراً بعد طور.

لكن أرجو ألا يفهم القارئ من هذا أنني أدافع هنا عن نظرية دارون، فأنا أُميز -وأرجو من قرائي المؤمنين أن يميزوا- بين التطور وبين النظريات التي تشرح كيفية التطور. إن التطور حقيقة في كل ما نشاهده أمامنا من خلق ربنا، لكن الكيفية التي يحدث بها هذا التطور ليست أمرًا مشاهداً لنا؛ فما أخبرنا ربنا به -

كخلق آدم- قلنا به واعتقدناه حقاً، وما لم يخبرنا به، فمثلنا فيه كمثل غيرنا: نقبل من نظرياته ما كان أقوى دليلاً.

لا يستغربن القارئ قولي عمَّن يُسمَّون بالملحدين إنهم مشركون؛ فإن الشرك إنما هو نقيض التوحيد.

والتوحيد الواجب على العباد لا يتم إلا بأمور ثلاثة:

أولها: أن يعتقد الإنسان أن الله -تعالى- هو الرب الخالق البارئ المصور إلى آخر صفات الربوبية، أي أن يعتقد أن هنالك أفعالاً لا يفعلها ولا يستطيع فعلها إلا الله تعالى.

وثانيها: أن يعتقد أن هذا الرب -سبحانه- هو وحده المتصف بكل صفات الكمال؛ فلا يضيف إليه صفة نقص، ولا يسلبه صفة كمال، ولا يصف غيره بصفة من هذه الصفات.

والثالث: أن يعتقد أن هذا الرب هو وحده الإله الذي يستحق العبادة؛ فلا يعبد معه غيره.

والأول هو أساس في الأمرين التاليين؛ لأن الإنسان لا يصف الله بصفات الكمال، ولا يراه مستحقًا للعبادة إلا إذا علم أنه هو وحده المتصف بصفات الربوبية تلك؛ ولذلك تجد القرآن يجعل هذه الحقيقة أساساً في دعوته للمشركين -الذين يُسلِّمون بها- إلى عبادة الله وحده، وعدم وصفه بما لا يليق به، أو وصف غيره بشيء من صفاته.

وإذن؛ فالذي يعتقد في وجود خالق غير الله، أو الذي يصف مخلوقاً من مخلوقات الله ببعض صفات الله -تعالى- هو مشرك بالله، سواءً اعتقد أن الله -تعالى- هو أيضاً خالق، أو لم يعتقد ذلك.

لكن هؤلاء الذين أنكروا وجود الخالق الحق، وان كانوا قلة شاذة، إلا أن بعضهم قد يكون مؤثراً في الناس، فيثير الشكوك في نفوسهم حتى بالنسبة لهذا الأمر البَدَهي.

ولذلك لم يُهمل القرآن الكريم ذكر هذا الصنف من الناس، والرد على شبهاتهم. رد على الذين زعموا أنه لا خالق ألبتة، كما رد على الذين اتخذوا خالقين غير الله الخالق الحق، وأبان لهم أنهم لا يمكن أن يكونوا خالقين حقاً.



كيف نعالج ظاهرة الإلحاد؟

للشيخ عبدالرحمن عبد الخالق[١]

بعد أن عرفنا ظاهرة الإلحاد، وعرفنا أسبابها، وشرحنا آثارها المدمرة في نفس الإنسان، ومجتمعه، وفي العلاقات السياسية العالمية أيضًا، نأتي الآن إلى كيفية علاج هذه الظاهرة، وهنا نقول: إن الإسلام دينٌ جاء لخير الإنسان على هذه الأرض وإسعاده فيها، وتهيئته لسُكنى الجنة دار السعادة الأبدية، قد كفل العلاج الناجح المستأصل لهذه الظاهرة الخطيرة، وإليك خطوطًا عريضة لكيفية علاج الإسلام لهذه الظاهرة:

١- الدعوة إلى توحيد الله سبحانه:

جعل الإسلام دعوته تبدأ من توحيد الله ﷻ، والإيمان به، والإقرار أنه إله الكون وخالق الوجود، وجعل الهدف الأول بل والأخير لرسالات السماوية جميعا هو إقرار هذه القضية العظيمة من قضايا الدين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، وجعل الله ﷻ الهدف الأول من وجود الإنسان على هذه الأرض هو أن يعبد الله ﷻ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وبهذا جعل الدين الإسلامي هدف الإنسان على الأرض أن يعرف ربه ﷻ، ويوحده، ويعبده وحده لا شريك له. وقد أبان الله هذه القضية وأظهرها ودلل عليها بكل دليل؛

---

(١) من كتابه «الإلحاد: أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها» (ص ٣٢ - ٤٢).

حتى لا يترك فيها شكًا ولا ريبًا لأحد، فأقام ﷻ من آياته العظيمة في خلق السموات والأرض والناس ما يُرشد العباد إلى خالقهم العظيم، ويدلهم على ربهم القدير سبحانه، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأمرهم أن يتفكروا في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم، وتعهد سبحانه أن يُري العباد من آياته في الآفاق ما يحملهم حملاً على هذه القضية؛ كما قال ﷻ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

والأدلة الكونية المشاهدَة ليست هي الأدلة الوحيدة التي نصبها الله للدلالة عليه، بل إن الله ﷻ أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ومؤيدين من قبله ﷻ بالأدلة والبراهين العظيمة على وحدانية الله ﷻ، وأنه خالق الكون، رب العالمين، المستحق وحده للعبادة، ولقد أتى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بوصف تفصيلي بليغ لأسماء الله وصفاته؛ حتى يُعظَّم الرب سبحانه أكمل تعظيم، ويُعبد على الوجه الأمثل. وهكذا أصبحت الأدلة السمعية التي جاءت بها الرسل مكملة ومتممة للأدلة البصرية العقلية، التي نصبها الله سبحانه في هذا الكون الفسيح، وليس هذا فقط، بل جعل الله ﷻ شريعة الإسلام وعباداته جميعًا دالة على الله، داعية للتوحيد؛ حتى يُصبح المسلم في كل عمل من أعماله موحدًا، ذاكرًا لهذه الحقيقة العظيمة.

والصلاة والصيام والزكاة والحج شُرعت جميعها لتُعرِّف الله وتدل عليه، وتُشعر المؤمن بقربه ﷻ من عباده، واطلاعه عليهم، ولذلك اشترط فيها جميعًا إخلاص النية لله سبحانه، وتعلق القلب أثناء فعلها بالله، وشغل اللسان وقت فعلها بذكر الله، والدلالة عليه، فإذا عرفنا أن المسلم يمارس الصلاة خمس مرات في كل يوم وليلة وجوبًا؛ علمنا تبعًا لذلك أن المسلم لا بد وأن يظل ليله ونهاره ذاكرًا لربه، منيبًا إليه، داعيًا له، وهذا كله ليظل بعيدًا تمامًا عن الإلحاد

بالله والكفر به.

وهكذا أصبح الإسلام منهجًا وطريقًا للتوحيد، والصلة الدائمة بالله ﷻ، والبعد الدائم عن الإلحاد، بل عن كل ما يقطع صلة العبد بربه ﷻ.

٢- العناية بالتربية الخُلقية:

جعل الإسلام الهدف الدنيوي الأرضي لرسالته هو إقامه العدل في الأرض وإسعاد الإنسان عليها، ولذلك وجّه الإسلام وجوه الداخلين فيه إلى العمل لخير الناس، ولذلك أوجب على المسلمين جميعًا الدعوة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي لتكونوا جميعا أمةً داعية إلى الخير، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وفي سبيل دعوة الناس إلى الخير والهداية أمر الله المؤمنين بالصبر في ذلك، وتحمل الأذى، حتى لا ينفر الناس من هذا الدين، واتخاذ الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى سبيلاً ومنهجًا، وهكذا امتلأت قلوب المسلمين بمحبة الخير للناس، ورغبة هدايتهم وإنقاذهم من ظلمات الشرك والكفر والإلحاد، إلى نور الهداية والإسلام.

وأمر الإسلام أتباعه أيضًا بالعدل والإحسان مع كل الناس، حتى مع المشركين والكافرين، والصبر على أذاهم إن كان في هذا خيرًا ومصلحة، ورد إساءتهم، والانتصار منهم عن العدوان فقط؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وأمر سبحانه بالعدل مع الكافرين حتى مع ظلمهم وكراهيتنا لهم؛ كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا

تَعۡدِلُواْ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾،
وهكذا، فالإسلام رسالة هداية ورحمة للناس جميعًا؛ كما قال ﷻ لنبي الإسلام نبي الرحمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وجاء الإسلام بعد ذلك بالبر والإحسان، والرحمة بالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وكل محتاج، وجعل للجار حقوقًا على جاره، وللصديق حقًا على صديقه، وكذا للصاحب والزميل، بل لكل مسلمٍ على مسلم حقوقًا؛ كرد السلام، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، وإتباع الجنائز. ونهى عن ظلم المسلم، واحتقاره، وخذلانه، وهجرانه فوق ثلاث، والبيع على بيعه، والخطبة على خطبته، والتجسس عليه، وحسده، وبغضه، وغيبته، وسبه، وجعل هذا من الفسوق والإثم الذي يُعاقب فاعله بأشد العقوبات. وهكذا أصبح الإسلام رسالة إنسانية كاملة، يأمر أتباعه بزرع الخير أنى وُجدوا، وفي أي مكان يكونون فيه، ومع كل إنسان ولو كان كافرًا، إلا أن يكون محاربًا خارجًا بالسيف على المسلمين، وأما إن كان مسالمًا، مستأمنًا أو معاهدًا، فقد أمرنا الله بالإحسان إليه وبره، مع كفره أو فسقه وخروجه عن الإيمان.

وبهذه الروح الطيبة التي يخلقها الإسلام في نفوس أتباعه، ويغرسها فيهم، ينشأ المسلم الطيب القلب، العلي الهمة، نقي السريرة، فإذا توجه المسلم في كل ذلك نحو ربه مراقبًا لله، عاملاً لمرضاته، مريدًا وجهه؛ كان أبعد الناس عن الإلحاد والكفر والزندقة، أقرب الناس إلى ربه وخالقه ومولاه؛ لأن أعماله وأقواله جميعًا ستكون عبادة خالصة، وسيكون قلبه دائمًا وأبدًا متصلاً بربه، ذاكرًا له، شاكرًا لأنعمه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

وهذا الإنسان الذي يتربى على الإسلام على هذا النحو، لا يوجد في الأرض أطهر منه ولا أنظف ولا أطيب، فهو خير ما يدب عليها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ومثل هذا الإنسان الذي يراقب ربه عند كل نظرة، وخاطرة، وفي كل عمل، ويتوجه بكليته في جميع أموره نحو ربه وخالقه، لا شك أنه سيكون بعد ذلك لبنة صالحة في بناء صالح، وبهذا تنشأ المجتمعات النظيفة التي تتخلص من الأثرة وحب النفس، والتنافس البغيض، والإغراق في الشهوات والملذات والأنانية والفردية.

وهكذا نجد أن هدفي الرسالة الإسلامية هما:

إخلاص الدين وتوحيده وعبادته، وكذلك العمل لخير الإنسانية الطيبة الطاهرة، التي هي بحق: البديل الصالح للنفسية الإلحادية الخبيثة المدمرة، التي تعيش القلق والأنانية والإجرام على ظهر هذه الأرض.

٣- التصدي لشبهات الملاحدة:

الكفر كلمة تملأ الفم فقط، وتجري على اللسان دون أن يكون لها نصيب من الواقع، فإنكار الله ﷻ، وإنكار البعث والجنة والنار، وإنكار الرسالات، كل ذلك ليس إلا كلامًا وقذفًا يملأ أفواه قائليه، ويجري على ألسنتهم، دون أن يكون له من الواقع نصيب، ولا يملك أهل هذا الكلام الباطل لإثباته إلا الجهل، والجهل ليس دليلا.

فهم يقولون: لم نر ولم نسمع ولا نعقل أن يكون للكون إله مدبر، وأن يكون قد خلق الخلق لحكمة وغاية، وأن يكون هناك بعث بعد الموت، وأن تكون جنة ونار، والحق أنهم يُكابرون ولا يريدون أن يُصدقوا؛ لعلل أخرى، ولا يدخل

فيها أنهم لم يعرفوا الحق، ولم يروا الدليل، بل لظنهم أن الحق يحول بينهم وبين ما يشتهون، أو أنه يحرمهم من بعض ما يحبون، ويفرض عليهم كثيرًا مما يكرهون، وهذه العلة هي علة السابقين في الكفر، ومن سار على دربهم إلى يوم الدين؛ كما قال تعالى ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فالكافر لا يملك يقينًا في نفي وجود الله ووحدانيته، وفي نفي رسالاته، ولا يملك إلا الظن، وإلا فمن يملك دليلاً واحدًا على أن محمدًا - وحاشاه ﷺ - كاذب، وأنه عاش طيلة عمره يأمر الناس بالباطل، ويوهمهم أن هناك جنة، وليس الأمر كذلك، ويوهمهم أن هناك نارًا وليس هذا بصحيح، وأنه جاهد وعانى، وتحمل ما تحمل في سبيل قضية باطلة لا يؤمن بها!

الحق أن من كذّب به قديمًا وحديثًا لا يملك - كما أسلفنا - إلا الظن، والظن ليس دليلاً، وأنه لا يتبع إلا ما تهواه نفسه، وبئس الهوى أن يكون قائدًا ومرشدًا وإلهًا..

ولكن مع هذا لا يكفي الحق أن يكون حقًا؛ ليعتنقه الناس ويُذعنوا له، بل لا بد للحق من حجة تدافع عنه، وسلطان يقوم به، وإلا فإن الباطل مهما كان زيفه وخزعبلاته، فإنه ينتصر بالقوة أحيانًا، وزخرفة القول أحيانًا أخرى، ولا يكون ذلك بالطبع إلا في غيبة الحق، أو بجهل أهل الحق بطرق الجدال والإقناع، ودحض الباطل، والرد على شبهات الملحدين، تمامًا كما تكون صاحب قضية عادلة أحيانًا، كأن يكون لك بيت ورثته كابرًا عن كابر، ثم يأتي آخر دخيل لا حق له بتاتًا، فيدعي ملكه لهذا البيت، فإذا كان أقوى منك لسانًا، وأعظم حيلة ومكرًا؛ فإنه يقلب حقك إلى باطل، وباطله إلى حق، يغري بباطله من يملك بصرًا وفؤادًا، فإن الناس تحكم دائمًا حسب ما تسمع، وهذا ما يحدث دائمًا في عرض قضية الإسلام والتوحيد، في مقابل قضيا الشرك والإلحاد. كثيرًا ما نجد

- وخاصة في أيامنا هذه - أهل الباطل ألحن بحجتهم، وأكثر زخرفة لباطلهم، بل وأكثر نشاطًا وحماسًا، ورغبة في نشره من أهل الحق لحقهم، وهكذا وجد الإلحاد طريقه إلى النفوس والعقول، فالباطل لا يُقنع العقل، ولا يملأ الروح، ولكن هالة الكلمات التي تُزخرف بها، وروعة الإخراج التي يخطر بها، يجعل الناس يرتمون في أحضانه، ويتهافتون عليه.. هذا والإلحاد إلى ذلك يهتك أستار المحرمات كلها، فلا يبقي حرامًا إلا ما لا تستطيع أن تصل إليه، وإذا كان التوحيد يَعد أهله بجنة بعد الموت، فإن أهل الإلحاد ودعاته يعدون من يتبعونهم في باطلهم بجنة على الأرض، والنفوس الضعيفة تؤثِر دائمًا العاجل على الآجل. هذا إلى فشل دعاة الإسلام كثيرًا في بيان أن ما يحققه الإسلام على الأرض من سلام واستقرار وسعادة، هي الجنة الحقيقة المستطاعة على هذه الأرض، وأن ما يدعو إليه الإلحاد من جنة الشهوات والأهواء ما هو إلا الجحيم العاجل قبل الجحيم الآجل.

ليس الدليل في كل وقت كلامًا:

ولا أعني بتاتًا أن يكون دليل الحق دائمًا كلامًا، بل الدليل قد يكون كلامًا فعلاً، فالإسلام والتوحيد نظام عملي وعبادي واعتقادي، وإثبات الحق في الإسلام لا يكون بمجرد الكلام، فمن قال مثلاً: إن الإسلام يعني التخلف، ويحارب العلم المادي، كان الرد الطبيعي أن يمتلك المسلمون القوة، وأن يتعلموا هذا العلم المادي، وبذلك تبطل الشبهة.

ومن قال: إن الإسلام لا يصلح لحياة الناس، كان الرد الصحيح هو إقامة الإسلام العلمي الواقعي. وهكذا يصبح الحق حقًا والباطل باطلاً.

باختصار: يستحيل أن نعالج ظاهرة الإلحاد المعاصرة، إلا إذا أقمنا دليلاً

للرد على كل شبهة، وجعلنا العالم الواقعي هو الميدان لجهادنا، وإثبات حقنا، وأما إذا أصبحت الكتب والأوراق هي الميدان الذي نحارب من خلاله فقط، فإننا ولا شك نخسر المعركة.

وهكذا يكون الرد على شبهات الإلحاد كلامًا في مقابل الكلام، وعملاً في مقابل الأعمال، فإذا أفرز الإلحاد انحرافًا ونجاسة وانحلالاً، فيجب على التوحيد أن يُفرز طهرًا وعفافًا واستقامة.

وإذا كان الإلحاد يعني الظلم، فإن التوحيد يعني العدل، ولن نفهم العدل إلا إذا كان واقعًا، كما أننا لا نحس بالظلم إلا إذا كان واقعًا.

وإذا كان الإسلام كما نعتقد - وهو كذلك - هو الفلاح الحقيقي في الدنيا، ولا أقول صالحًا لحياة الناس فقط، هذا الإسلام يجب أن يكون واقعًا مطبَّقًا، وليس قضية كلامية نصرخ بها هنا وهناك.

وهكذا؛ إذا استطاع المسلمون أن يملكوا لكل شبهة جوابًا، وأن يكون الجواب كما يرى الناس لا كما يسمعون فقط؛ استطعنا حقًا أن نقضي على ظاهرة الإلحاد.

❑ ❑ ❑

نقض فكرة المصادفة

للدكتور محمد فؤاد البرازي[(١)]

يفترض بعض الماديين أن يكون الكون بما فيه قد تكوّن بطريق المصادفة.

ويعني هذا القول: أن الجزيئات الكهربية التي تتألف منها ذرات هذا الكون وُجدت مصادفة، وكان بعضها سالبًا والآخر موجبًا، والأخير معتدلاً مصادفة، وكل جزيء سالب التقى بجزيء موجب مصادفة، ومجموعة متدرجة من الواحد إلى (٢٣٨) من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نوى مصادفة، والجزيئات السالبة أخذت تدور حول هذه النوى مصادفة، وكان بين النواة والكهارب فراغات، لولاها لكان جرم كالأرض بحجم بيضة الدجاجة، مصادفة، ووجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب كان مصادفة، ووجود إمكانيات الاتحاد بين العناصر لتشكيل مركبات جديدة بسبب نقص الالكترونات عن الثمانية في غلافات بعض الذرات، كان مصادفة، واتحاد العناصر واجتماعها لتتكون هذه الأجرام الهائلة من الشموس كان مصادفة.. الخ.

ونحن نقول: المصادفة في حد ذاتها تكون أحيانًا ممكنة، وتكون أحيانًا في حكم المستحيلة عقلاً. وسنضرب مثلاً نبين منه حالة الإمكان، وحالة الاستحالة[(٢)]: افرض أنك تملك مطبعة، فيها نصف مليون حرف، مفرقة في صناديقها، فجاءت هزة أرضية، قلبت صناديق الحروف، وبعثرتها، وخلطتها،

---

(١) نقلاً عن كتابه: «البراهين العلمية على وجود الخالق» (ص ٥٩ - ٨١).

(٢) كتاب «الله جل جلاله» (ص ٣١) - بتصرف واختصار -.

ثم جاءك مُنضِّد الحروف، يُخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة، غير مترابطة المعاني، فالقضية تكون في هذه الحالة قابلة للتصديق جدًا، وسبب ذلك يعود إلى أن للمصادفة قانونًا رياضيًا عقليًا، لا يمكن الخروج عنه، وهو:

إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة، فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة؛ ازداد حظ المصادفة، وكلما كثر عددها، قل حظ المصادفة.

فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين، وإن كان التزاحم بين عشرة؛ يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عشرة، وذلك لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعًا. وإلى هذا يكون الحظ في النجاح قريبًا من المتزاحمين، حتى لو كانوا مئة أو ألفًا، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخمًا هائلاً، يُصبح حظ المصادفة في حكم العدم، بل المستحيل.

ونعود - الآن- إلى طبيعة المثال الذي نحن بصدده، فلو قال لك ذلك المُنضِّد: إن الكلمات العشر ألفت جملة مفيدة كاملة، تستبعد ذلك، ولكن لا تراه مستحيلاً، ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها تشكلت، وكونت عند اختلاطها بالمصادفة كتابا كاملاً من (٥٠٠) صحيفة، يتضمن قصيدة واحدة، تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة، منسجمة بألفاظها وأوزانها، لا شك أنك في هذه الحالة ترى الاستحالة بديهية وواضحة. والسبب في رؤية الاستحالة يعود إلى قانون الصدفة نفسه، الذي ذكرناه آنفا.

إن التزاحم يجري بين (٥٠٠) ألف حرف، لتكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريبًا، بأشكال وترتيبات متعددة لا تُعد ولا تحصى أبدًا. والنتيجة هائلة، لدرجة أن

نسبة الاحتمالات في حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة[١].

ولكي نعرف معنى كلمة (٥٠٠) ألف حرف، و(١٢٥) ألف كلمة، و(٢٨) حرفًا هجائيًا، لندرس هذا النص:

«إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر، هي: الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد (٤٠) ألف ذرة.

ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢) عنصرًا[٢] موزعة كلها توزيعًا عشوائيًا، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوِّن جزيئًا من جزيئات البروتين، يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تُخلط خلطًا مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري «تشارلز يوجين جاي» بحساب هذه العوامل، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد، إلا بنسبة (١) إلى (١٠) (١٦٠)، أي بنسبة واحد إلى رقم (١٠) مضروبا بنفسه (١٦٠) مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به، أو التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة، بحيث ينتج جزيء واحد؛ أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات، قدَّرها العالم السويسري بأنها (عشرة) مضروبة

(١) قصة الإيمان، (ص ٢٩٣-٢٩٦) - بتصرف واختصار-.
(٢) اكتُشف المزيد من العناصر حديثًا.

في نفسها (٢٤٣) مرة من السنين.

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات؟! إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تتألف بها، تكون غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سمومًا.

وقد حسب العالم الانكليزي «ج. ب ليتز» الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات، فوجد أن عددها يبلغ الملايين (١٠) (٤٨). وعلى ذلك فإن من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئًا بروتينيًا واحدًا» اهـ[١].

لقد ذكرنا هذا النص لنرد مباشرة على من يقول: إن مالا يحدث في هزة واحدة يُمكن أن يحدث في غيرها إلى ملايين الهزات، لنبين الزمن الهائل الذي نحتاجه لتكوين جزيء واحد فيه خمسة عناصر، مع ملاحظة أن أقصى تقدير لعمر الكون خمسة بلايين سنة.

فخمسة عناصر في جزيء واحد يمكن أن تكوِّن تشكيلاتها (١٠) (٤٨) نوع، فكيف ب (٢٨) حرفًا هجائيًا تريد أن تشكل قصيدة مؤلفة من (١٢٥) ألف كلمة، مجموع حروفها (٥٠٠) ألف حرف، بتسلسل معين، بفكر معين، بنظم معين؟!

والمسألة في موضوع الكون أعقد بكثير من المثال الذي ضربناه، ذلك أن حروف المطبعة موجودة، وذراتها مجتمعة حتى تكوِّن هذا الحرف، وموجودة بجانب بعضها، وهناك شيء اسمه هزة أرضية لها قوانين.

أما في موضوع الكون؛ فإن القضية من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحيط بها

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، (ص ٩- ١٠).

عقول البشر كافة، مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور في حد ذاتها، فضلا عن الوقوع.

وهذا الكون مؤلف من عناصر واحدة، بنجومه وشموسه، ومجراته وأرضه، ويبلغ عدد هذه العناصر أكثر من مائة، وهذه العناصر نفسها عبارة عن شحنات كهربائية، بعضها موجب، والآخر سالب، وبعضها معتدل، ويسمى الموجب بروتون، والسالب الكترون، والمعتدل نيوترون، والعناصر الموجودة كالهيدروجين والأورانيوم.. إلخ، هي التي يتشكل منها الكون كله، وهي نفسها موجودة تقريبًا في كل جرم، إذن: فكل هذه المجموعة من العناصر تجتمع مع بعضها بكتل عظيمة لتُشكل جرمًا، وكل جرم له نفس القوانين التي للأجرام الأخرى، وهذه الأجرام كلها لها مداراتها المنتظمة، لكلٍ مداره الذي لا يصطدم فيه مع أي جرم آخر، رغم السرعات الهائلة التي يسير فيها، حتى أن احتمال اصطدام نجم مع آخر، كاحتمال اصطدام سفينتين إحداهما في المحيط الهندي، والأخرى في المحيط الأطلسي[1].

* أمثلة علمية في الحِكمة والإتقان تنفي قانون الصدفة من الأذهان:

١- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام، لامتُص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين، ولما أمكن وجود حياة[2].

٢- ولو كان الهواء أقل ارتفاعًا مما هو عليه، فإن بعض الشُهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة

---

(١) كتاب «الله جل جلاله»، (ص ٣٦ - ٣٩) - بتصرف واختصار-.

(٢) العلم يدعو للإيمان (ص٦٥).

الأرضية، وكان في إمكانها أن تُشعل كل شيء قابل للاحتراق[١].

٣- ولو أن شمسنا أعطت نصف اشعاعها الحالي، لكنا تجمدنا، ولو أنها زادت بمقدار النصف، لكنا رمادًا منذ زمن بعيد[٢].

٤- ولو كان قمرنا يبعد عنا (٢٠) ألف ميل بدلا من بعده الحالي - ولمَ لا وقمر المريخ يبعد عنه (٦٠) الف ميل - لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي تُغمر مرتين في اليوم، بماء متدفق يزيح الجبال نفسها[٣].

٥- ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات، لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار، وفي الليل يتجمد كل نبت في الأرض[٤].

٦- ولو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠٪ أو أكثر من الهواء، بدلا من ٢١٪، فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تُصبح عرضة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تهلب الغابة كلها. ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠٪، لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم[٥].

٧- ولولا المطر، لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها، فلولا الرياح والبحار والمحيطات، لما كانت حياة، ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح، لما كانت حياة، ولولا أن البخار أخف من الهواء، لما كانت حياة[٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (ص ٥٧ - ٥٨).

(٤) المصدر السابق (ص٥٥).

(٥) المصدر السابق (ص٧٠).

(٦) الله يتجلي في عصر العلم (ص ٧).

٨- ولو كانت مياة المحيطات حلوة، لتعفنت، وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض، حيث أن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم، لما كان ملح، وبالتالي ما كانت حياة[١].

٩- ولو كان محور الأرض معتدلاً بدل هذا الميل الحالي الذي مقداره (٢٣؟) مع سكون الأرض، لتجمعت قطرات المياة المتبخرة من المحيطات والبحار، ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب، وكونت قارات الجمد، ولظل الصيف دائمًا، والشتاء إلى الأبد، ولهلك الناس والحياة والأحياء[٢].

١٠- ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلا وجهًا واحدًا منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس. أو بتعبير آخر: لو كان قسم من الأرض ليلاً دائمًا، والآخر نهارًا دائمًا، لما عاش أحد حيث الليل الدائم أو النهار الدائم، ولا كانت حياة[٣].

١١- ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة، فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات، ومن أين تكون الشمس شمسًا والأرض أرضًا؟ ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي، ولو بقيت فكيف تكون الحياة، وكيف يسير الإنسان[٤]؟

١٢- وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر، أو حتى لو

---

(١) قصة الإيمان (ص ٣٣٦)، وكتاب «الله جل جلاله» (ص ٤٠).
(٢) العلم يدعو للإيمان (ص ٥٦).
(٣) المصدر السابق (ص ٥٣).
(٤) كتاب «الله جل جلاله» (ص ٤١).

كان قطرها ربع قطرها الحالي، لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذَين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت[١].

١٣- ولو كانت الإلكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة، والذرة ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات، لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة، فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره؟! وعندما تكون المسألة كذلك، يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته[٢].

١٤- ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها، لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات.

إن مواقع الإلكترونات في غلاف الذرة تنتظم في ترتيب ثماني، فإذا بلغ عدد الإلكترونات في مدار الذرة السطحي الثمانية، تنتهي حمولة هذا السطح بامتلاء الأسرة الثمانية، فلم يعد يتسع لألكترون آخر، فإذا كان للعنصر تسعة الكترونات، اتخذ التاسع مركزًا له في مدار ثانٍ في غلاف الذرة، وهكذا تمتلئ الأسرة الثمانية في المدار الثاني، ثم في المدار الثالث، فالرابع إلى النهاية، ثمانية، ثمانية، واتحاد العناصر ببعضها يتمشى على أساس هذا الترتيب في السطح، ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين إلكتروناتها، فإذا كان عدد إلكترونات العنصر أقل من ثمانية في سطح الغلاف، فإنه يستطيع أن يستقبل عنصرًا آخر في ضيافته، أما الذي في طبقته الخارجية ثمانية إلكترونات؛ فلا يستطيع أن يستقبل أحدًا في ضيافته، فالذي في طبقته الخارجية سبعة كهارب،

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم (ص ٨).

(٢) كتاب «الله جل جلاله» (ص ٤١).

يستطيع الاتحاد بعنصر آخر في طبقته الكترون واحد، والذي في طبقته الخارجية ستة إلكترونات يتحد مع الذي في طبقته الخارجية إلكترونان، وهكذا[١].

١- ولولا قوانين الحرارة، لما تبردت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة[٢].

٢- ولولا الجبال، لتناثرت الأرض، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة[٣].

٣- ولولا أن في الأرض أرزاقها، لما استطاعت الحياة أن تبقى[٤].

هذه الأمور -وأمثالها الكثيرة جدا- مقدمات للحياة، إنها مقدمات أوصلت إلى نتيجة، وكل مقدمة من هذه المقدمات لا يمكن أن تكون مصادفة في حساب الاحتمالات إلا بنسبة واحد إلى أرقام خيالية جدًا.

وإننا نرى أن كل مقدمة من مقدمات الحياة في هذا الكون يمكن أن تكون على ملايين الأشكال الأخرى، ولكن واحدًا فقط من هذه الممكنات هو الذي اختير. والمقدمة الثانية يمكن أن تكون على ملايين المحتملات، ولكن واحدًا فقط هو الذي اختير، وبتضافر هذه المختارات من بين هذه الممكنات كلها وُجد الجو المناسب للحياة. فهل يمكن تعليل هذا كله بغير الإرادة التي تُرجح وجود ممكن على ممكن آخر؟! أنها الإرادة فقط[٥].

---

(١) المصدر السابق (ص ٤١ - ٤٢).
(٢) المصدر السابق (ص٤٢).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه، نذكر كلمات علماء التوحيد المسلمين في هذا الموضوع، فهم في حديثهم عن الكون، كحديثهم عن كل الممكنات التي يمكن أن تكون، إنهم يعددون هذه الممكنات، فيقولون:

الممكنات المتقابلات وجودنا والعدم الصفات
أزمنة أمكنة جهات كذا المقادير روى الثقات

فإذا كان هذا الكون من الممكنات، فكل ممكن يمكن أن يكون موجودًا، ويمكن أن يكون معدومًا، ويمكن أن يكون على صفة، ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تُعد، ويمكن أن يكون في زمان، ويمكن أن يكون في أزمنة أخرى، ويمكن أن يكون بمقدار، ويمكن أن يكون بمقادير أخرى، وبالتالي فكل جزء من أجزاء هذا الكون تنطبق عليه هذه المعاني.

فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يُختار دائمًا واحد، هو الأحكم والأحسن والأكثر نظامًا، ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى، فلا بد إذن من وجود إرادة عليا رجَّحت أحد وجوه الاحتمال والإمكان، حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله، وكل شيء فيه على أجمل ترتيب وأروعه.

فهل بعد هذه الأدلة يظن منصف يتحرى الحقيقة أن هذا الكون بما فيه من أسرار عجيبة، ونظم دقيقة، كان وليد مصادفات؟! وهل يكون العقل الذي يقول بهذا علماني الاتجاه، وهو يتحدى كل قواعد العلم الرصين؟!

وصدق الله العظيم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1].

---

(١) كتاب «الله جل جلاله» (ص ٤٤).

* أقوال الكونيين في المصادفة:

وفي ختام هذا البحث، إليك أقوال العلماء الغربيين المتخصصين في شتى العلوم، الذين توصلوا إلى هذه الحقائق بعد تجارب كثيرة، ودراسات طويلة، وانظر مدى اتفاقها مع عقائد المسلمين.

قال الدكتور «جون وليام كلوتس»[(١)]:

«إن هذا العالم الذي نعيش فيه، قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة، إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة، التي تحتاج إلى مدبر، والتي لا يمكن نسبتها إلى قدرٍ أعمى. ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقد. وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله، ومن إيماننا بوجوده»[(٢)]. اهـ

ثم يستعرض شواهد متعددة على قوله، محللاً إياها تحليلاً علميًا دقيقًا، قائلاً بعد ذلك:

«أفلا تدل كل هذه الشواهد على وجود الله؟! إنه من الصعب على عقولنا أن تتصور أن كل هذا التوافق العجيب قد تم بمحض المصادفة، إنه لا بُد أن يكون نتيجة توجيه مُحكم احتاج إلى قدرة وتدبير[(٣)]. اهـ

---

(١) عالم في الوراثة، حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة بيتسبرج، أستاذ علم الأحياء والفسيولوجيا بكلية المعلمين بكونكورديا منذ سنة ١٩٤٥، عضو جمعية الدراسات الوراثية، متخصص في علم الوراثة والبيئة.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم (ص ٤٦).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٨ - ٤٩).

وقال الدكتور «إدوارد لوثر كيسيل»[١]:

«إننا نشاهد أن الأعضاء المتعادلة التي ليس لها ضرر ولا نفع تتضاءل، مما يثبت أن الطفرات ليست دائما عشوائية، وأن التطور لا يعتمد على المصادفة العمياء، وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بأن هنالك حكمة وتدبيرًا وراء الخلق، ووراء القوانين التي توجهه. ولا مفر لنا كذلك من التسليم بأن التطور ذاته قد صُمم بحكمة، وأنه يحتاج هو أيضًا إلى خالق يُبدعه»[٢]، اهـ باختصار.

وقال العالم الفلكي الشهير «كريسي موريسون»[٣]:

«إن الأوكسجين، والهيدروجين، وثاني أكسيد الكربون -سواء أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة بعضها مع بعض- هي العناصر البيولوجية الرئيسية، وهي عين الأساس الذي تقوم عليه الحياة، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين، تقضي بأن تكون كلها في وقت واحد، وفي كوكب سيار واحد، بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة! وليس لدي العلم إيضاح لهذه الحقائق. أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة، فهو قول يتحدى العلوم الرياضية»[٤]. اهـ.

وقال أيضًا في موضع آخر بعد الحديث عن جهاز الهضم، وأعماله الدقيقة:

«وفي حالة العدوى بجراثيم معادية، يحتفظ الجهاز أيضًا بجيش قائم باستمرار ليلاقي الغزاة، وهو عادة يتغلب عليها، ويحمي تكوين الإنسان من

---

(١) متخصص في علم الحيوان والحشرات، أستاذ علم الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسسكو.

(٢) المصدر السابق (ص ٢٩).

(٣) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك.

(٤) العلم يدعو للإيمان (ص ٧٣).

الموت المبكر، ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد، ولا يمكن أن يحدث بأي حال في غيبة الحياة، وكل ذلك يتم في نظام كامل، والنظام مضاد إطلاقًا للمصادفة، أليس ذلك كله من صنع الخالق؟»(١). اهـ

وقال الدكتور «توماس دافيد باركس»(٢):

«إنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي من العالم غير العضوي، ولا أستطيع أن أُسلم بأن يكون كل ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء، التي جعلت ذرات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة، إن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع، ونحن نطلق على هذا المبدع اسم الله»(٣). اهـ

وقال العالم البيولوجي الدكتور «سيل هامان»(٤):

«ولقد كشفت قوانين الكيمياء الحيوية من أسرار الحياة وظواهرها، ما لم تكشفه القوانين في أي ميدان آخر من ميادين الدراسات العلمية، لقد كان الناس ينظرون إلى خفايا عمليات الهضم والامتصاص، ويستدلون بها على وجود التدبير المقدس، أما في الوقت الحاضر؛ فقد أمكن شرح هذه العمليات، ومعرفة التفاعلات الكيمياوية التي تنطوي عليها، والخميرة التي تقوم بكل تفاعل، ولكن هل يدل ذلك على أنه لم يَعُد لله مكان في كونه؟

---

(١) المرجع السابق (ص ١٥٦).

(٢) أستاذ الكيمياء، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة إلينوى، رئيس قسم الكيمياء بمعهد بحوث ستانفورد سابقا، مدير البحوث بشركة كلوركس الكيموية، متخصص في النظريات الكهربية والأشعة السينية.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم (ص ٤٢ - ٤٣).

(٤) حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة بوردو، أستاذ في جامعة كنتاكي وجامعة سانت لويز سابقا، أستاذ في كلية أسبوري، متخصص في تقسيم الطفيليات الحيوانية.

فمَن إذن الذي دبر لهذه التفاعلات أن تسير؟ إن نظرة واحدة إلى إحدى الخرائط التي تُبين التفاعلات الدائرية العديدة، وما يدور بين كلٍ منها والآخر من تفاعلات أخرى، كفيلة بأن تُقنع الإنسان بأن مثل هذه العلاقات لا يُمكن أن تتم بمحض المصادفة. ولعل هذا الميدان يهيئ للإنسان من العلم ما لا يهيئه أي ميدان آخر، بأن الله يُسير هذا الكون تبعًا لسننٍ رسمها ودبرها عندما خلق الحياة»(١). اهـ

وجاء في كتاب «رحلتي من الشك إلى الإيمان»:

«وإذا سلمنا بصدفة واحدة في البداية، فكيف يقبل العقل سلسلة متلاحقة من المصادفات والخبطات العشوائية؟.. إنها السذاجة بعينها التي لا تحدث إلا في الأفلام الهزلية الرخيصة»(٢). اهـ

بعد هذا كله، هل هناك من داعٍ لأن يلجأ الإنسان إلى المغالطة، وإعطاء الأشياء صفاتٍ ليست هي محلاً لها، وخاصة بعد أن اطلع على الأدلة العلمية الدامغة، وأقوال مفكري العالم ومتخصصيه الساطعة، الذين لا يصدرون عن آرائهم إلا بعد تجارب كثيرة، واختبارات طويلة؟!

أعتقد أنه ما من إنسان منصف يُقر لنفسه أن ينسب صفات الألوهية من الخلق، والإبداع، والدقة في التصوير والتدبير، إلى ما يسمى «الصدفة»(٣).

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم (ص ١٤١).

(٢) رحلتي من الشك إلى الإيمان (ص ٩٨).

(٣) انتهى كلام الدكتور البرازي. وقال الأستاذ أبوبكر محمد زكريا في رسالته «الشرك في القديم والحديث» (٢/ ٧٣٤ - ٧٤٤): «القول بالصدفة هو المخرج الثاني للقائلين بنظرية النشوء والارتقاء لأصل الإنسان، فإنهم لمَّا قالوا بنظرية الارتقاء والتطور، والنشوء سُئلوا عن أساس التطور، فأجابوا بأنه حدث فعلاً بالصدفة، وأن الحياة =

. . . .

= والكون إنما هما نتيجتا الصدفة، وقد سبق معنا الرد على نظرية التطور والنشوء والارتقاء، وأما القول بالصدفة فيقال في الرد عليها:
إن القول بالصدفة من الافتراءات الآثمة التي قال بها الغافلون عن الإبداع الكوني، وما في العالم من أسرار ونواميس هي أكبر شاهد على مدبر حكيم، إن ما يحدث في الكون من تقدير في الأرزاق والآجال، وما عليه الكون من إبداع، وما يحتوي عليه من أسرار لا مرد له إلى العشوائية والارتجال، فهي قضية من المسلَّمات التي اتفقت عليها الدلائل العلمية المادية، والبراهين العقلية المنطقية.
فالدلائل العلمية المادية المستندة إلى الوسائل الإنسانية تحيل وجود المتقنات الراقية الدقيقة المعقدة بالمصادفة، وترفض المصادفة في أية ظاهرة كونية ذات إتقان دقيق معقد، والباحثون العلميون سواء أكانوا مثاليين أو ماديين، يبحثون باستمرار عن سبب أية ظاهرة كونية يشاهدونها، ويرفضون ادعاء المصادفة فيها رفضًا قاطعًا؛ لأن المناهج العلمية الاستقرائية قد أثبتت للعلماء أنه ما من ظاهرة تحدث في الكون دون أن تكون مسبوقة بسبب مكافئ لحدوثها، وإذا كانت هذه الظاهرة من الظواهر التي تحتاج إلى علم ومهارة حتى يكون قادرًا على إنتاجها، قرروا أن منتجها صاحب علم ومهارة، وهكذا. فكيف بالكون كله وما فيه من متقنات لا حصر لها، أصغرها الذرة وأكثرها المجرة - في نظرنا -، وأدناها في الأحياء التي اكتشفناها الفيروس، وأعلاها فيما نشاهد: الإنسان؟
وللرد عليهم علميًّا، يُذكر ما يلي:
١- إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر، هي: الكربون والأيدروجين، والنيتروجين، والأكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزء الواحد (٤٠) ألف ذرة، ولمَّا كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢) عنصرًا موزعة بقدر معلوم، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزئيًا واحدًا من جزئياتِ البروتين يمكن حسابه لمعرفة كميات المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرًا لكي تُؤلِّف هذا الجزئي. وقد حاول أحد العلماء حساب الفترة الزمنية التي يجب أن تستغرقها عملية خلط العناصر المذكورة هي (١٠) **٢٤٣** سنة. . . . معنى ذلك أنه قبل وجود الكون وما بعد أيامنا هذه بمليون سنة أمامه (**٢٣٩**) صفر، واشترط العلماء =

. . . .

= توفر مواد كونية تساوي حجم الكون مليون أمامه (٤٣١) صفر مرة، فهل هذا معقول؟ كل تلك الأرقام المستحيلة يطلبها قانون الصدفة لتكوين جزئي، واحدة من جزئيات الخلية الحية، . . . ألا يكفي خلق الإنسان من بلايين الخلايا [الحية] التي تحركها إشعاعة الحياة (تلك النفخة الإلهية العظمى في المادة)، ألا يكفي هذا لكي يؤمن الملحدون بالخالق الواحد الأحد الفرد الصمد؟).

٢- يقول أحد الباحثين المعاصرين: إن (معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التي نسمِّيها (الخلايا)، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة).

وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة، وكل خلية من هذه الخلايا تتكون أساسًا من مادة عجيبة نطلق عليها اسم (البروتوبلازم).

وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة، ومن هذه المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي التي نطلق عليها اسم (الكروموسومات)، وعدد هذه الكروموسومات ثابت في خلايا كل نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة، فعددها في خلايا القط - مثلاً - يختلف عن عددها في خلايا الكلب أو الفيل أو الأرنب أو نبات الجزر أو الفول. وفي كل خلية من الخلايا التي يتكون منها جسم الإنسان يوجد ستة وأربعون من هذه الكروموسومات.

وعندما تنقسم الخلية إلى خليتين داخل أجسامنا، فإن كل خلية جديدة لا بد أن تحتوي على العدد نفسه من (الكروموسومات)، وهي ستة وأربعون، إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنسانًا.

والخلايا - كما ذكرت - دائمة الانقسام. يحدث هذا في جميع ساعات اليوم حتى في أثناء نومنا، ونحن حتى الآن ما ندرك حقيقة القوى المهيمنة على هذه العملية المذهلة - عملية انقسام الخلايا -، بل يكتفي العلم بوصف خطوات العملية التي يمكن ملاحظتها تحت عدسات (الميكروسكوب) العادي، أو عن طريق (الميكروسكوب الإلكتروني) الذي يكبر الأشياء تكبيرًا أكثر بكثير من تكبير الميكروسكوب العادي. =

. . . .

= إن جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام في جسم الإنسان لا بد أن تحتوي - كما ذكرت - على ستة وأربعين كروموسومًا، فيما عدا نوعين من الخلايا؛ هما الخلايا التناسلية، أي الحيوان المنوي في الذكر والبويضة في الأنثى، إذ عندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لا تحتوي على الستة والأربعين كروموسومًا، بل تحتوي على نصف هذا العدد؛ أي يصبح في كل خلية تناسلية ذكرية أو أنثوية ثلاثة وعشرون كروموسومًا فقط.

لماذا يحدث ذلك؟ يحدث هذا؛ لحكمة بالغة ولهدف عظيم، إذ إن الخلية الذكرية (الحيوان المنوي) لا بد أن تندمج مع الخلية الأنثوية (البويضة) لتكوين أول خلية في جسم الجنين، وهي التي نطلق عليها اسم (الخلية الملقحة)، وبهذا الاندماج يعود عدد الكروموسومات في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي وهو ستة وأربعون (كروموسومًا).

وهذه الخلية الملقحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين (كروموسومًا) توالي انقسامها فتصبح خليتين، ثم أربع خلايا، ثم ثمان خلايا، وهكذا حتى يتم تكوين الجنين الذي يخرج من بطن أمه ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنسانًا كامل النمو في كل خلية من خلاياه ستة وأربعون (كروموسومًا)، كما هو الحال في خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده وجميع أفراد الجنس البشري.

إن اختزال عدد الكروموسومات إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكي تندمج فيعود العدد الأصلي (للكروموسومات) في الخلايا لا يمكن مطلقًا نتيجة مصادفة عمياء، بل لا بد أن يكون نتيجة تخطيط دقيق من قوة عُليا تعرف ماذا تفعل، وهي في الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ، إذ لو حدث خطأ مرة واحدة عند بدء الخلق لقُضي على الكائن الحي قبل تكوين الجيل الثاني؛ أي أن هذا الترتيب لا بد أن يكون قد تمَّ منذ تكوين أول جنين ظهر في الوجود. ألا يكفي هذا وحده دليلاً على وجود قوة عُليا مدبرة مقدرة حكيمة؟ بل لا يمكن أبدًا أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذي يسود جميع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط في الظلام، إذ إن المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخضع له جميع الكائنات.

فهذه بعض الأمثلة من جملة عشرات الأمثلة للدلائل العلمية المادية المستندة إلى الوسائل =

. . . .

= الإنسانية، تحيل وجود المتقنات الراقية الدقيقة المعقدة بالصدفة.
وأما البراهين العقلية المنطقية فهي أيضًا تحيل وجود المتقنات الراقية الدقيقة المعقدة بالصدفة. وفيما يلي استعراض سريع لبعض هذه الأدلة:
١- إن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي يمكن أن توجد فيه الحياة على الوجه الذي نعرفه (إن حركة دوران الأرض حول نفسها إن أسرعت أو أبطأت عمَّا هي عليه؛ لطالت الأيام أو قصرت، ولتوقفت الحياة بسبب برودة الليل أو قيظ النهار، والشمس في نفس الموقع بالضبط الذي يمكنها من حفظ الحياة على الأرض، ودرجة حرارتها البالغة (٦٥٠٠) درجة مئوية هي على وجه التحديد درجة الحرارة اللازمة لكوكبنا، فلو انحرف متوسط درجة الحرارة صعودًا أو هبوطًا على الهامش الصغير الذي لا يتجاوز (٢٨) درجة لانعدمت أمواج المد، فغمرت السهول والجبال وغطت كل شيء على ظهر الأرض تحت طبقة من الماء عمقها (٢٥٠٠) متر.
أما محور الأرض فإنه إن لم يكن على زاوية (٢٣) درجة كما هو، فلن تكون هناك فصول، ولتحركت أبخرة المحيطات نحو القطبين: الشمالي والجنوبي، مكونة تراكمات هائلة من الثلج عند القطبين، تاركة وسط الأرض خاليًا تمامًا من الماء، لن تكون هناك عندئذٍ أمطار، وستخلو المحيطات من مياهها، وستنبعج الأرض عند خط الاستواء تحت ضغط الثلوج المتراكمة عند القطبين، وسيترتب على ذلك آثار هائلة.
أما الغازات التي يتكون منها الغلاف الجوي فإنها إن اختلفت عمَّا هي عليه فلن يستطيع أي شيء أن يبقى حيًّا، واحتمال أن يكون كل هذا وليد الصدفة احتمال متناهي الضآلة، ولا يعدو أن يكون واحدًا في المليار؛ ولذلك يقول «آينشتين»: (لا أستطيع أن أصدق أن الكون قد نتج عن رمية زهر).
٢- لقد وجد من يقول: (لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبتها قصيدة من قصائد شكسبير - فكذلك الكون الموجود الآن، نتيجة لعمليات عمياء، ظلَّت تدور في المادة لبلايين السنين).
هذا قول أحد الملاحدة من المنكرين لوجود الله، ويجاب عن هذه الفرية؛ بأن أي كلام =

. . . .

= من هذا القبيل (لغو مثير)، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معانٍ، فإن جميع علومنا تجهل - إلى يوم الناس هذا - أية مصادفة أنتجت واقعًا عظيمًا ذا روح عجيبة، في روعة الكون.
ثم إن الرياضيات التي تعطينا نكتة (المصادفة) هي نفسها التي تنفي أي إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون المصادفة، ولهذا ردَّ على هذه الفرية عالم آخر من الغرب بقوله: (لو تناولت عشرة دراهم وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيدًا، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العشرة بالترتيب العددي بحيث تلقي كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى، فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد في المائة، وإمكان أن نخرج الدراهم (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب هو واحد في عشرة آلاف. . . حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم من (١-١٠) بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات). وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق؟ إن حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خاليًا يصعب حسابه فضلاً عن تصوره.
إن كل ما في الكون يحكي أنه إيجاد موجِد حكيم عليم خبير، ولكن الإنسان ظلوم جهول: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾.
كيف يمكن أن تتأتى المصادفة في ذلك كله، في خلق الإنسان وتكوينه، وفي صنع طعامه على هذا النحو المقدَّر الذي تشارك فيه الأرض والسماء. ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾. وصدق الله في وصفه للإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.
قال الإمام ابن القيم: سل المعطل الجاحد: ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أُحكمت آلاته، وأُحكم ترتيبه، وقُدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللاً في مادته ولا في صورته، وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقة من يلِمُّ شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شيء ولا تتلف ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به، ويقسمه =

. . . .

= هكذا على الدوام. . . أترى هذا اتفاقًا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر؟ بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك اتفاقًا من غير فاعل ولا قيِّم ولا مدبر. . أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان؟ وما الذي يفتيك به؟ وما الذي يرشدك إليه؟

ولكن من حكمة العزيز الحكيم أنْ خلق قلوبًا عميًا لا بصائر لها - فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية - كما خلق أعينًا عميًا لا أبصار لها، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهي لا تراها، فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها! فهي تقول في ضوء النهار: هذا ليل! ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئًا.

ولقد أحسن القائل:

وَهَبْنِي قلت هذا الصبح ليل   أَيَعْمَى العالمون عند الضياء

أخيرًا ما أقول، هو ما اعترف به كبار علماء الكون المعاصرين، من تراجع العلم المعاصر عن اعتبار الكون عن طريق المصادفة إلى إدراك أنه مظهر لخطة عليم حكيم قدير مهيمن على كل شيء.

يقول العلاَّمة الفلكي الرياضي البريطاني السيد (جيمس جينز): (لقد كنا قبل ثلاثين سنة - ونحن ننظر إلى الكون - نظن أننا أمام حقيقة من النوع الميكانيكي، وكان يبدو لنا أن الكون يشتمل على ركام من المادة المبعثرة، وقد اجتمعت أجزاؤه بالمصادفة، وأنَّ عمل هذه المادة ينحصر في أن ترقص لبعض الوقت رقصًا لا معنى له، تحت تأثير قوى عمياء لا هدف لها، وأنها بعد نهاية الرقص ستنتهي هذه المادة في صورة كون ميت، وأن الحياة قد وجدت مصادفة خلال عمل هذه القوى العمياء، وأن بقعة صغيرة جدًّا من الكون قد نعمت بهذه الحياة، أو على سبيل الاحتمال يمكن أن توجد هذه الحياة في بقاع أخرى، وأن كل هذه ستنتهي يومًا ما، وسيبقى الكون فاقد الروح.

ولكن توجد اليوم أدلة قوية، تضطر علم الطبيعة إلى قبول الحقيقة القائلة: بأن نهر العلم ينساب نحو حقيقة غير ميكانيكية.

إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكينة عظيمة. إن (الذهن) لم يدخل إلى هذا العالم المادي كأجنبي عنه، ونحن نصل الآن إلى مكان يجدر بنا فيه استقبال (الذهن) كخالق هذا الكون وحاكمه. =

نقض الداروينية[1]

للأستاذ / أبي بكر محمد زكريا[2]

وذلك؛ حينما رأوا أن الحياة إنما هي نتيجة النشوء والارتقاء، وأن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارج للطبيعة، في وضع

= إن هذا الذهن - بلا شك - ليس كأذهاننا البشرية، بل هو ذهن خَلَقَ الذهن الإنساني من (الذرة، المادة)، وهذا كله كان موجودًا في ذلك الذهن الكوني في صورة برنامج معد سابقًا.
إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر في أفكارنا عن العالم، تلك التي أقمناها على عجل، لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة منظمة أو مهيمنة..).
فهذا التراجع يدلنا على أن مواقفهم غير ثابتة، بل هي واهية البنيان والأساس، وما الاستدلالات التي استدلوا بها على أفكارهم إلا ظنونًا وتخمينًا، فالعالم من خلق خالق مبدع حكيم مريد خلقه على خطة مسبقة معدٍّ، وهو يهيمن عليه ويحيط به في جميع أجزائه».

(١) الداروينية تُسب إلى الباحث الإنجليزي تشارلز داروين (ت ١٨٨٢م)، الذي نشر كتابه (أصل الأنواع) سنة ١٨٥٩م، والذي طرح فيه نظريته النشوء والارتقاء، مما زعزع القيم الدينية، وترك آثارًا سلبية على الفكر العالمي. انظر: «الموسوعة الميسرة» (ص ٢١١).

(٢) نقلاً عن كتابه: «الشرك في القديم والحديث» (٢/ ٧٥٧ - ٧٧٨). وللمزيد عن نقض الداروينية انظر: «العلم يتبرأ من نظرية دارون»؛ لزياد أبوغنيمة، و«سقوط نظرية داروين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة»؛ لماهر خليل، و«الإسلام و نظرية داروين»؛ للشيخ محمد أحمد باشميل، و«سقوط نظرية دارون»؛ لأنور الجندي، و«القرآن يكذب نظرية دارون»؛ لهارون يحيى، و«شبهات وردود حول العقيدة الربانية و أصل الإنسان»؛ لعبداللة ناصح علوان، و«مصرع الدارونية»؛ لمحمد علي يوسف، و«خلق لا تطور: الإنسان ابن آدم و ليس ابن قرد»؛ لفريق من العلماء، عرّبه بتصرف إحسان حقي، و«نظرية التطور الدارونية: خرافة باسم العلم»؛ لطالب الجنابي، و«الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان و تفنيد نظرية داروين»؛ لمحمد نبيل النشواتي.

ميكانيكي بحت[١].

خلاصة أفكارهم في إنكار الخالق سبحانه:

١- تقوم فكرة التطور الداروينية على أن الكائنات الحية تسير في تطورها مرتقية من أدنى الأحياء إلى الأعلى فالأعلى، وأن الإنسان قد كان قمة تطورها.

٢- وبقاء بعض الأنواع وانقراض بعضها يرجع إلى ظاهرة الصراع من أجل البقاء، فالبقاء يكون للنوع المكافح الأفضل، وأما النوع الخامل الذي لا يكافح من أجل البقاء فإنه يضمر، ثم يضمحل، ثم ينقرض. وهو ما يسمى بالانتقاء الطبيعي.

٣- والعضو الذي يُهمل إذ لا تبقى له وظيفة عمل في النوع الواحد، يضمر شيئًا فشيئًا، حتى يضمحل، ولايبقى منه إلا أثر يدل عليه، وقد لا يبقى له أثر.

كانت هذه هي الداروينية في عالم الأحياء، ثم عُممت حتى شملت الوجود المادي كله، من الغاز السديمي الأول -كما يسمونه- حتى المجرات فالكواكب، فالمواد الصالحة لظهور الحياة، فالنبات، فالحيوان، وأمسى التطور مذهبا[٢].

وقد أجرى الداروينيون تنقيحات وتعديلات في آراء داروين من بعده، وحشدوا لفكرة التطور الطبيعي في الأحياء أسانيد ترجع كلها إلى العناصر الثلاثة السابقة.

١- تعتمد النظرية على أساس ما شوهد في زمن (داروين) من الحفريات

---

(١) الموسوعة الميسرة (ص ٢١٢).

(٢) انظر ما ذكره الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني في «كواشف زيوف» (ص ٣١٨ ومابعدها).

الأرضية، فقد وجدوا: أن الطبقات القديمة تحتوي على كائنات أولية، وأن الطبقات التي تليها تحتوي على كائنات أرقى فأرقى. فقال (داروين): إن تلك الحيوانات الراقية قد جاءت نتيجة للنشوء والارتقاء من الحيوانات والكائنات الأولى[١].

ثم وجد الداروينية من هذه الحفريات ما يسمونه بإنسان بلتداون بجمجمة إنسان وفك قرد[٢].

٢- وتعتمد أيضا على ما كان معروفًا في زمن (داروين) من تشابه جميع أجنة الحيوانات في أدوارها الأولى، فهو يوحي بأن أصل الكائنات واحد، كما أن الجنين واحد، وحدث التطور على الأرض كما يحدث في أرحام الكائنات الحية.

٣- كما تعتمد النظرية على وجود الزائدات الدودية في الإنسان التي هي المساعد في هضم النباتات، وليس لها الآن عمل في الإنسان، مما يوحي بأنها أثر بقي من القرود لم يتطور، لأنها تقوم بدورها في حياة القرود الآن.

٤- تأخر وجود بعض أنواع الأحياء على سطح الأرض عن بعض[٣].

وقالوا في كيفية عملية التطور: إن هناك ثلاث وسائل في إكمال عملية لتطور، وهي:

أ- الانتخاب الطبيعي: تقوم عوامل الفناء بإهلاك الكائنات الضعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية، وذلك ما يسمى بزعمهم بقانون (البقاء

---

(١) انظر ما ذكره الدكتور عمر الأشقر في «العقيدة في الله» (ص ٨٠ ومابعدها).
(٢) انظر ما ذكره آق بلوت في «داروِن ونظرية التطور» (ص ١٢٠ - ١٢٤).
(٣) كواشف زيوف (ص ٣١٨، ٣٢٩).

للأصلح)، فيبقى الكائن القوي السليم الذي يورث صفاته القوية لذريته، وتتجمع الصفات القوية مع مرور الزمن مكونة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو (النشوء) الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطور، وذلك هو الارتقاء.

ب- الانتخاب الجنسي: وذلك بواسطة ميل الذكر والأنثى إلى التزوج الأقوى والأصلح، فتورث بهذا صفات الأصلح، وتنعدم صفات الحيوان الضعيف؛ لعدم الميل إلى التزاوج بينه وبين غيره.

جـ- كلما تكونت صفة جديدة ورثت في النسل[١].

هذا آخر ما تخيلوا من الشبه التي يتشبثون بها، في محاولة الإنكار للخلق المباشر، ولننظر فيما يلي مدى واقعية هذه الفكرة، ومدى صحتها لدى العلماء الغربيين أيضًا، فضلاً عن كونها من الأساطير والخرافات لدى أصحاب الملل الثلاث.

* تفنيد الأساس الذي قامت عليه النظرية[٢]:

١- أما استدلالهم بالحفريات:

فيقال: إن علم الحفريات لا يزال ناقصًا، فلا يدعي أحد أنه قد أكمل التنقيب في جميع طبقات الأرض وتحت الجبال والبحار، فلم يجد شيئًا جديدًا ينقض المقررات السابقة.

---

(١) انظر: «العقيدة في الله» (ص ٨٠ ومابعدها).

(٢) لقد تم الاستفادة في أغلب هذه الردود مما كتبه الدكتور عمر الأشقر في كتابه «العقيدة في الله» (ص ٨٠ - ٩٢).

وعلى فرض ثبات مقررات هذا العلم، فإن وجود الكائنات الأولى البدائية أولاً، ثم الأرقى، ليس دليلا على تطور الكائنات الأدنى، بل هو دليل على ترتيب وجود هذه الكائنات فقط عند ملاءمة البيئة لوجودها على أي صورة كان هذا الوجود، وإذا كانت الحفريات في زمن داروين تقول: إن أقدم عمر للإنسان هو ستمائة ألف سنة، فإن الاكتشافات الجديدة في علم الحفريات قد قَدرت أن عمر الإنسان يصل إلى عشرة ملايين من السنين.

أليس هذا أكبر دليل على أن علم الحفريات متغير لا يُبنى علية دليل قطعي؟ وأنه قد ينكشف في الغد من الحقائق عكس ما كنا نأمل؟

يقول الدكتور (جمال الدين الفندي) أستاذ الفلك في كلية العلوم بجامعة القاهرة: «إن من الأدلة التي تنفي نظرية داروين: أن عمر الأرض كما قدره الفلكيون والطبيعيون لا يربو على ثلاثة بلايين سنة، بينما يقدر علماء الحياة أن المدة اللازمة لتطور الأحياء على الأرض إلى حين عصر الحياة القديمة تزيد على سبعة بلايين سنة، بمعنى أن عمر الأرض لابد أن يكون عشرة بلايين سنة؟ أي ضعف عمر الشمس»[1].

ويتولى أحد علماء الغرب في كتابه (الإنسان الأول): «من المؤسف أنه لايوجد لدينا إلا وثائق غير تامة من الحفريات عن أصل قرد الإنسان، ولا نعلم في أي وقت ولا في أي مكان بدأ شكل الإنسان يختلف عن شكله القرد»[2].

فالحفريات لا تُعتبر دليلا أبدًا، حتى إن الرأي الأخير من الحفريات هو

(١) المرجع السابق (ص ٨١ - ٨٢).

(٢) راجع ما نقله عنهم الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر في كتابه: «أصل الأجناس البشرية» (ص٣٤١).

يناقض تمامًا ما قالته الداروينية، وذلك لما وجدوا من الجماجم الإنسانية التي تدل على وجود هذا النوع من مدة سحيقة موغلة أكثر مما يثبته الداروينيون لعمر الإنسان(١).

وأما ما قيل من أنهم عثروا على إنسان بلتداون بجمجمة إنسان وفك قرد، مما يدل على أن الإنسان تطور من القرد، وأن إنسان بلتداون صورة من صور الحلقات المفقودة في عملية التطور، فيقال في الرد عليهم:

إن التجارب الأخيرة على إنسان بلتداون أثبتت أنه ليست قديمًا كما تصوروا، بل إن هناك من قام بإحداث عدة تغييرات في هذه الجثة؛ للإيهام بأنها تعود إلى أزمان غائرة جدًا، وليس هذا فحسب، بل تبين أن الأسنان المغروسة في عظم الفك بُردت بمبردة للتمويه وللإيهام بأنها تآكلت على مر الزمن، وكانت علامات البرد ظاهرة لكل عين متفحصة، وأخيرًا أُعلنت النتيجة في تشرين الثاني سنة ١٩٥٣م، وكانت كما يلي:

«إن (إنسان بلتداون) ليس إلا قضية تزوير وخداع، تمت بمهارة ومن قبل أناس محترفين، فالجمجمة تعود إلى إنسان معاصر، وأما عظام الفك فهي لقرد أورنج بعمر عشر سنوات، والأسنان هي أسنان إنسان غُرست بشكل اصطناعي ورُكبت على عظام الفك. وظهر ذلك، إن العظام عوملت بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه، وإعطاء شكل تاريخي قديم لها»(٢).

٢- وأما الاستدلال بتشابه أجنة الحيوانات:

فذلك خطأ كبير وقع فيه بعض العلماء؛ نتيجة عدم تقدم الآلات المكبرة التي

---

(١) المرجع السابق (ص ٩٢ - ٩٤، ١١٢، ١٩٥، ٣٣٧).

(٢) انظر ما نقله آق بلوت في «دارون ونظرية التطور» (ص ١٢٣ - ١٢٤).

تبين التفاصيل الدقيقة التي تختلف بها أجنة الحيوانات بعضها عن بعض في التكوين والتركيب والترتيب، إلى جانب التزييف الذي قام به واضع صور الأجنة المتشابهة العالم الألماني (أرنيست هيكل)، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له: أنه اضطر إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول[١].

ثم لما تقدمت الآلات المكبرة في العصر الحاضر بينت هذه الآلات تفاصيل دقيقة بين أجنة الحيوانات، وظهر أنه لا تشابه بين أجنة الحيوانات أبدًا، وأن أجنة الإنسان تختلف عن أجنة القردة من عدة جوانب[٢].

٣- أما الاستدلال بوجود الزائدة الدودية على نظرية التطور والنشوء الذاتي:

فيقال: إن وجود الزائدة الدودية في الإنسان كعضو أثري للتطور القردي ليست دليلاً قاطعًا على تطور الإنسان من القرد، بل يكون سبب وجودها هو وراثتها من الإنسان الجد الذي كان اعتماده على النباتات، فخُلقت لمساعدته في هضم تلك النباتات[٣].

ثم القول بأن الزائدة الدودية ليست لها وظيفة حاليًا في جسم الإنسان قول غير صحيح، فإنه أثبت الطب حديثاً: أن الزائدة الدودية ذات وظيفة في جسم الإنسان، وهي جهاز لمفاوي مناعي في البطن، كغيره من أجهزة المناعة في جسم كإنسان، لذلك تدعى باسم (لوزات البطن)[٤].

---

(١) العقيدة في الله (ص ٨٢).

(٢) انظر: «دارون ونظرية التطور» (ص ٧٨)، حيث ذكر الفوارق المهمة بين أجنة الحيوانات بالرسم والصورة المأخوذة من الآلات المكبرة.

(٣) العقيدة في الله (ص ٨٢).

(٤) انظر: «كواشف زيوف» (ص ٣٢٩).

كما أن العلم قد يكشف لها حقيقة أخرى لا تزال غائبة عنا حتى اليوم، لأن العلم كل يوم إلى ازدياد، وإذا كانت الخنوثة من صفات الكائنات الأولية الدنيا، والزوجية من خصائص الكائنات الراقية، فإن الثدي من أمارات الأنوثة، ونجد الفيل الذكر له ثدي كما للإنسان، في حين ذكور ذوات الحافر كالحصان والحمار لا ثدي لها إلا ما يشبه أمهاتها، فكيف بقي أثر الخنوثة في الإنسان، ولم يبق فيما هو أدنى منه؟ مع أن داروين يزعم أن الإنسان تطور مما هو أدنى منه؟ ![1].

٤- أما الاستدلال بتأخر وجود بعض أنواع الأحياء على سطح الأرض عن بعض على إثبات نظرية التطور:

فيقال: إن تأخر ظهور بعض الأنواع الراقية عن أنواع سابقة لها في الوجود لا يقتضي أن السابق أبٌ أو جدٌ لما ظهر بعده، إذ الاحتمال الأقرب للتصور أن يكون مبدع النوع الأول قد أبدع بعده النوع الأرقى، ثم أبدع بعد ذلك الأرقى فالأرقى، ثم أبدع أخيراً الإنسان.

وهذا ما نلاحظه في سلسلة المبتكرات والمخترعات، فاللاحق كثيراً ما يكون وليد فكر المبدع ونتاج عمله، بالاستناد إلى ملاحظته للسابق، وليس ثمرة التطوير للسابق نفسه في واقع العمل، بحذف شيء منه وإضافة شيء إليه، فالعملية تكون عملية فكرية، ويأتي التطبيق الواقعي غالباً بناءً جديدًا.

ومهما يكن من أمر، فالاحتمالان أمران متكافئان إمكانًا، بشرط ربط كلٍ منهما بأنه مظهر لاختيار مدبر خالق حكيم، أما التطور الذاتي إلى الأكمل دون تدبير حكيم عليم قدير خالق، فهو أمر مستحيل عقلاً، إذ الناقص لا يُنتج الكامل

(١) العقيدة في الله (ص ٨٢).

في خطة ثابتة، وهو بمثابة إنتاج العدم للوجود. وإحالة الأمر على المصادفة إحالة على أمر مستحيل علميًا ورياضيًا في عمليات الخلق الكبرى[١].

تفنيد شرح داروين لعملية التطور:

أما القول بالانتخاب الطبيعي: بأن هناك ناموسًا أو قانونًا يعمل على إفناء الكائنات الحية، فلا يبقى إلا الأصلح الذي يُورِث صفاته لأبنائه، فتتراكم الصفات القوية حتى تكون حيوانًا جديدًا.

فيُقال: حقًا هناك نظام وناموس وقانون يعمل على إهلاك الكائنات الحية جميعها قويها وضعيفها، لأن الله قدر الموت على كل حي، إلا أن نظامًا وناموسًا يعمل بمقابلة هذا النظام؛ ذلك هو قانون التكافل على الحياة بين البيئة والكائن، لأن الله قدر الحياة فهيأ أسبابها؛ فنجد الشمس والبحار والرياح والأمطار والنباتات والجاذبية، كل هذه وغيرها تتعاون للإبقاء على حياة الإنسان وغيره من الحيوانات، فالنظر إلى عوامل الفناء وغض النظر عن عوامل البقاء يُحدث خللا في التفكير، فإذا كانت هناك سُنة للهلاك فهناك سُنة للحياة، ولكل دور في الحياة، وإذا كانت الظروف الطبيعية: من رياح ورعد وحرارة وماء وعواصف وغيرها قادرة على تشويه الخلق أو تدمير صنعة، كطمس عين أو تهديم بناء، فإنه من غير المعقول أن تقرر هذه الظروف الطبيعة الميتة الجامدة والبليدة أن تنشئ عينًا، لمن لا يملك عينًا، أو تُصلح بناء فيه نقص[٢].

ولكن للأسف، إن التطوريين يقولون بمثل هذا القول. فالانتخاب الطبيعي

(١) المرجع السابق (ص ٨٢ - ٨٣).
(٢) انظر: المرجع السابق.

معبود التطوريين المحروم من الشعور، هكذا وبهذه البساطة يعتقد داروين أنه استطاع أن يشرح كيفية تحول عضو من شكل إلى آخر، أما العلم المعاصر فإنه يرفض هذا الشرح وهذا التفسير، بل يعتبره مضحكًا، فكما يصعب على الإنسان الاعتقاد بأن سيارة تسير بالبنزين قد تحولت -نتيجة سلسلة حوادث المرور- إلى سيارة تعمل بالغاز السائل، وأنها في فترة من فترات التحول كانت تسير بالبنزين والغاز معًا من باب الاحتياط!! كذلك يصعب عليه تصديق كل هذه الحكايات حول خروج الأحياء من الماء إلى اليابسة.

إذ لا مبرر هناك للاعتقاد بأن كل هذه المزاعم صحيحة من دون تحقيق وتمحيص، حتى وإن قدمها البعض تحت لبوس العلم، لأن قليلاً من العلم وقليلاً من التفكير، يكفيان لرؤية كيف أن اللوحة التي تُقدمها نظرية التطور في حاجة إلى عقل وشعور خارقين.

ويمثل هنا بمثال واحد، فمثلاً قبل كل شيء يحتاج جهاز التنفس لكي يتعرض لمثل هذا التبدل والتحول إلى تعيين هدف أمامه... وهذا الهدف هنا هو (الخروج من الماء إلى اليابسة)، فمن الذي يعطي هذا القرار ويعين هذا الهدف؟ أهو الكائن نفسه؟ أهي جزيئات جسمه؟ أهو الماء؟ أهو الهواء؟

ثم يجب تعيين الخطوات اللازمة للوصول إلى هذا الهدف، ووضع خطة تحتوي على تفاصيل كثيرة جدًا تشمل أجهزة الجسم كله، فمن الذي يضع هذه الخطة؟ أهو الكائن الحي؟ أهي ذرات جسمه؟ أم الهواء؟.

ثم يجب الأخذ بنظر الاعتبار جميع العوائق والمشاكل التي قد تظهر أثناء خطوات التقدم نحو الهدف، وأخذ التدابير والاحتياطات اللازمة تجاهها، وإدراج جميع هذه التدابير في الخطة بشكل مناسب، بحيث لا تتعارض مع الخط العام للخطة. فمن الذي يرى المشاكل والعوائق والصعوبات قبل أوانها،

ويفكر بالتدابير اللازمة فيؤمن التنسيق بين الأعضاء؟ أما القول بأن (الأعضاء تقوم من نفسها بتأمين نظام للتعاون والمساعدة فيما بينها)[١]، فهو قول لا يقره أي عقل وأي منطق.

ثم تأتي مرحلة التنفيذ، والتطوريون يرون أنها تحقق نتيجة ملايين الحوادث التي تصيب شفرات الجينات. والغريب أن هذه الحوادث تكون وكأنها مرتبة ضمن خطة معينة! ثم إن حادثة معينة تأتي لتكمل (التقدم) الذي حققته الحادثة السابقة، ولتدفع خطوة أخرى إلى الأمام، ولتقرب الكائن خطوة أخرى نحو الهدف!، وهكذا يتخلص هذا الكائن من غضبة الانتخاب الطبيعي (الذي يجول في الدنيا في كل ساعة من ليل ونهار دون أن يحس به أحد)[٢]!.

وأخيرا بعملية تشبه عملية تحول دراجة أطفال ذات ثلاث عجلات، إلى طائرة فانتوم، إثر تعرضها لسلسلة من الحوادث العشوائية! تظهر أمامنا المعجزة وتتكامل.

ثم إنه من الغريب جدًا، أن لا يؤدي عبث الصدفة بشفرات الجينات إلى كوارث، ونحن نفسر عدم فهم داروين ومعاصريه هذا الأمر إلى قلة معلوماتهم، أما الإصرار ممن جاء بعدهم عليه، فلا يفسر إلا بالعناد والتعصب، ذلك؛ لأن مد يد العبث إليها أو تدخل الصدفة، لا تؤدي إلا إلى كارثة.

واليوم يحاول الذكاء الإنساني -وليست الصدفة- أن ينفذ إلى أعماق علوم الجينات بدراسات شاقة، فمن المستحيل قبول الادعاء بأن الصدفة والانتخاب الطبيعي استطاعا القيام بحل كل هذه الألغاز التي استعصى حلها على الذكاء

---

(١) انظر: كتاب داروين «أصل الأنواع» (ص ١٣٣).

(٢) المرجع السابق.

الإنساني، بالرغم من جميع الجهود المبذولة في هذا المجال. من المستحيل قبول هذا الادعاء وإن بُذلت المحاولات لوضع قناع العلم عليه. وبالرغم من مرور قرن على وفاة داروين، فإن التطوريين لم يتعبوا بعد من محاولة جعل هذا المستحيل ممكناً(١).

أما شرحه الثاني لقانون التطور بأنه يحصل (التطور) أيضًا بالانتخاب الجنسي الذي يكون به الميل في التناسل بين الأفراد القوية مما سبب اندثارا لأفراد الضعاف، وبقاء الأقوى:

فيقال: إن ذلك ليس دليلاً على حدوث تطور في النوع، بل يُفهم منه بقاء النوع القوي من نفس النوع، واندثار النوع الضعيف.

ثم إنه ليس بصحيح أن الصفات الحسنة في فرد من الأفراد تُنقل بواسطة الوراثة. فمثلاً: هذا الحداد القوي العضلات لا تنتقل قوة عضلاته إلى ذريته، كما أن العالم الغزير العلم لا ينتقل علمه بالوراثة إلى أبنائه(٢).

أما القول الأخير له في شرحه لعملية التطور كيف تمت هي: بأنه (كلما تكونت صفة جديدة ورثت في النسل):

فيقال في الجواب عليه: إن القول بحدوث النشوء لبعض الخصائص والصفات العارضة ثم توريثها في النسل، فذلك ما يرفضه علم الوراثة الحديث.

فكل صفة لا تكمن في الناسلة ولاتحتويها صبغة من صبغاتها، فهي صفة عارضة لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة(٣).

---

(١) انظر: «داروين ونظرية التطور» (ص ٩٨ - ١١٣).

(٢) انظر: «العقيدة في الله» (ص ٨٤).

(٣) انظر: المرجع السابق. فقد ذكر شاهدًا من أقوال الأطباء المتخصصين بهذا المجال.

وإلى جانب مخالفة علم الوراثة (لنظرية داروين)، فإن التجربة تنقضه؛ فهاهم اليهود والمسلمون من بعدهم يختتنون أبناءهم، ولكن ذلك كله لم يُسبب أن وُلد أطفالهم بعد مرور السنين مختونين، وهكذا، فكلما تقدم العلم أثبت بطلان نظرية داروين.

*** النظرية لا يؤيدها الواقع المشاهد:**

١- لو كانت النظرية حقًا لشاهدنا كثيرًا من الحيوانات والإنسان تأتي إلى الوجود عن طريق التطور، لا عن طريق التناسل فقط، وإذا كان التطور يحتاج إلى زمن طويل فذلك لا يمنع من مشاهدة قرود تتحول إلى آدميين في صورة دفعات متوالية كل سنة، أو كل عشر سنوات، أو كل مائة سنة.

٢- لو سلمنا جدلاً: أن الظروف الطبيعية والانتخاب الطبيعي، قد طورت قردًا إلى رجل- مثلاً فإنا لن نسلم أبدًا بأن الظروف قد قررت أيضا أن تكون امرأة لذلك الرجل ليستمرا في التناسل والبقاء مع الموازنة بينهما.

٣- إن القدرة على التكيف التي نشاهدها في المخلوقات - كالحرباء مثلاً تتلون بحسب المكان - هي مقدرة كائنة في تلك المخلوقات تولد معها، وهي عند بعضها وافرة وعند البعض الآخر تكاد تكون معدومة، وهي عند جميع المخلوقات محدودة لا تتجاوز حدودها، فالقدرة على التكيف صفة كامنة، لا صفة متطورة تكوّنها البيئة كما يزعم أصحاب النظرية، وإلا كانت البيئة فرضت التكيف على الأحجار والأتربة وغيرها من الجمادات.

٤- تمتاز الضفادع على الإنسان بمقدرة على الحياة في البر والماء، كما تمتاز الطيور عليه بمقدرة على الطيران والانتقال السريع، وذلك بدون آلة، كما أن أنف الكلب أشد حساسية من أنف الإنسان، فهل أنف الكلب أكثر رقيًا من

أنف الإنسان؟ وهل الضفادع والطيور أرقى من الإنسان في بعض الجوانب؟ فهذه النظرية يخالفها الواقع المشاهد مخالفة تامة[١].

* النظرية تعجز عن الإجابة المقنعة لكثير من الأسئلة عن الظواهر الموجودة:

إن نظرية التطور تحسب أنها استطاعت تفسير نشوء الكائنات الحية وتكاملها، وكل شيئ بـ(الانتخاب الطبيعي)، ولكن الحياة هي أشمل وأعقد من مجرد أجساد الكائنات الحية، فعلاوة على وجود الأجهزة العضوية في أجساد الكائنات، هناك علاقات متداخلة ومتشعبة ومعقدة وحساسية بين هذه الكائنات والكائنات الأخرى من جهة، وبينها وبين بيئتها، وهذا موضوع مهم لا يمكن لأية نظرية تدعي تفسير الحياة أن تُهمل إيضاحها وتفسيرها، غير أننا نرى أن الظلمات تحيط بهذا الموضوعات في نظرية التطور، ولا نرى أي بصيص من نور.

فمثلاً: لا تستطيع نظرية التطور تفسير كيف أن البعوضة، ما أن تفتح عيونها على الحياة حتى تحاول الوصول إلى هدفها، ورزق أبرتها -كأي ممرضة متمرسة- والقيام بامتصاص الدم؟

كما لا تستطيع هذه النظرية تفسير كيف تستطيع النحلة التجول بين الأزهار، وامتصاص رحيقها لعمل غذاء من أنقى الأغذية، وليس هناك من معلم أو مدرب لها؟ وكيف تستطيع بإشاراتها ورقصاتها الخاصة من التخاطب مع أفرادها مجموعتها، ثم القيام بإنشاء خلاياها بدقة هندسية متناهية، لا نشاهد فيها خطأ مليمتر واحد؟

أم هل تستطيع هذه النظرية تفسير كيف أن الطفل، وهو جنين في بطن أمه

---

(١) انظر: «العقيدة في الله» (ص ٨٥ - ٨٦).

يتدرب لاكتساب المهارة الوحيدة المطلوبة منه، وهي عملية مص الثدي، وذلك بمص أصبعه؟!

كيف تبني العناكب بيوتها؟ والطيور أوكارها؟ والنمل مساكنها؟ أسئلة لا تستطيع هذه النظرية الإجابة عليها.

ويمكن تعداد أسئلة أكثر وأكثر وكتابة مجلدات من الكتب حول هذا الموضوع، بل يمكن صرف العمر كله في تعداد هذه الأمثلة، أما الاكتفاء بالقول بأن (الغريزة) هي الكلمة السحرية التي تفسر وتوضح هذه المهارات المتعددة والمذهلة والمختلفة، فليس إلا إعلانًا عن جهل الإنسان وعماه[(١)].

* **موقف علماء الطبيعة من هذه النظرية:**

لعلماء الطبيعة موقفان وراء هذه الفرضية:

الأول: المؤيدون للنظرية: وتأييدهم كان أكثر انتصار لحرية الفكر الذي كانت الكنيسة تحاربه، وتقاومه، وحربًا مضادة يشنها علماء الطبيعة ضد قسس الكنيسة وأفكارهم بعد أن نشبت حرب طاحنة بين الفريقين.

فالتأييد إنما هو نتيجة حرب حاقد على الأديان، لا عن علم واقتناع قلبي، فقد اعترف المؤيدون لهذه الفرضية (النظرية) أيضًا بأنها غير ثابتة وغير علمية، وفيما يلي بعض أقوالهم[(٢)]:

١- (إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين، وستظل كذلك؛

---

(١) راجع لمزيد من هذه التساؤلات ما كتبه آق بلوت في كتابه: «داروين ونظرية التطور» (ص ١٣٤ - ١٤١).

(٢) هذه الآراء مأخوذة مما ذكرته منيرة الغاياتي في كتابها «مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين» (ص ٧ - ١٢).

والسبب الوحيد في أننا نؤمن به هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا أمر غير وارد على الإطلاق)[١].

٢- (إن التغيرات الإعجازية التي نفترض أنها قاصرة على القصص الخرافية أمور عادية جدًا في نظرية النشوء والارتقاء)[٢].

٣- (إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء، لا كنتيجة للملاحظة، أو الاختبار، أو الاستدلال المنطقي، ولكن لأن فكرة الخلق المباشرة بعيدة عن التصور)[٣].

٤- (إننا بالرغم من إيماننا بالنشوء فإننا لا نعلم كيف حدث)[٤].

٥- (إن نظرية النشوء جاءت لتبقى، ولايمكن أن نتخلى عنها، حتى ولو أصبحت مجرد عمل من أعمال الاعتقاد)[٥].

٦- (كلما تعمقنا في دراسة أنتوبيولوجيا[٦] كلما اكتشفنا أن نظرية النشوء ترتكز على الاعتقاد)[٧].

هكذا يصبح واضحًا، أن هذه النظرية ليس لها أي مستند صحيح، وقد اعترف بتهافتها وعدم ثبوتها علميا حتى مؤيدوها، وهو مدين بوجوده فقط لذلك الرفض العنيد للإيمان بوجود الخالق[٨].

---

(١) هذا قول (سير أرتركيت).
(٢) قول (ج. و. بيب).
(٣) قول البروفيسور (واتسون) من جامعة لندن.
(٤) قول البروفيسور (بيتسون).
(٥) قول البروفيسور (د. هـ. سكوث).
(٦) أي: علم الإنسان.
(٧) قول البروفيسور (س مور).
(٨) انظر: المرجع السابق (ص ٧).

الثاني: المعارضون: لقد سبق معنا آراء المؤيدين لهذه النظرية بأنهم ما أيدوها على أنها حقيقة علمية، وإنما على أنها أفضل بدليل للإيمان بالله جل شأنه، فما بال العلماء الغربيين المتنورين بالعلم والحرية لا يعارضونها؟ لقد عارضها كثير من علماء الغرب الجيولوجيون والطبيعيون بالأدلة والبراهين، والمقام لا يتسع لذكر آرائهم هاهنا[١].

ولكن ما موقف بعض من تأثر بهذه النظرية من المسلمين؟ لقد تأثر بهذه النظرية كثير ممن يدير العلم في العصر الحاضر من المسلمين، كما قد قال ببعض هذه النظرية علماء مشهورون من هذه الأمة.

فممن تأثر بهذه النظرية من المعاصرين موريس بوكاي، حيث استدل في كتابه (ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة) على صحة هذه النظرية بقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[٢].

ويمكن أن يُرد على هذا القول بأنه لم يفسر به أحد من المفسرين لا بالمأثور ولا بالرأي، ولم يقل به أحد من السلف، بل تفسير الآية على حسب ما روي عن السلف هو أن المراد بالأطوار كونه (نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما)[٣].

وممن قال ببعض هذه النظرية من العلماء القدامى المشهورين: ابن خلدون[٤]، حيث فسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ على أنه في القردة

---

(١) انظر أقوال علماء الغرب المعاصرين لرأي داروين فيما كتبه الدكتور عمر الأشقر في كتابه «العقيدة في الله» (ص ٨٦ - ٨٧).

(٢) انظر ما قال موريس بوكاي في كتابه «ما أصل الإنسان» (ص ٢١٩ - ٢٢٥).

(٣) انظر على سبيل المثال: تفسير الطبري للآية.

(٤) انظر ما ذكره عنه بنصه: الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر في «أصل الأجناس =

إلى الإنسان. كما ينسب هذا القول إلى كل من الدميري[١]، والبلخي، والفخر الرازي، والفارابي، وغيرهم[٢].

ويجاب عن شبهتهم هذه: بأن تفسير هذه الآيات القرآنية لا يكون إلا على ضوء ما فهمه سلفنا الصالح، أو على ما يوافق الآيات القرآنية الأخر أو الأحاديث النبوية، وإذا ما وجدت يمكن أن يفسر على مقتضى طبيعة اللغة العربية وعلى فهم من أنزل إليهم، لا إلى الأهواء والمفاهيم السيئة، وإلا سيصبح الدين كله لعبة، كل يفسر الآيات القرآنية كما يهواه كما هو حال أهل البدع والزنادقة.

فالآيات المذكورة قد فُسرت على تفسيرين:

الأول: هو الذي عليه أكثر المفسرين؛ منهم علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وعكرمة والشعبي، والحسن وأبو العالية والضحاك والسدي وابن زيد، واختاره ابن جرير: أن المراد بالآية: . (ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب).

الثاني: ما روي عن ابن عباس أنه قال: إن معنى الآية: (ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيرًا، ثم احتلم، ثم صار شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرماً)، وبه قال قتادة، والضحاك في رواية[٣].

= البشرية» (ص ٣٢٠)، وهو في مقدمة تاريخ ابن خلدون (١/ ٩٥). وانظر ما ذكره الدكتور محمد علي البار في كتابه «خلق الإنسان» (ص ١١).

(١) صاحب كتاب «حياة الحيوان الكبرى».

(٢) انظر نسبة هذا القول إليهم في «أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم» (ص ٣٢٠ - ٣٢١)، و«خلق الإنسان» (ص١١).

(٣) انظر ما قاله ابن كثير في تفسيره الآية.

فترى أن التفسير الذي ذكروه ليس له أي سلف، فلا يقبل مثل هذه التأويلات الباطنية للآيات القرآنية.

ولما كان هناك من المسلمين من تأثر بهذه النظرية -أو الفرضية على الصحيح-، واستدل بعض هؤلاء بالآيات القرآنية، فإننا سوف نورد حديث القرآن عن أصل الإنسان وخلقه بآيات صريحة وواضحة في الدلالة لا لبس فيها ولا غموض، حتى لا يستطيع إنكاره إلا من أعمى الله بصره وجعل على قلبه غشاوة، وأضله عن سواء الصراط. ففيما يلي هذا البيان من القرآن الكريم والسنة النبوية:

*** حديث القرآن والسنة عن أصل الإنسان وكيفية خلقه:**

إن حديثنا الآن مع الذين يؤمنون بالله ربًا، فنحن نسألهم هل تؤمنون بأن الله يعلم ما خلق، وممَّ خلق؟ وسيكون الجواب حتما بنعم، وإلا يكونوا قد كفروا بالله، وإذا كانت الإجابة بنعم، فإننا نقول لهم: إن الذي خلق الخلق لا شك هو أعلم بالمخلوق، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

فإذا كان هو أعلم بالخلق وكيفية خلقه، فقد حكى بنفسه في القرآن وبيّنه الرسول ﷺ في السنة قصة خلق الإنسان ببيان ظاهر وواضح.

فالله يخبرنا أنه خلق الإنسان خلقًا مستقلاً مكتملاً، وقد أخبر ملائكته بشأن خلقه قبل أن يوجده: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وحدثنا عن المادة التي خلقه منها، فقد خلقه من ماء وتراب (طين)، قال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تبارك وتعالى خلق أدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر،**

والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب»[١].

والماء عنصر في خلق الإنسان، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، فهو إذن من ماء وتراب.

وقد شكله الله بيديه، حيث قال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ثم هذا الطين تحول إلى صلصال كالفخار ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾.

وقد خلقه مجوفا منذ البداية، ففي الحديث عن أنس بن مالك قال: «**لمّا صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به وينظر إليه، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك**»[٢].

هذا الطين نفخ الله فيه من روحه؛ فدبت فيه الحياة، فأصبح سميعًا بصيرًا عاقلاً واعيًا، فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حين ينفخ فيه الروح وتدب فيه الحياة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

وأخبرنا بالمكان الذي خلق فيه وهو الجنة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وبمجرد أن تم خلقه أخذ يتكلم ويفقه ما يقال له، ففي القرآن: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة -إلى ملأ منهم جلوس- فقل: السلام عليكم. قالوا: عليك السلام ورحمة الله..**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦١١).

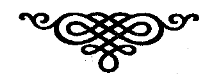
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، وصححه الألباني.

هذا هو الإنسان الأول؛ هو آدم عليه السلام، وهو أبو الناس كافة، بل إن المرأة خُلقت منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

ولم يكن خلق الإنسان ناقصًا ثم اكتمل، كما يقول أصحاب نظرية التطور؛ بل كان كاملاً ثم أخذ يتناقص الخلق، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خلق الله آدم عليه السلام، وطوله ستون ذراعا)[١].

ولذلك، فالمؤمنون يدخلون الجنة مكتملين على صورة آدم.

هذه لمحة مما حكاه القرآن وبينه عن خلق الإنسان الأول، لم أستقص النصوص من الكتاب والسنة في ذلك، وإلا فالقول في ذلك واسع طويل. وهو يعطي صورة واضحة لأصل الإنسان ليس فيها أي غموض، وهذا الذي بينه الإسلام أصل كريم يعتز الإنسان بالنسبة إليه، أما ذلك الإنسان الذي يصوره داروين -ذلك القرد الذي ترقي عن فأر أو صرصور- فإنه أصل يخجل الإنسان من الانتساب إليه!



(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١).

الإجابة عن سؤال الملاحدة المتكرر: (مَن خلق الله؟)

للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني[١]

لقد أخبرنا النبي ﷺ عن الوصفة الشرعية لعلاج هذه الشبهة التي «قد» تخطر بأذهان البعض، فقال: **«يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك؛ فليستعذ بالله ولينته»**[٢].

ففي هذا الحديث: بيان مصدر هذا السؤال، وهو: الشيطان، وبيان علاجه ورده، وهو:

١- أن ينتهيَ المسلم عن الانسياق وراء الخطرات، وتلبيس الشيطان.

٢- وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم ليتذكر المسلم قوله ﷺ: **«اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»**[٣].

فهذا العلاج السريع يقطع الشبهة من أصلها؛ لكي لا تُفسد على المسلم تفكيره وإيمانه لو استرسل معها؛ لأن الناس يتفاوتون في عقولهم، وليسوا كلهم سيدركون بطلان هذه المقولة الشيطانية لو حُللت له ونُقضت، ولهذا يُكتفى مع مجموعهم بالعلاج العاجل الذي يقيهم المرض بإذن الله.

---

(١) من كتابه «كواشف زيوف» (ص ٥٢٠ - ٥٢٤) - بتصرف يسير -.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

أما الملاحدة، أو أصحاب الشكوك والحيرة ممن تابعهم مستأنسًا لشبهاتهم، فيُستخدم معهم أسلوب آخر يعري لهم هذه المقولة؛ لأنهم حتمًا لن يقتنعوا بالعلاج الأول الذي يتكئ على إيمان الشخص وفطرته.

ولهذا فإنهم يُرددون مقولة الشيطان التي يقول فيها كما أخبر الرسول ﷺ: «**إذا خلق الله الخلق فمن خلق الله؟**».

١- فمن الذين ردّدوا هذه الوسوسة الشيطانية: الفيلسوف «هيوم» فقال: «إذا كان لابد لنا من البحث عن علّة لكل شيء، لوجب إذن أن نبحث عن علّة للإله نفسه».

٢- ومن الذين ردّدوها: الفيلسوف «هربرت سبنسر»، فقال: «استمع إلى هذا الناسك المتدين، هاهو ذا يقصّ عليك علّة الكون، وكيف نشأ، فخالق الكون عنده هو الله، ولكنه لم يفسّر بهذا الرأي من المشكلة شيئاً، ولم يزد على صاحبه (أي: المنكر للخالق) سوى أن أرجعها خطوة إلى الوراء.

وكأني بك تسائله في سذاجة الطفل: ومن أوجد الله؟».

٣- وأخذ الملحد العربي «صادق جلال العظم» هذه الفكرة من «سبنسر» فقال في كتابه «نقد الفكر الديني»: «وفي الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حول كل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون. عندما تقول لي: إن الله هو علّة وجود المادة الأولى التي يتألف منها الكون، وأسألك بدوري: وما علة وجود الله؟ إن أقصى ما تستطيع الإجابة به: لا أعرف إلا أن وجود الله غير معلول.

ومن جهة أخرى عندما تسألني: وما علة وجود المادة الأولى؟ فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به، لا أعرف إلا أنها غير معلولة الوجود. في نهاية الأمر اعترف

كل منا بجهله حيال المصدر الأول للأشياء، ولكنك اعترفت بذلك بعدي بخطوة واحدة، وأدخلت عناصر غيبية لا لزوم لها لحل المشكلة.

والخلاصة، إذا قلنا: إن المادة الأولى قديمة وغير محدثة، أو أن الله قديم وغير محدث، نكون قد اعترفنا بأننا لا نعرف، ولن نعرف كيف يكون الجواب على مشكلة المصدر الأول للأشياء، فالأفضل إذن أن نعترف بجهلنا صراحة ومباشرة، عوضاً عن الاعتراف به بطرق ملتوية، وبكلمات وعبارات رنانة. ليس من العيب أن نعترف بجهلنا، لأن الاعتراف الصريح بأننا لا نعرف من أهم مقومات التفكير العلمي». انتهى.

* كشف الزيف

إن التساؤل عن علة وجود المصدر الأول، حجة يوسوس بها الشيطان للإنسان، منذ بدأ الفكر الإلحادي يدبّ إلى أذهان بعض الناس.

وهذه الحجة الشيطانية تزعم أن الإيمان بأن الله هو المصدر الأول للأشياء، والوقوف عنده، يساوي نظريًا وقوف الملحدين عند المادة الأولى للكون، التي يطلقون عليها اسم السديم، وتزعم أن كلا الفريقين لا يجد جواباً على التساؤل عن علة وجود المصدر الأول، إلا أن يقول: لا أعرف، إلا أن وجود هذا الأصل غير معلول، وتزعم أن الملحد اعترف بهذا قبل المؤمن بخطوة واحدة.

وبعد هذه المزاعم يُخادع مطلقوها بأن إعلان الجهل والاعتراف به من متطلبات الأمانة الفكرية، حين لا توجد أدلة وشواهد وبراهين كافيات.

ولدى البحث المنطقي الهادئ يتبين لكل ذي فكر صحيح، أن هذه الحجة ليست إلا مغالطة من المغالطات الفكرية، وهذه المغالطة قائمة على التسوية بين أمرين متباينين تبايناً كلياً، ولا يصحّ التسوية بينهما في الحكم.

وفيما يلي تعرية تامة لهذه المغالطة من كل التلبيسات التي سُترت بها:

إننا إذا وضعنا هذه المغالطة بعبارتها الصحيحة كانت كما يلي:

ما دام الموجود الأزلي الذي هو واجب الوجود عقلاً ولا يصح في حكم العقل عدمه بحالٍ من الأحوال غير معلول الوجود، فلمَ لا يكون الموجود الحادث غير معلول الوجود أيضاً؟!

إن كل ذي فكر صحيح سليم من الخلل، يعلم علم اليقين أنه لا يصح أن يقاس الحادث على القديم الأزلي الذي لا أوّل له، فلا يصح أن يشتركا بناءً على ذلك في حكم هو من خصائص أحدهما.

على هذه الطريقة من القياس الفاسد من أساسه صُنعت هذه المغالطة الجدلية.

أما أزلية الخالق، وعدم احتياج وجوده إلى علة، فبرهان ذلك يمكن إيجازه بما يلي:

إن العدم العام الشامل لكل شيء يمكن تصوره في الفكر، لا يصح في منطق العقل أن يكون هو الأصل. لأنه لو كان هو الأصل لاستحال أن يوجد شيءٌ ما.

إذن: فلابد أن يكون وجود موجودٍ ما، هو الأصل، ومن كان وجوده هو الأصل فإن وجوده لا يحتاج عقلاً لأية علّة، بل وجوده واجب عقلاً، ولا يصح في العقل تصور عدمه، وأي تساؤل عن علةٍ لوجوده لا يكون إلا على أساس اعتبار أن أصله العدم ثم وُجد، وهذا يتناقض مع الإقرار باستحالة أن يكون العدم العام الشامل هو الأصل الكلي.

ومن كان وجوده واجباً بالحتمية العقلية باعتبار أنه هو الأصل، فإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يتصف بصفات تستلزم أن يكون حادثاً.

أما ادعاء أصليّة الوجود للكون بصفاته المتغيرة فهو ادعاء باطل، وذلك بموجب الأدلة التي تثبت أنه حادث وليس أزلياً.

إن هذا الكون يحمل دائماً وباستمرار صفات حدوثه، تشهد بهذه الحقيقة النظرات العقلية المستندة إلى المشاهدات الحسية، وتشهد بها البحوث العلمية المختلفة في كل مجال من مجالات المعرفة، والقوانين العلمية التي توصل إليها العلماء الماديون.

وإذ قد ثبت أن هذا الكون عالم حادث، له بداية وله نهاية، فلا بد له حتماً من علة تسبّب له هذا الحدوث، وتخرجه من العدم إلى الوجود، وذلك لاستحالة تحول العدم بنفسه إلى الوجود.

أما ما لا يحمل في ذاته صفات تدل على حدوثه مطلقاً، وتقضي الضرورة العقلية بوجوده، فوجوده هو الأصل. لذلك فهو لا يحتاج أصلاً إلى موجد يوجده، وكل تساؤلٍ عن سبب وجوده تساؤل باطلٌ بالحتمية العقلية، لأنه أزلي واجب الوجود، ولا يمكن أن يكون غير ذلك عقلاً، وليس حادثاً حتى يتساءل الفكر عن سبب وجوده.

وهنا نقول: لو كانت صفات الكون تقتضي أزليته، لقلنا فيه أيضاً كذلك. لكن: صفات الكون المشاهدة المدروسة تثبت حدوثه.

يضاف إلى هذا أن مادة الكون الأولى عاجزة بطبيعتها عن المسيرة الارتقائية التي ترتقي بها ذاتياً إلى ظاهرة الحياة، فالحياة الراقية في الإنسان.

بهذا تنكشف للبصير المنصف المغالطة الشيطانية التي يوسوس بها الشيطان، وتخطر على أذهان بعض الناس، بمقتضى قصور رؤيتهم عن استيعاب كل جوانب الموضوع وزواياه، فهم بسبب هذا القصور في الرؤية يتساءلون: وما علّة وجود الله؟

إنها مغالطة تريد أن تجعل الأزلي حادثاً، وأن تجعل واجب الوجود عقلاً ممكن الوجود عقلاً وأن الأصل فيه العدم، ليتساءل الفكر عن علة وجوده. أو تريد أن توهم بأن ما قامت الأدلة على حدوثه هو أزلي، أو هو واجب الوجود لذاته، لتسوي بين الحادث والأزلي في عدم الحاجة إلى علةٍ لوجوده.

وتريد هذه المغالطة أن تطمس الضرورة العقلية التي تقضي بأن الأصل هو وجود موجودٍ أزلي، وهذا الموجود الأزلي لا يصح عقلاً أن يُسأل عن علة لوجوده مطلقا؛ لتنافي هذا السؤال مع منطق العقل، وهذا الموجود الأزلي لا يمكن أن تكون له صفات تستلزم حدوثه.

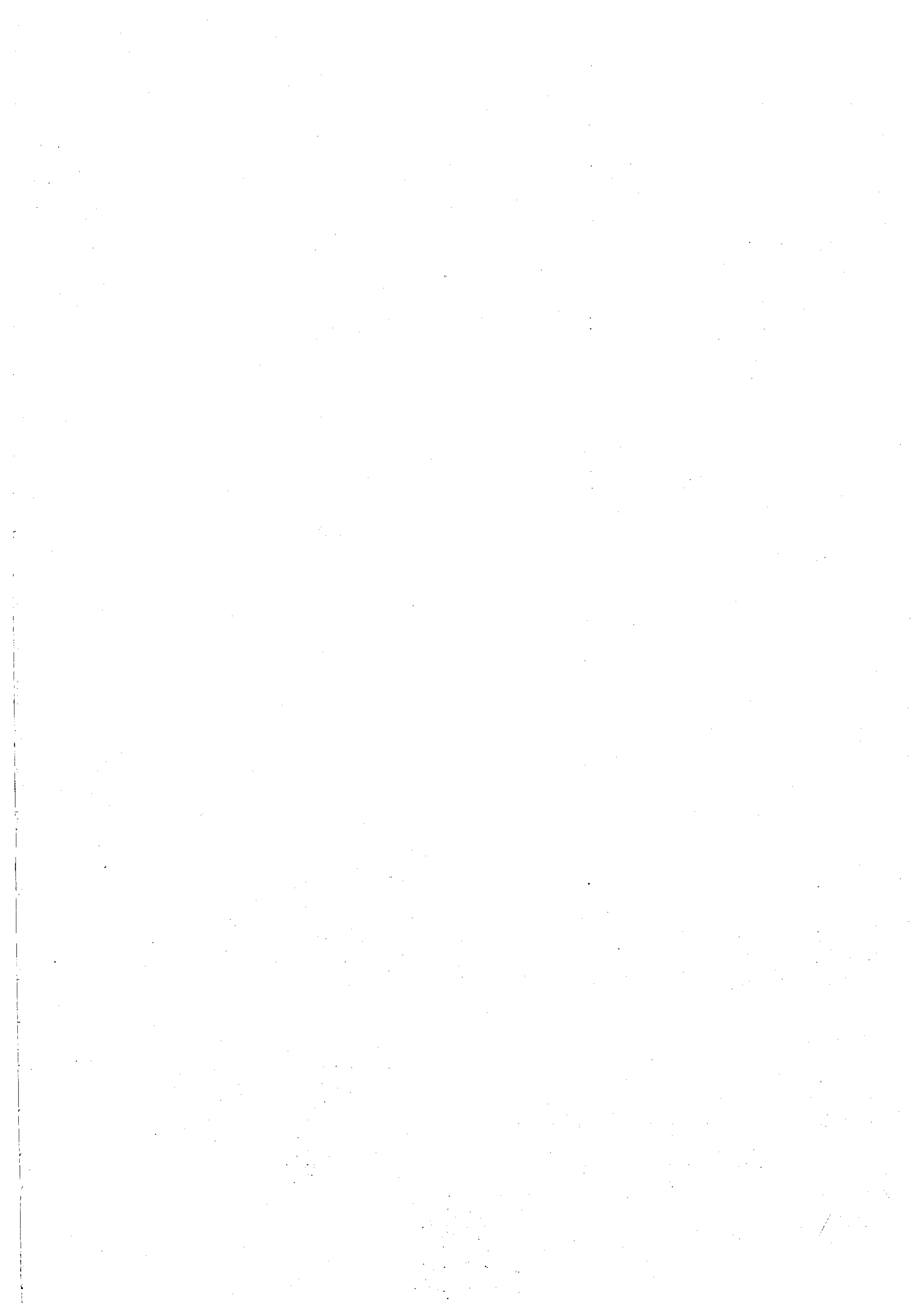
أما الكون فصفاته تستلزم - بالبراهين العقلية والأدلة العلمية المختلفة- حدوثه، لذلك كان لابد من السؤال عن علةٍ لوجوده، ولا تكون هذه العلة إلا من قبل الموجود الأزلي، الذي يقضي منطق العقل بضرورة وجوده، خارجاً عن حدود الزمن ذي البداية والنهاية، وخلاف ذلك مستحيل عقلاً.

والحدوث من العدم العام الشامل دون سببٍ من موجود سابق له مستحيلٌ عقلاً - كما سبق بيانه -[1].

---

(١) وقال الشيخ جعفر شيخ إدريس في كتابه «الفيزياء ووجود الخالق» (ص ١٢٢): «إن الإجابة عن هذا السؤال - أي مَن خلق الله؟ - الذي يظنه هؤلاء الفلاسفة والعلماء وكثيرون غيرهم سؤالاً عويصًا: في غاية السهولة؛ إذا سلّم الخصم بأن الكون الحادث لا بد له من سبب غير حادث، ثم سلّم بأن هذا السبب غير حادث - أي الأزلي - هو المسمى بالله، فإن سؤاله عن خالق أو سبب لله لا يكون له معنى إطلاقًا، إنه سؤال من لا يتصور ما يقول، إنه سؤال ينطوي على تناقض عجيب: ذلك لأن السبب - ضرورة - سابق للمسبب، و الأزلي ضرورة غير مسبوق بشي؛ فكيف يكون له سبب؟
إن قول القائل: مَن خلق الله؟ يساوي قوله ماالذي سبق الشيء الذي لا شيء قبله؟ =

= أو: ما بعد الشيء الذي لا شيء بعده؟ فهل تجد لمثل هذا السؤال من معنى؟ إذا أخبرتَ إنسانًا بأن فلانًا كان أول العدائين؛ فهل يصح أن يقول لك: نعم، لكن من الذي سبقه! كذلك هنا - و لله المثل الأعلى -، قد قام الدليل على أن الله تعالى هو الأول الذي لا شيء قبله؛ فكيف يُقال ما سببه أو مَن خالقه؟».



فهرس المحتويات